جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية — قسم التاريخ

تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي

من القرن الثالث إلى الخامس هجري

(٩م – ١١م)

بحث لنيل شهادة ماجستير

في تاريخ المغرب الإسلامي

إعداد الطالبة

جميلة بن موسى

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور : ابراهيم فخار

٢٠٠١ / ٢٠٠٠

إهـــــــداء

إلى والدي العزيزين، أطال الله عمرهما.

إلى زوجي المحترم الذي تحمل الكثير في إنجاز هذا العمل.

إلى أبنائي الأعزاء، عبد العال، نسيمة و محمد الصادق الأمين، الذين تقبلوا بكل تفهم انشغالي عنهم طيلة الفترة التي استغرقتها الدراسة.

إلى إخوتي و أخواتي، إلى خديجة و إلى كل من قدم لي يد العون و ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث.

شكـــــــــر و عرفـــــــان

أتقدم بخالص الشكر و الامتنان لأستاذي المشرف الدكتور إبراهيم فخار، الذي لم يبخل علي بإرشاداته و توجيهاته طيلة الفترة التي استغرقها إنجاز البحث. لقد كان بحق نعم الأستاذ و المشرف و الموجه الذي يرعى بصبر و أناة طلبته و يقوم عثرتهم. فمهما أظهـــرت من أمتنان و شكر و عرفان فإنني لن أفيه حقه، فجزاه الله عني كل خير.

كما أتقدم بشكري و عرفاني إلى كل من ساهـــم في تسهيل المهمة علي، من أساتذة و عمال معهد التاريخ، و أخص بالذكر منهم الدكتور نصر الدين سعيـــدوني، الدكتورة يحياوي، و الأساتذة تلمساني، بوجلة، زهرة و نعيمة و جميع الذين لم يبخلوا علي بنصائحهم القيمة.

و لا يفوتني أن أتقدم بخالص امتناني إلى السيدة برعياد مديرة مكتبة المجلس الإسلامي الأعلى و كل الموظفين الذين وفروا لي و لإخواني الباحثين أقصى شروط الراحة والهدوء فضلا عن تفانيهم في خدمتنا و توفير كل الوسائل التي مكنتني من إنجاز هذا البحث في ظروف ملائمة.

المقدمـــــة

أمام النقص الشامل و الفراغ الهائل الذي تعاني منه مكتباتنا الجامعية من مثل هذه الدراسات التاريخية الاقتصادية لمنطقة المغرب الإسلامي، وجدت نفسي مهتمة بموضوع الذهب الذي أثار انتباهي مرارا ليس لأنه معدن ثمين فحسب، بل لأنه مصدر مادي اقتصادي هام استطاع أن يترك بصماته في الحياة الاقتصادية للمنطقة لفترة زمنية طويلة . و لأن دراسة التاريخ الاقتصادي تدخل في مقياس الدراسات التي يلجأ إليها لمعرفة مدى ازدهار الدولة و تفوقها، كما تعتبر المجال الذي يكتشف الباحث من خلاله القوى المادية التي تمكن الدولة من ترسيخ كيانها داخليا والتصدي للقوى المعتدية خارجيا.

و من خلال الاطلاع الأولي، على المصادر و المراجع العربية و الدراسات الغربية التي تناولت الموضوع، وجدت نفسي أمام تساؤلات عدة منها :كيف يمكن لي وضع تصور شامل لهذا الموضوع ضمن دراسة تاريخية اقتصادية، خاصة و أن المصادر و المراجع التي تطرقت إليه ذكرته على شكل شذرات متناثرة في دراسة الحياة الاقتصادية للمغرب، كعامل من عوامل النمو، أو في الحياة السياسية و الاجتماعية كسبب من أسباب النزاع بين الدول و كمصدر من مصادر الرزق و الكسب و الاكتناز.

كما كانت المهمة علي أصعب عندما حاولت تحديد الفترة الزمنية لهذه الدراسة.
لكن أهمية الموضوع و اهتمامي به دفعني إلى التكيف مع كل مراحل الدراسة، التي فتحت لي الباب على إشكاليات عديدة و تساؤلات كثيرة قادتني إلى أن أواجه أكثر فترات المغرب الإسلامي ازدهارا وتفوقا، و أكبر إمبراطورياته التي عرفت كيف تستغل هذا المعدن لصالحها و لصالح العالم الإسلامي، بعدما كان لقبائلها الملثمة الفضل في نشر لواء الإسلام في إفريقية الغربية وبالتحديد السودان الغربي. هذه الإمبراطورية التي طبعت العلاقات بين الشمال و الجنوب بطابع اقتصادي لم يسبق لها مثيل من قبل ، أي على أسس تجارية و مصالح متبادلة. كان معدن الذهب محركها الأساسي.

كما ساقتني الدراسة إلى فتح نافذة على موضوع لا يقل أهمية عن الموضوع السالف الذكر، ألا و هو العنصر اليهودي و الدور الذي لعبه في الحياة الاقتصادية للمغرب عامة و دورهم في تجارة الذهب خاصة. و إذا حاولت توضيح أسباب اختياري للموضوع المعنون كالآتي : "تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للقرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي"، أجدها ملخصة في الأسئلة التالية :

- لماذا اعتبر معدن الذهب مميزا عن غيره من المعادن ؟
- لماذا اهتمت به كافة الحكومات و الأمم ؟
- ما هو الدور الذي لعبه الذهب في الحياة الاقتصادية للمغرب؟
- ما هي أهم العوامل التي ساهمت في إنجاح هذه التجارة ؟
- كيف كان يتم اجتياز مفاوز الصحراء و تحدي مخاطرها ؟
- لماذا نجح الجمل كوسيلة نقل لاجتياز الصحراء ؟
- لماذا ذهب السودان الغربي بالتحديد و ما علاقته بعبارة التبر ؟
- لماذا أدرج موضوع اليهود في هذه الدراسة، و ما هي الأسباب التي جعلت من اليهود عاملا نشيطا في تحريك هذه التجارة و ما هو مدى سيطرتهم و استغلالهم للمعدن الثمين وتجارته.

ومازالت هذه التساؤلات تشكل موضوع بحث لدراسات أكاديمية في المستوى العلمي الذي تستحقه، خاصة تلك التي أصبح علم الآثار يلعب فيها دورا حاسما في إبراز أهمية دراستها بالنسبة لتاريخ المنطقة.و لتحديد ذلك ارتأيت إلى إدراج ذلك على شكل عنوان تضمن تحليلا لمحتوى فصول الرسالة.

تقديـــم الفصـــول:

بعد تحديد نقاط الفصول المدروسة في هذه الرسالة عني أن أحاول تقديم و لو بإيجاز، المضمون الذي يشكل كل فصل، مع محاولة الإجابة على بعض التساؤلات و ترك البعض الآخر على شكل آفاق للبحث، عسى أن تلقى من المهتمين بهذا الموضوع عناية علمية تثري الدراسات في هذا المجال.

الفصـــل الأول :

بالنسبة للفصل الأول حاولت من خلال النقاط المذكورة فيه أن اطرح جملة من القضايا و التي تتمثل في إعادة الاعتبار إلى الدراسات الطبيعية و البشرية لمنطقتي المغرب الإسلامي و السودان الغربي. خاصة عندما يتعلق الأمر، بتلك المظاهر التي ميزتها في فترة العصور الوسطى والتي سمحت لها أن تعرف تركيزا بشريا صعب على الدراسات الحديثة تصديقها، في منطقة كالصحراء الكبرى التي مازالت تسيل الحبر الكثير، وهذا انطلاقا مما تعرفه هذه الصحراء اليوم من قسوة الطبيعة التي حالت دون السماح لمثل تلك التجمعات البشرية أن تعيش نفس الازدهار في نفس المنطقة و في نفس الظروف الطبيعة. هذا السؤال يقودني إلى إجابتين محددتين :

- الأولى، هي أن الصحراء التي ميزت منطقة المغرب الإسلامي في العصور الوسطى تختلف تماما عن صحراء اليوم.
- الثانية، هي أن التبادل التجاري الذي عرفته الصحراء الكبرى بقوافلها و تجارها وعدد جمالها، فسر أهمية البضاعة التي اجتازت الصحراء الكبرى و التي تمثلت في معدن الذهب.

ومن جهة أخرى حاولت طرح قضية الفتوحات الإسلامية، جنوب الصحراء الكبرى باتجاه السودان الغربي، و التي من خلالها يمكن لي اكتشاف الأهداف البعيدة التي كانت ضمن مشاريع هذه الدولة و قادها الذين استخدموا راية الإسلام لتحقيق أغراض دينية و اقتصادية في آن واحد. و ما توصلت إليه، هو أنني لا استبعد فكرة أن القادة الفاتحين كانوا على دراية بوجود الذهب في المنطقة، فكانت بذلك محاولاتهم الأولى لفتح المنطقة ثم الاستقرار بها.

و من القضايا الأخرى التي تثير الانتباه في هذا الفصل قضية الصحراء، و أي صحراء أشير إليها في هذا الموضوع ؟ بالطبع إنها الصحراء الكبرى، التي أصبح العديد من الدارسين في الموضوع يحاولون جعل الرحلة فيها نوعا من المغامرة و المجازفة لكثرة مخاطرها، سواء منها الطبيعية (الجفاف، الحرارة الشديدة، الزوابع الرملية..) أو البشرية (قطاع الطرق..). لقد طرحت عدة تساؤلات في الدراسات الغربية التي رأت في ذلك استحالة تقبل الفكرة، أي الرحلة التي كانت تنظم في هذه الفترة، لاجتياز الصحراء بالشكل الذي وصفته العديد من الروايات المعاصرة للفترة. خاصة عندما يتعلق الأمر بعدد التجار و الجمال الذين شكلوا القافلة التي عبرت الصحراء باتجاه السودان الغربي.

في نفس الإشكالية حاولت إدراج العنصر الأساسي للرحلة عبر الصحراء و محركها الوحيد، الذي تمثل في الجمل، "سفينة الصحراء". هذه الوسيلة التي أعتمد عليها كثيرا في إنجاح المهمة التاريخية التي ميزت أحداث المنطقتين، أي ربط العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي. هذا الحيوان الذي كان و مازال محل اهتمام العديد من الدراسات حينما يتعلق الأمر بموضوع الصحراء و التجارة العابرة لها، أو القافلة وتنظيمها. و السؤال المطروح لماذا الجمل بالتحديد و ليس غيره ؟ لقد لاحظت أن الدراسات الحديثة كانت دائما تحاول إيجاد جواب لموضوع القدرات التي ميزت الجمل و سمحت له أن يعبر الصحراء، بتخطي مصاعبها والتأقلم مع بيئتها، حتى اصبح فعلا القوة التي دعمت نجاح رحلة القافلة في مهامها التجارية، وبقاء الإنسان على قيد الحياة، بتخزين كميات معتبرة من الماء في كرشها.

أما بالنسبة للإشكالية الثالثة التي تضمنها الفصل الأول تتعلق بالأنظمة التي سادت منطقتي المغرب الإسلامي و السودان الغربي في نفس الفترة الزمنية المحددة للدراسة، و التي كان لها الحظ في استغلال ظروف الفترة و أحداثها للبروز على الساحة السياسية و الاقتصادية و استخدام ذلك لصالحها و لصالح سيادتها في المنطقة.

و الكلام عن إمبراطورية المرابطين و تجارة ذهب السودان الغربي، لن يزيد الموضوع إلا ثراء، بسبب ما لدورها السياسي من أثر كبير على المنطقة. و في هذا الإطار حاولت إبراز الدور الذي لعبته في المجال الاقتصادي و علاقتها بمعدن الذهب خاصة إذا تعلق الأمر بسك عملة ذهبية، حققت سمعة داخلية و خارجية. هذا الموضوع الذي أشير إليه كثيرا في دراسة المسكوكات الإسلامية، و التي لاحظت أنها ما زالت تلعب دورا هاما في دراسة أغراض الدولة و أهدافها الأيديولوجية، كما أصبحت مصدرا من مصادر دراسة تاريخ الأمم و الشعوب.

أما عن الإمبراطورية الثانية التي أشير إليها في هذا الفصل، فهي غانة، التي ركزت عليها كثيرا في هذه الدراسة، ليس من باب إهمال الممالك الأخرى التي عرفها السودان الغربي في هذه الفترة، لكن لعدة أسباب.

- أولا : دور هذه الإمبراطورية في تجارة الذهب و قربها من المناطق المنتجة له، و كونها أقوى إمبراطورية في السودان الغربي في الفترة الممتدة بيت القرنين التاسع والحادي عشر، و التي كثيرا ما حالت دون توسع الفتوحات الإسلامية صوب الجنوب.

- ثانيا : اعتناق هذه الإمبراطورية للإسلام في نفس الفترة وتسخير كافة إمكانياتها البشرية والمادية لنشر الإسلام و استقرار المسلمين بها ثم استغلال ثرواتها لصالح الإسلام والمسلمين.

- ثالثا : اعتبار إمبراطورية غانة أكبر مالك ومستغل لمعدن الذهب، تكفي الإشارة إلى العبارة التي رددها كل الدارسين و الباحثين في الموضوع أن غانة تعني (أرض الذهب).

الفصل الثاني :

لا يمكن لأي باحث أو دارس أن يباشر أبحاثه دون أن يحدد لها أهدافا معينة تزيل الغموض على عدة نقاط قللت من شأن الموضوع أو زادت من قيمته. و هكذا كان الأمر بالنسبة لموضوع الذهب الذي تعددت اهتماماته و تفرعت اختصاصاته فحاولت من خلال هذا الفصل أن أقدم و لو بشكل محدد الأهمية الاقتصادية لهذا المعدن الثمين، الذي أصبح مصدر الثروة و القوة ومحل اهتمام العديد من الأنظمة السياسية في مشارق الأرض و مغاربها، كما حاولت أيضا أن أحدد المجالات التي اقتحمها هذا المعدن مسجلا في ذلك التفوق الأكبر لمالكيه.

هذا يقودني إلى تحديد الأهمية الاقتصادية و الاجتماعية ر خاصة منها التجارية التي اكتسبها هذا المعدن السوداني خلال القرنين التاسع و الحادي عشر. و لتأكيد ذلك، وجبت علي العودة إلى المواطن الأصلية لهذا المعدن في إفريقيا الغربية و بالتحديد السودان الغربي و الطرق التي كان يستخرج بها. و تزداد أهمية هذا المعدن عندما يحدد دوره في تجارة المغرب الإسلامي و بروز القوة الاقتصادية لكل الدول التي أشرفت على تجارته.و لن يكون هذا التصور كاملا دون العودة إلى التعريف بهذا المعدن و إعطاء لمحة تاريخية وجيزة عن اهتمام المجتمع بهذا المعدن الجميل منذ اكثر من ستة آلاف سنة، حيث أعتبر معدن ثمين من خلال ندرته و طرق استغلاله و من خلال مجالات استخدامه التي برهن من خلالها العلماء المختصين و المهتمين بالذهب انه من بين احسن المعادن التي عرفها الإنسان منذ اكتشافه إلى حد اليوم . لا يمكن دراسة معدن الذهب السوداني دون التطرق إلى التأثيرات التي أحدثتها تجارته في المجال المالي عندما شكل عملة ذهبية (الدينار المرابطي).تكفي الإشارة إلى هذه النقطة لتوضيح أهم الأسباب التي دفعت بدول المغرب أن تتصارع فيما بينها من اجل الاستحواذ على المسالك المشرفة على تجارته أو المراكز التي ضرب فيها عملته.من خلال هذا التحليل و الإشكاليات التي تضمنها البحث علي أن أفتح مجالا للتساؤل حول آفاق دراسة موضوع عملة المرابطين و الدور الاقتصادي و السياسي الذي لعبته في المغرب وخارجه.كما يعتبر هذا الموضوع من أهم المواضيع التي يمكن من خلالها إبراز التطورات التي عاشتها المنطقة خلال فترة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين.

الفصل الثالث :

يعتبر هذا الفصل أهم الفصول التي تضمنها البحث، بسبب إشارته إلى النشاط التجاري الذي ربط الشمال بالجنوب، و الذي اعتمد على معدن الذهب كبضاعة أساسية، عبئت من أجلها الجمال و نظمت من أجلها القوافل، و انتقل التجار من المشرق إلى المغرب و أصبح الكوفي سجلماسي و السجلماسي غاني.

ليس من السهل تقبل فكرة تنظيم مثل هذه التجارة من أجل استيراد معدن الذهب كبضاعة يشتريها كل من سمحت له الظروف المادية ذلك، انطلاقا من القيمة المادية الثمينة التي يتمتع بها الذهب في وقتنا الحالي. لكن توفر معدن الذهب في مناجم إفريقيا الغربية عامة والسودان الغربي خاصة، جعلت منه بضاعة تنقل على ظهر الجمال كبقية البضائع الأخرى التي جلبها المغرب من السودان، أو جلبها السودان من المغرب. و الكلام عن كمية الذهب التي جلبها التجار المغاربة من السودان، تكفي للدلالة على توفر هذا المعدن، و بالتالي تقبل فكرة وجود ما كان يسمى بتجارة الذهب التي بفضلها، دعمت أواصر الاخوة بين سكان المغرب و السودان الغربي، و التي كان الفتح الإسلامي أول من وضع لبنتها الأساسية.

و قد مكنت تجارة معدن الذهب توسيع النشاط التجاري بين المغرب و السودان الغربي فحققت ما لم تستطع القوى الاستعمارية تحقيقه، وهو تعمير الصحراء واجتياز مفازاتها بكل مهارة و حكمة. و يظهر ذلك من خلال الإنجازات العمرانية التي عرفتها الصحراء طيلة فترة ازدهار تجارة الذهب بين المغرب و السودان الغربي. لتكن ظاهرة اختفاء المدن و ظهور الأخرى أو حفر الآبار وتغيير الطريق من الشرق إلى الغرب دليلا على إرادة الإنسان المغربي الذي أعطى لحياته طابعا جديدا، في ظروف جديدة، سمحت له أن يلعب دورا بارزا في رسم أحداث تاريخ المنطقة خلال فترة العصور الوسطى.

الفصل الرابـــــع :

يشكل محتوى الفصل الرابع إحدى أهم الدراسات التي ما زال المغرب الإسلامي يفتقر إليها، بسبب نقص المصادر و نقص المهتمين بها. لقد لاحظت من خلال الموضوعية التاريخية التي انطلقت بها لإنجاز بحثي، إدراج موضوع اليهود ضمن فصول هذه لدراسة بسبب ما لهذه العناصر من دور في هذه التجارة أولا، و بسبب الأهمية التي أولتها نفس هذه العناصر لمعدن الذهب عبر التاريخ، من أجل الاستحواذ عليه و احتكاره. ودفعتني دراسة هذه الفكرة إلى التطرق إلى بدايات الوجود اليهودي في المغرب الإسلامي، بشكل مختصر جدا و الدور الذي لعبوه في الحياة الاقتصادية للمنطقة، و إلى أي مدى سهل اهتمامهم بتجارة الصحراء، عملية استغلال ذهب السودان الغربي. و يبقى هذا الفصل مجالا دراسيا واسعا يتطلب الاهتمام و العناية العلمية التي يستحقها، لتوضيح الدور الحقيقي الذي لعبته هذه العناصر في تاريخ المنطقة بإيجابياته وسلبياته.

أسبـــــاب اختيـــار الفتـــرة ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للقرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي.

لقد نجحـــت الفتوحـــات الإسلاميـــة في تأسيس إمبراطوريـــة سياسيـــة مترامیـــة الأطـــراف، امتـــدت من المحيـــط الهـــادي إلى المحيـــط الأطلســـي. وأهـــم ما ميز انتصارها السياســـي ذلك، هو التفـــوق الاقتصـــادي الذي كانت له انعكاســـات في مختلـــف مجالات الحيـــاة. و أول مظاهر هذا التفـــوق، استحـــواذ هذه الإمبراطوريـــة الإسلاميـــة في مختلف الأمصـــار التي فتحتهـــا على معدن الذهـــب، الذي سمـــح لها أن تضـــرب عملـــة ذات قيمـــة كاد أن يعتـــرف بها عالميا و بصفـــة شاملـــة.

إذا كـــان الموضـــوع المحـــدد لإنجاز هذا البحث متعلـــقا بمعـــدن الذهـــب في الســـودان الغـــربي وتأثيراتـــه على تجـــارة المغـــرب الإسلامي خاصـــة، ثـــم العالم الإسلامـــي عامـــة فيما بعـــد، فهذا يعـــني أن هناك علاقـــة بين هـــذا التفـــوق الـــذي حققـــه العـــالم الإســـلامي و المعـــدن الذي كـــان يستورد من الســـودان الغـــربي.

و إذا حاولت التفسير أكثـر، فأقـول أن الصبغـة العالميـة التي كـاد أن يحققهـا الدينـار الإسلامـي يعـود الفضـل فيهـا إلى الذهـب السـوداني الذي كان يعبـر الصحـراء الكبـرى باتجـاه الشمـال والشـرق. و بالتـالي تكـون فترة القرنيـن التاسـع والحـادي عشـر للميـلاد الموافق للثالـث والخامـس الهجـري، فتـرة مميـزة بالنسبـة للعالـم الإسلامـي، و التفـوق الذي حققـه في المـجال الاقتصـادي كما تكـون مميـزة بالنسبة لمعدن ذهـب السـودان الغربي الـذي برز هو الآخـر كعامـل من عوامل التطـور والتفـوق والازدهـار.

هذا من جهـة، ومن جهـة أخـرى إن تحديد هـذه الفترة لمنطقتي المغـرب الإسلامي والسـودان الغـربي، كانـت مميـزة بالنسبـة للمغـرب الإسلامـي، خاصة في الاستقـرار والأمـن و التطـور الذي حققتـه إمبراطوريـة المرابطيـن، وفي طمأنينـة القوافـل التجاريـة و التجـار الذين كثيرا ما عانوا من عدم الاستقرار قبـل تأسيـس هـذه الإمبراطوريـة. و أذكر على سبيل المثـال لا الحصر، القبائل المتنقلة التي اعتـادت أن تعيـش على مدخـول كان مصـدره الغنائم التي تجلبـها من عمليـات قطـع الطريـق على القوافـل التجاريـة العابـرة للصحـراء. إضافـة إلى الفوضى التي عمت المنطقـة بعد توسـع قبائـل بني هلال في أوساط المنطقـة و زرع الهلع و الخـوف، في أوسـاط السكان المستقريـن وغيرهم.

كما أنه لا يمكن تجاهـل التوسـع الذي شهدتـه تجارة الذهـب بعـد اهتمـام كل الدويـلات المستقلـة التي ظهـرت في المغـرب الإسلامـي بـها ومـدى استفـادة هذه الأخيـرة من المـعدن الأصفـر في مختلـف المجالات، كـل حسب قوتهـا و الوجـود الذي فرضتـه في المنطقـة، ويبـدو هذا جليـا في الاستفـادة المختلفـة لكل من الأغالبـة والفاطمييـن أو المرابطيـن و الأدارسـة.

أما بالنسبة لمنطقة إفريقيا و بالتحديد موضوع هذه الدراسة، أي السودان الغربي، فكانت فترة القرن الثامن و التاسع الميلادي الموافق للثاني والثالث الهجري، من الفترات التي نجحت فيها الفتوحات الإسلامية في تحقيق أغراض دينية أي نشر الإسلام في أوساط الوثنيين، رغم أن الفاتحين كانت لهم محاولات قبل ذلك، إلا أن التوسع الحقيقي تمثل في دخول العديد من الممالك و أهمها مملكة غانة في الإسلام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى توافد التجار و الاتصالات المكثفة التي سجلت بين الشمال والجنوب في هذه الفترة.

لكن بعد الغوص في الموضوع لاحظت أن دراسة ثلاثة قرون، تعتبر فترة طويلة لمثل هذه الأبحاث و بالحجم الذي تتطلبه الدراسة الأكاديمية لكن ما دامت الدراسة عبارة عن جمع شمل موضوع يستحق الاهتمام والدقة في البحث، اقتنعت بالفكرة و باشرت في عملي عساي أن أكون قد وفقت فيه لخدمة البحث العلمي الذي تصبو إليه جامعتنا.

إشكالية الموضوع :

لم يكن سهلا علي تحديد إشكالية بحثي بسبب تعدد المواضيع المرتبطة به والتي يشكل كل واحد منها دراسة في حد ذاته. و لكنني حاولت من خلال ما قرأته حول الموضوع و الفترة المحددة له أن أطرح الإشكالية كما يلي :

هل وجد فعلا ما كان يسمى بتجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري الموافق للتاسع والحادي عشر الميلاديين ؟ أم أن التبادل الذي ميز العلاقات بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي في هذه الفترة كان ذا طابع عام، و ما شأن الذهب إلا شأن البضاعة العادية كان الأفارقة يقايضون بها. وتجارة الذهب هذه لم تظهر إلا بعد أن اكتشف البرتغاليون ساحل غينينا خلال القرن الخامس عشر. أي بعد أن تطورت تقنيات البحث عن هذا المعدن و طرق استغلاله أكثر مما كانت عليه سابقا، و بعد أن اصبح لمعدن الذهب شأن اقتصادي مميز في حوض البحر الأبيض المتوسط.

و طبيعـــة الإشكاليـــة هذه، تطلبت مني البحث عن كل الشـــروط التي أدت إلى ازدهار هـــذه التجـــارة داخل المحيط الذي ظهرت فيه و خارجه، ومـــدى نجاحها في تحقيق ازدهار اقتصادي لإقليمي المغرب و السودان الغربي.

تقييـــم المصـــــادر و المراجـــــع :

منذ بداية البحث، وجدت نفسي مضطرة إلى مراجعة المصادر التاريخية و الفقهية خاصة منها الجغرافية التي وجدت فيها المادة الأولية اللازمة للقيام ببحثي، و هذا رغم افتقارها لدراسات اقتصادية دقيقة تسهل عملية البحث و تثمنها. وأثناء البحث، لاحظت أن مكتباتنا الجامعية تفتقر بشكل كبير، لمثل هذه المصادر التاريخية القيمة و التي تعتبر المرجع الوحيد لإنجاز مثل هذه الدراسات. وأهمية هذه المصادر تبدو واضحة بالنسبة للموضوع، من خلال اعتماد كل الدراسات الحديثة و الغربية عليها، باعتبارها القاعدة العلمية الأولية التي يجب الانطلاق منها قبل الإطلاع على الدراسات الأخرى، خاصة عندما يتعلق الأمر بدراسة فترة العصور الوسطى. هذا ما اكتشفته من خلال البحث في موضوع الذهب، الذي عادت فيه الدراسات الغربية إلى تلك الروايات، التي ذكرت تقريبا من طرف جل الرحالة العرب و غير العرب، و مما زاد من تمسكي بها و الاعتماد عليها، و لو أنها في بعض الأحيان تحتاج إلى الدقة العلمية فأنها تبقى مصدرا لا يستهان به في لمثل هذه الدراسات.

و أريد أن ألفت هنا انتباه الدارسين و الباحثين في هذا المجال إلى إعادة الاعتبار إلى مثل هذه المصادر، ليس من باب الاعتماد عليها، للحصول على المادة التاريخية فقط، بل لجعلها هي بنفسها مجالا للدراسة. ولقد توسعت نظرتي العلمية في هذا المجال بعد أن استمعت إلى أراء العديد من الأساتذة الغربيين المختصين في هـــذه الدراسات. و من أهم هذه المصادر التي اعتبرتها المرجع الأول لموضـــع ذهب السودان الغربي، كتاب أبو عبيد عبد الله البكري (ت. حوالي 487 هـــ/ 1095 م) "المسالك و الممالك"، هذا الكتاب الذي تم تأليفه سنة 460 هـــ/1068 م، استطعت أن استفيد من قسمه الثاني الذي تطرق فيه إلى ذكر بلاد المغرب و أقاليم الصحراء و مملكة غانة.

حيث يعتبر هذا القسم الذي ترجمه دي سلان و الذي يحمل عنوان "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، من أهم المصادر التي تناولت موضوع المدن الصحراوية ووصف مدينة غانة و ملوكها وعادات وتقاليد شعبها، بالإضافة إلى أهم مسالك بلاد السودان الغربي و وصف ملك غانة ومعدن الذهب.

هذه الرواية التي اعتمد عليها العديد من الدارسين الغربيين، خاصة فيما يتعلق "باحتكار ملك غانة لتبرات الذهب و ترك الرمل الذهبي للسكان". كما ازدادت أهمية هذا المصدر بسبب تزامن أحداثه مع الفترة الزمنية التي حددت لدراسة هذه الرسالة و هي فترة القرن الحادي عشر.

أما المصدر الثاني الذي لا يقل أهمية عن المصدر الأول : كتاب أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسيني المكنى بالصقلي المعروف بالشريف الادريسي المولود عام 493 هـ/1100 م و المتوفى بصقلية عام 558-560 هـ/1163-1166م، تحت عنوان " نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، و الذي يعتبر كتابا جغرافيا جامعا و من أمهات الموسوعات الجغرافية الوصفية في العصور الوسطى. اعتمدت على جزئه الأول الذي تناول وصف مدن المغرب و السودان، و ذكر القافلة و طريقة تنظيمها، ورحلتها عبر الصحراء. إضافة إلى روايته التي تناول فيها "الجزيرة" التي يستخرج منها ذهب السودان. لقد عرفت هذه الرواية عدة انتقادات من طرف الدراسات الغربية، التي اهتمت بموضوع الذهب لأن الواقع الذي تعيشه هذه المنطقة اليوم لا يشير إلى وجود ما يعرف بالجزيرة. هذا معناه أن الإدريسي شبّه المنطقة الواقعة بين روافد نهر السنغال و النيجر بالجزيرة، بسبب إحاطتها بالمياه. و لا أدري إن كان الإدريس يدرك ذلك أم لا ؟

و لم يقتصر اعتمادي على هذه المصادر فقط، بل هناك من المصادر ما يستحق الذكر، و التي شكلت لي قاموسا أو معجما لبلدان المغرب و السودان. و من أمثلة ذلك كتاب "صورة الأرض " لابن حوقل، " البلدان " لليعقوبي، " معجم البلدان " لياقوت الحموي، إضافة إلى كتاب " الجغرافيا " لابن سعيد المغربي. فإذا كانت الكتب الجغرافية المصدر الأساسي لهذا البحث فهذا لا يعني عدم اعتمادي على الكتب التاريخية التي دفعتني ضرورة البحث إلى العودة إليها و من أمثلتها، " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب" لصاحبه أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي (ت: 706هـ/1307م) و الذي يعتبر من أهم المصادر التاريخية التي يجب العودة إليها عند كتابة تاريخ المغرب، على الخصوص، و الطبعة المعتمد عليها في هذه الرسالة من تحقيق إحسان عباس (ط : 1998م) و التي قسمت إلى أربعة أجزاء. و الكتاب التاريخي الثاني فهو لابن أبي زرع الفاسي، تحت عنوان " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فأس". و الذي أفادني كثيرا في موضوع يهود مدينة فاس. كما اعتمدت على كتاب القيرواني "المؤنس في أخبار إفريقية و تونس" في معرفة أحداث الدولة العُبيدية على الخصوص. و تبقى هذه الكتب التاريخية من أهم الكتب التي كانت و ما زالت تشكل المصدر الحقيقي لتاريخ منطقة المغرب و التي تفتقر إليها مكتباتنا.

المراجـــع العربيـــة :

يصعب علي تقييم المراجع العربية التي اعتمدت عليها بسبب تعددها و أهمية المواضيع التي عالجتها، لكن رغم ذلك حاولت ذكر البعض منها، دون التقليل من أهمية المراجع الأخرى التي لم أدرجها ضمن القائمة المشار إليها في هذا التقييم. و مما يستحق الذكر في هذا المجال كتاب سعد زغلول عبد الحميد " تاريخ المغرب العربي " بأجزائه الأربعة، و الذي لاحظت فيه دراسة، يمكن الاعتماد عليها عندما يتعلق الأمر بتاريخ المغرب الإسلامي، بسبب القيمة العلمية التي يتمتع بها و الدراسة الدقيقة التي اعتمدها في تحاليله. و المرجع الثاني فهو للدكتور عبد العزيز ســالم تحت

عنوان" المغرب الكبير"، الجزء الأول، ط. 1981، و الذي تناول مختلف الأنظمة التي عرفها المغرب الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى و المآثر التي خلفتها في مختلف المجالات. أما في المجال الاقتصادي اخترت كتاب عز الدين احمد موسى، " النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري"، رغم ابتعاد فترة هذا الكتاب عن الفترة التي حددتها لدراسة موضوع تجارة الذهب بقليل، وجدت نفسي معتمدة عليه بسبب غزارة المعلومات التي تضمنها. أما الكتاب الثاني فهو لحركات إبراهيم تحت عنوان "النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط".

المراجـــع الأجنبيـــة :

حاولت تقسيم المراجع الأجنبية إلى قسمين :

القسم الأول : تناولت فيه المراجع التي ترجمت إلى اللغة العربية. و مما يستحق الذكر في هذا المجال، كتاب "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير" بقلم بوفيل BOVIL ترجمـة الهادي أبو لقمة و محمد عزيز. يعتبر هذا الكتاب الذي قدم في حوالي 383 ص من أهم الكتب التي عالجت موضوع تجارة الذهب بشكل مباشر. و تضمن ستة أبواب كانت أربع منها مرجعا أوليا بالنسبة للبحث، خاصة تلك التي أشارت إلى موضوع الذهب و تجارته، و باب السودان والصحراء و غانة. و أصل الكتاب باللغة الإنجليزيـة تحت عنوان :

- « **The golden trade of the moors** ». و الكتاب الثاني هو لموريس لومبارد LOMBARD Maurice تحت عنوان الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، ط، 1989م. و في ترجـمة أخرى " الإسلام في مجده الأول "، تناول المؤلف في هذا الكتاب موضوع الذهـب في العالم الإسلامي والمسيحي معا و كانت إشكاليتـه تتمثل في البحث عن الأسباب التي دفعـت بالعالم المسيحـي الغربي إلى أن يفقـد معدن الذهـب لصالح الشـرق. و ما علاقـة ذلك باستحواذ العالم الإسلامي على ذهب السودان الغربي.

وأصل الكتاب باللغة الفرنسية .« LOMBARD M. : « L'Islam dans sa première grandeur
. كما طرح هذا الموضوع في العديد من المقالات، في حوليات الدراسات التاريخية والاقتصادية.

أما العمل الثالث المترجم فهو لتوفيق اسكندر تحت عنوان "بحوث في التاريخ الاقتصادي" وهو عمل نشر لعدة شخصيات قدمت الكثير لإنجاز الحوليات السالفة الذكر. ومن أهم البحوث التي نشرت فيه :

- البحث الأول : لمارك بلوك، تحت عنوان " مشكلة الذهب في العصر الوسيط ".
- البحث الثاني : لموريس لومبارد، " الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر" .
- أما البحث الثالث : فهو لفرنان برودل، تحت عنوان : " من ذهب السودان إلى فضة أمريكا".

و القسم الثاني، يتعلق بما صدر باللغة الأجنبية : و أهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا القسم إنجازات دوفيس، التي تعتبر أهم و أخر ما أنجز في هذا الموضوع كونه من المهتمين بالدراسات الإفريقية في المجال التاريخي و الاقتصادي و الأثري ،و أهم هذه الاعمال :
L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest " Africain " و "Le Bassin des vallées du Niger " و من الكتب المهمة التي عالجت الموضوع من جانب جيولوجي أشير الى كتاب: " L'Or de la Volta Noire " استطاع هذا الكتاب أن يقدم لي لمحة عن المناطق التي ينتشر فيها الذهب الإفريقي بشكل عام وفولتا العليا بشكل خاص، إضافة إلى الخواص الجيولوجية التي تميز إفريقيا الغربية عن بقية المناطق

الأخرى من العالم . و ازدادت أهمية هذا الكتاب عندما أشار إلى تعامل الأفارقة بمعدن الذهب والكميات التي كانوا يستخرجونها، حسب بعض الدراسات الاستعمارية الحديثة، إضافة إلى بعض الطرق التي كان الإفريقي يلجا إليها لاستخراج هذا المعدن من منجمه. و كان J. KIETHEGA Baptiste، صاحب هذا الكتاب من الأفارقة الذين ساهموا بأبحاثهم الأثرية في كتابة تاريخ معدن الذهب في إفريقيا الغربية. و الكتاب الأخير الذي يمكن أن أضيفه إلى قائمة المراجع المذكورة سالفا فهو لـــ:

MEYER L. « les métaux précieux dans l'art de L'Afrique Noire » .

و يعتبر من أهم الكتب أيضا التي أشارت إلى أهمية معدن الذهب في المجتمع الإفريقي قديما وحديثا.

الرسائـــــل الجامعيــــة :

فيما يخص الرسائل الجامعية التي اعتمدت عليها، يجب أن أشير إلى أن الرحلة العلمية التي قمت بها إلى باريس ساعدتني في الاطلاع على جزء بسيط منها. ومن أهما رسالة الدكتور لـــ MESMOUDI Benhsain تحت عنوان " Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450- 830 h/1058-59 1426-1427) Tome.1 " والتي أنجزت سنة 1994 تحت إشراف DEVISSE Jean، ومما زاد من أهمية هذه الرسالة كون المشرف كما سبق ذكره من المهتمين بهذه الدراسات حيث كانت له اهتمامات أثرية اقتصادية وتاريخية في المنطقة. وكان اعتمادي عليها كبيرا بسبب محتواها الذي أشار، إلى أهمية ذهب السودان الغربي و محاولة تقدير كمية هذا المعدن التي اجتازت الصحراء من خلال دراسة عينة من العملات التي ضربت في مختلف مراكز ضرب العملة المغربية، والتي بلغ عددهـــا 20 مركزا ، خاصة في عهـــد المرابطين

والموحدين. أما الرسائل التي كانت لها علاقة بالموضوع و لم تسمح لي الظروف الاطلاع عليها، لعدم توفرها على مستوى المكتبة الجامعية بالسوربون، رسالة لملي سعاد، تحت عنوان " Islamisation et commerce dans le soudan occidental du 8 au 11 siécle " هذه الرسالة التي نقشت عام 1990 متوفرة اليوم في مكتبة جامعة ليل الفرنسية. والرسالة الثالثة التي لم أعثر عليها، فهي لطويل حسان بعنوان : " le rôle des marchands magrebins dans le développement des villes et de la société urbaniste du soudan occidental a l'époque des grands empires ". تبقى هذه الرسائل الجامعية من أهم الدراسات الحديثة التي من الواجب العودة إليها لمعرفة أخر ما درس في الموضوع.

و الملاحظ من خلال معاينة هذه المراجع و المصادر و الرسائل الجامعية هو نقص المقالات التي اهتمت بالموضوع، و السبب لا يعود إلى إهمال أو عدم أدراجها ضمن سلسلة المقالات التي يجب العودة إليها و لكن إلى عدم تمكني من الاطلاع عليها و هي مرتبة على رفوف مكتبة مركز الدراسات الإفريقية بباريس بعد أن غلق هذا المركز أبوابه خلال تواجدي هناك.

الفصـــــل الأول

إقليمــــــي المغـــــرب
و الســــــودان الغــــــربي

1. – التعريف البشري و الجغرافي لإقليمي المغرب و السودان

أ. إقليم المغـــرب
ب. إقليم الســـودان

2.– عوامـــل دعم الاتصـــال بين المغـــرب و السودان

أ. الصحـــراء
ب. الآبـــار
ت. الجمـــل
ث. التجـــار
ج. القافلـــة

3 .– الفتوحـــات الإسلاميـــة

أ. الفتح الإسلامي للمغـــرب
ب. الفتح الإسلامي للســـودان الغـــربي

4. – أهم إمبراطوريات المغرب و السودان الغربي

أ. إمبراطوريـــة المرابطيـــن
ب. إمبراطورية غانة

1. التعريف البشري و الجغرافي لإقليمي المغـــرب و الســـودان

أ. إقليـــم المغـــرب

لقد اعتمدت المصادر العربيـــة في وصفها لإقليم المغرب على ذكـــر المظاهر الطبيعية التي تمتاز بها هذه المنطقة كالجبال والصحاري و البحار. و لم أجد وصفا جغرافيـــا دقيقـــا يتماشـــى والمقاييس العلمية التي يعتمد عليها اليوم في الدراسات الجغرافية الحديثة، إلا أنني اكتفيت بهذه المعلومات لتعريف هذا الإقليم، و ربطها بأهم الأحداث التي عاشتها مدنه في أهم فترات العصور الوسطى، خاصة الفترة التي حددتها ما بين القرن التاسع و الحادي عشر الميلادي الموافق للثالث والخامس الهجري، إلا أن ما يشد الانتباه في هذا الإقليم، تسمية "المغرب" التي أسالت حبر الكثير من المعاصرين للفترة والرحالة الجغرافيين الذين استخدموها لتمييزها عن بقية المناطق التي زاروها. وأكثر ما تعنيه هذه التسمية، وبكل بساطة غروب الشمس، تمييزا عن جزئه الشرقي الذي يسمى بالمشرق. هذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله : " إن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة إضافة إلى جهة المشرق" [1]. إلا أن الدراسات العربية كثيرا ما عودتنا على مصطلحات مختلفة تزامنت و الأحداث السياسية التي ميزت المنطقة.

فالبعض من هؤلاء الكتاب أشار إلى أن المغرب يعـــني كل الأقاليم الواقعـــة غرب مصر، والتي تتضمن حاليا ليبيا، بولاياتها الثلاث (برقة - طرابلس — فزان)، و تونس و الجزائر بصحرائها التي تمتد إلى تخوم السودان، و أخيرا المغرب الذي يعرف باسم "مراكش" [2].

1. ابن خلدون (ابو زيد عبد الرحمن بن محمد) ، "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ط1، ج.1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1996، ص.193. أنظر أيضا : حسن (مؤنس حسن)، " تاريخ المغرب و حضارته"، ط.1، ج.1، بيروت، لبنان، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1992، ص.17.
2. سعد زغلول (عبد الحميد)، " تاريخ المغرب الكبير"، ج.1، من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1995، ص.61.

فالزهري يلجأ إلى تقسيم المنطقة إلى ثلاثـــة أصقاع تشمـــل كلا من إفريقيا، المغرب الأقصى، و السوس الأقصى [1]. أما التقسيم الجغرافي الآخر ،أجده محددا عند الاصطخري حيث يقول "أن المغرب نصفان : فأما الشرقي فهو برقة و إفريقيا و تاهرت و طنجة و سوس وزويلة، أما الغربي فهو الأندلس" [2]. و يعتبر هذا التقسيم حسب دراستي للموضوع، الأقرب إلى الصواب لكونه تطرق إلى معظم المراكز التي ميزت المغرب الإسلامي في فترة العصور الوسطى.

و لا يعود أصل تسمية المغرب إلى فترة العصر الإسلامي فقط، بل إلى فترة الرومان أيضا، أين ذكر بأقسامه الثلاث : إفريقيا، نوميديا و موريتانيا و الذي يتماشى و التقسيم العربي في معنى : إفريقية، المغرب الأوســط و المغرب الأقصى [3]. و تبين لي من خلال دراسة الموضوع أن هذا الوصف الجغرافي لإقليم المغرب الإسلامي لم يكن الوحيد، بل هناك وصف آخر أوردته المصادر العربيـــة من خلال دراســـة المدن و ذكـــر مواصفاتها و جمال بناياتها و رخاء أهلها، وأهمها ما ذكر على لسان البشاري : " هذا الإقليم بهي، كبير سري، كثير المدن و القرى، عجيب الخصائص و الرخاء، به ثغور جبلية و حصون كثيرة و رياض نزهة"، لينتقل إلى المدن قائـــلا : " و تاهرت الطيبة و سجلماسة المختارة " [4]. أما المفهوم الثالث للمغرب فهو فني، شامل وعام، ظهر عندما قسم هارون الرشيد دولته إداريا، بين ولديه الأمين و المأمون 182هـ/ 798 م، حيث كان للأمين الجزء الغربي (العـــراق و المغـــرب) و كان للمأمون شرقها (خرسان و ما يليها من الولايات الشرقية).ليصبح استعمال هذه الكلمة أكثر انتشارا بعد توسع الفتوحات الإسلامية وتظهر بشكل علمي دقيق بعد اكتمال علم الجغرافيا [5].

---

1. الزهري (أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر)، " كتاب الجغرافيا"، (تحقيق محمد حاج صادق)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1990، ص 106 -117.
2. الاصطخري (إبن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي)، "المسالك و الممالك"، (تحقيق محمد جبر عبد العال الحيني)، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، 1961، ص 33. أنظر كذلك : ابن حوقل (أبو القاسم محمد ابن العلي الموصلي) ، "صورة الأرض"، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون سنة الطبع، ص 64.
3. حسن (أحمد محمود)، " قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1996، ص.19.
4. البشاري(أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي)، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/1987م ص.183.
5. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ج.1، ص.61.

هذا ما دفع الكتاب العرب إلى استخدام مثل هذه المصطلحات و التقسيمات الجغرافية التي ميزت الجزء الغربي من العالم الإسلامي في فترة العصور الوسطى. استنتجت من خلال هذه الدراسة أن الاختلاف في التصنيف و التنوع في التعريف يعود إلى تعدد القوى السياسية التي عرفها المغرب خلال فترة العصور الوسطى، و إلى صعوبة رسم الحدود السياسية لها بسبب وحدة المظاهر الطبيعية التي تمتاز بها تضاريس المغرب. إن التقسيم السياسي الذي عرفه المغرب الإسلامي خلال الفترة الإسلامية، خاصة تلك التي تمتد من القرن التاسع إلى الحادي عشر الميلادي يعتبر من أهم الصور التي تبرز الواقع الحضاري الذي عاشته المنطقة، حيث لم يكن سهلا على الباحث تقبل ما كان يتردد على ألسنة العديد من الكتاب، من ان هذه الأرض، أي المغرب، هي أرض خصبة للدعاة الخارجين عن الدولة، وأن أهاليها، أي البربر، أجفى خلق الله و أكثرهم بطشا و أسرعهم إلى الفتنة [1].لأن هذا الأمر لن يفسر إلا بحب البربر للحرية و رفض الحكم الأجنبي، و يصدق قول ابن خلدون فيهم حين يقول : " تخلقهم بالفضائل الإنسانية و تنافهم في الخلال الحميدة، و ما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف و الرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار و حماية التريل و الوفاء بالقول و العهد، و رحمة المسكين و بر الكبير و توقير أهل العلم و كسب المعدوم" [2].

و إن كان هناك سبيل إلى البناء فالتاريخ يظهر لنا لوحة من الفسيفساء لأنظمة الحكم التي سارت عليها كل دولة في نمط سياستها و نهجها العقائدي في بناء سيادتها،و حاولت أن تضاهي بها أعتى الدول التي كانت القدوة أو المثل في الحكم الإسلامي، و التي تمثلت في خلافة بغداد. حيث سارعت هذه الدول بعد ظهورها إلى تحدي هذه الخلافة ثم الانفصال عنها في النهاية. و في ظل هذه الأنظمة لوحظ كم كان للحياة السياسية و قوة حكامها من أثر على الحياة الاقتصادية التي أعطت لتاريخ هذه المنطقة طابعا آخرا يحسد عليه في فترة من فتراته الزاهية.

---

1. أمين (أحمد)، " ظهر الإسلام"، ج.1، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1999، ص.291.
2. ابن خلدون، المصدر السابق، ج.12، ص.207.

فبالرغم من تطرق بعض الدراسات إلى هذا الموضوع، إلا أن الوضع الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن التاسع و الحادي عشر الميلادي، أصبح يتطلب عناية كبرى. فالمدن التي بنيت و القصور التي زخرفت و الطرقات التي شقت و الآبار التي حفرت والقوافل التي نظمت و الأسواق التي فتحت و المحطات التي نصبت لأكبر دليل على أن هذه المنطقة لم تكن معبرا فقط بل محط الأنظار و مقصد التجار و مصدر الثروة و الرخاء ، أليس المغاربة هم الذين قالوا :" إذا أردت أن تقضي على جرب الإبل، عليك بالقطران، و إذا أردت أن تقضي على الفقر، عليك بالسفر إلى السودان".

يكفي هذا المثل لأشير إلى ما حققه المغرب من ازدهار و تفـوق و رخاء لصالحه ولصالح من قصده من الكوفيين و البصريين، أو من الأندلسيين و الجنويين أو من اليهود الذين وجدوا فيه ضالتهم. هذا ما جعلني أختار و بشكل دقيق ثروة هذا الإقليم المتمثلة في ذهب السودان، هذا المعدن الثمين الذي ميز تاريخ هذه المنطقة و تاريخ علاقتها التجارية بكافة الأمصار، خاصة العلاقات التي ظهرت لأول مرة بشكل واسع في تاريخ المنطقة، باجتياز المفاوز الكبرى و عقد روابط ذات نمط جديد لم يسبق للمنطقة ،أن عاشتها من قبل أي أن يشترك التاجر و الداعي في قافلة واحدة لفتح السودان الذي سوف يصبح،ملحقة تجارية إسلامية لا يستهان بها، حظيت باهتمام كل الدول التي أشرفت على سيادة المغرب، لتصبح فيما بعد ملحقة ثقافية ذات وزن اجتماعي مميز، كان للبربر فيها دور مواز لدور أهل المشرق و جهودهم في إدخال المنطقة ضمن الحظيرة الإسلامية. و لم يكن الإسلام و العروبة إلا شرفا آخر تحلى به المغرب ليزيد من عظمته ويبرز من قوته داخل الإقليم و خارجه. و استطاع المغرب الإسلامي أن يحقـق هذه المكانة من خلال عاملين أساسيين حاولـت التركيز عليهما ،ليس من باب التعصب و لكن من باب إبراز دورهمـا في تمييز المنطقـة عن بقية المناطق الأخرى.

ا. العامـــــل الطبيعي :

تعتبر الظروف الطبيعية من أهم العوامل التي لعبت دورا كبيرا في تدعيم وحـــدة المغرب. حيث تظهر جغرافيـــة هذه المنطقـــة على شكل كتلة واحدة متشابهة التضاريس و البيئـــة و المناخ [1]. فالسلاسل الجبلية الممتـــدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تبدو وكأنها سلسلة واحدة غير منفصلـــة، تعلوها قمم جبال طوبقال بالمغرب الأقصى التي يصل ارتفاعها إلى 4165 مترا [2]. و هذا ما جعله وحدة مستقلة عن أجزاء القارة، و يطلق عليه خلال القرن التاسع عشر اسم إفريقيا الصغرى [3]. و تنقسم جبال المغرب إلى قسمين :

القسم الشمالي : يتكون من جبال الريف و الأطلس التلي و هي جبال تمتاز بالارتفاع و شدة الانحدار في جزئها الغربي و الأوسط. أما في جزئها الشرقي و الذي تتمثل نهايته في جبل خمير بتونس فهو أقل ارتفاعا و أشد تقطعا.

القسم الجنوبي : يشمل جبال الأطلس الكبرى، وهي أكثر جبال الأطلس إرتفاعا حيث اعتبرت حاجزا أمام وحدة الجزء الأوسط و الأدنى من المغرب مع المغرب الأقصى في جزئه الغربي، و تتكون من جبال القصور، عمور، أولاد نايل، الزاب و الأوراس [4].

هذا بالإضافة إلى الهضاب التي يقع معظمها بين السلسلتين الجبليتين التلية والأطلسية، و السهول التي يقع معضمها على ساحل المحيط الأطلسي و بحر الروم [5].

---

1. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ط.1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1414هـ/1994م، ص.19.
2. نفسه، ص.22.
3. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير -دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية-"، ج.2، العصر الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص.128.
4. نفسه، 130.
5. نفسه، ص.131.

و من حيث المناخ ينقسم المغرب إلى ثلاثة أقاليم :

1. الإقليم الساحلي، أو إقليم بحر الروم، و الذي يمتــد من الاسكندرية إلى طنجة [1]، و الذي يطلق عليه ابن خلدون تسميــة مناخ التلول [2]، و من مميزاته أنه حار وجاف صيفا، بارد و ممطر شتاء [3].

2. الإقيليم التلي، الذي يتميز بمؤثرات البحر و الصحراء معا.

3. الإقليم الصحــراوي، و الذي يشمل كل من برقة، فزان، زويلة وورقلة، ثم إقليــم تافيلالت وادي درعة إلى غاية بحر المحيــط غربا [4]. هذا المناخ الذي يطلق عليه بن خلدون بلاد الصحراء، يعتبر أقل ثروة و سكانا من المنطقة الشمالية. و رغم ما وصف به هذا الإقليم الصحراوي من قساوة، إلا أن الأمر ليس كذلك. هذه الوحدة الجغرافية و التباين الذي طبع المغرب جعل الدراسات الحديثة صعبة أمام دقة تحديد الكيان السياسي للعديد من الدويلات التي عرفتها المنطقة، خاصة عندما يتعلق الأمر بتعيين حدود تلك المنطقة كالرستميين و الفاطميين. كما أن المناخ جعل العديد من الدراسات تبحث في بدايات التجمع السكاني لإقليم الصحراء، و كيفية تأقلم هذه الجماعات مع طبيعتها. كما أن لميزة أرض المغرب التي تتمثل في الممرات الطبيعية و المسالك الوعرة دور في تكوين بنية أجسام سكانه الذين يعرفون بصلابتهم و مهارتهم القتالية، التي عطلت عملية الفتح قرابة سبعين سنة [5].

---

1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج.1، ص.65.
2. ابن خلدون، "العبر..."، ج.12، ص.199.
3. الغنيمي، "موسوعة المغرب العربي"، ص.26.
4. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ص.73.
5. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير"، ج.2، ص.127.

2. العامـــل السياســـي :

تعتبر الدراسات السياسية للمغرب الاسلامي من أهم الدراسات التي ما زالـــت تعترضها مشاكل عندما يلجأ الدارس إلى كتابة تاريخ المنطقـــة، و من أهمها الوضع السياسي للمغرب الأقصى عند قيام الدولة الفاطمية و خضوعـــه لحكام وولاة مستقلين عن الدولة الفاطميـــة، متصليـــن بصلة الولاء للأمويين في الأندلس أو الفاطميين في المغرب الأدنى. إضافـــة إلى مشكل تحديد نفـــوذ بعض المذاهب السياسية و الدينيـــة في بلاد المغـــرب كالشيعة والأدارسة و هراطقـــة برغواطـــة والخوارج الإباضية والصفريـــة دون أن ننســـى مشكـــل انفصال المغـــرب عن الفاطميين و مراحله [1].

و من الصعب على الباحث أن يصـــف الوضـــع السياسي في منطقـــة المغرب، خلال الفترة الممتـــدة ما بين القرنين التاسع و الحادي عشر الميلاديين، بحيث يجد نفسه أمام عدة كيانات حاولت من خلال وجودها على أرض المغرب أن تميز جزء من حضارته و أهمها دولـــة الأدارســـة التي كان لتأسيسها 169 هـــ/786 م على يد إدريس ابن عبد الله ابن الحسن [2] شأن كبير في تاريـــخ المغرب الإسلامي، خاصة بعد ظهور مدينـــة فاس، وتنظيم الحملات الكـــبرى الثـــلاث على كل من تلمسان سنة 174 هـــ/790 م، و برغواطة، بالتحديد منطقة شيلـــة ثم السوس الأقصى سنة 197 هـــ/812 م، و هنا لابد من التركيز على هذه الحملات و ذلك لأهمية هذه المناطـــق المذكورة ودورها في مراقبة قوافـــل الســـودان باتجاه الشمال [3]، لتصل نحو فاس حاضرة المغرب الأقصى، و التي يقصدها التجار من كل حدب و صوب.

---

1. الناضوري (رشيد)، "المغرب الكبير"، ج1، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، 1981. ص 45.
2. أنظر GENET (J. P.), « Le monde au moyen âge » Hachette, Paris, 1991. p.64.
3. أنظر LAAROUI (A.), « L'histoire du Maghreb », Paris, François Maspero, 1991, p.64.

و فاس، شأنها كشأن إمامة تاهرت، التي يقول عنها العروي أنها تعتبر من بين أهم التنظيمات السياسية و الدينية، كون أن موقعها يضمن لها حياة اقتصاديـة زاهـرة [1]. و لقد كان لتأسيس هذه الدولة سنة 144 هـ/761م على يد عبد الرحمـن ابن رستم نقطة تحول كبيرة أحدثت تطورا ملموسا في سياسة الخوارج الإباضيـة بالمغرب. و لما كان لفتـرة حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من أثـر في بروز قوة هـذه الدولـة التي توسعت لتصل جنوبا إلى أراضي الجريد التي تفتح أبوابها على إفريقيـا و شرقا إلى غاية جربة و جبل نفوسة [2]. و لم تتوقف الدراسـات إلى حد اليوم عن الإشـادة بأهمية تلك القوافل التجارية التي كانت تخرج من إمامـة تاهـرت منجهة نحو سجلماسة ثم بلاد السودان.

لم يكن تأسيس الإمارتيـن السالفتي الذكر بنفس هدف إمـارة بني الأغلب، الذين وجهوا اهتماماتهم نحو البحر، مخالفيـن في ذلك إباضـة تاهرت و أدرسـة فاس.

لقد رأت خلافـة بغداد في تنصيب أسـرة بني الأغلب على إفريقيـا عام 205 هـ/ 820 م حفاظا على ولايـتها على المغرب. هذه الأسـرة التي استولت على صقليـة ومالطـة و هددت، جنوب إيطاليـا، كانت عكس الأدارسـة و الرستميـين الذين كانت نظرتهـم باتـجاه الصحراء أكثـر من المشرق والبحر المتوسط، حيث أسسوا تجـارة القوافـل العابرة للصحراء بشكـل مزدهر باتجـاه نهري السنغـال و النيجر و هذا في أكبر مدنها التي احتضنـت هذا التبـادل أودغشت و تمبوكتـو، لجلب ذهب السـودان و الدخول في اتصال مع امبراطوريـة غانـة [3].

---

1. Ibid, p.104.
2. حسن (أحمد محمود) "تاريخ المغرب و الأندلس "، ص.122.
3. GENET (J.P.), op-cit, p.64.

لكن هذا الوضع و هذا الاستقرار الذي عاشه المغرب من إفريقية إلى غاية المغرب الأقصى لم يدم طويـــلا، ليدخل مرحلة يشوبها الاضطراب و عدم الاستقرار مع قيام دولة الفاطميـــين، الذين كان لهم دور كبير، خاصة بعد سنة 297 هـــ/909 م، في تاريخ المغرب الإسلامي، فقد قضوا على الأغالبة و الرستميين وسيطروا على الأدارسة ووصلوا إلى غاية بحر الظلمات. وكان جل اهتمامهم أثناء تواجدهم بالمغرب مصوبا نحو مصر و فيهـــا. و بإمكاننا تصور أوضاع المغرب الذي ازداد سوءا بعد إرسال فلول بني هلال التي أضرمت النيران في بقايا هياكل الفاطميين التي تركها الفاطميون جسدا بلا روح [1].

لكن قيام دولة المرابطين سيسمح لجزء كبير من المغرب بالعيش في رخاء وازدهار. وترجعنا هذه الدولة إلى نمط الأدارسة و توسعاتهم و هذا باحتلال المناطق التي كانت تراقب التجـــارة الصحراوية، ليتم ذلك باحتلال أودغشت التي كانت بيد غانة و احتلال سجلماسة سنة 448هـــ/1056م جنوب المغرب. و في عهد هذه الدولة كتب لتجارة الذهب أن تعيش ازدهـــارا لم يسبق له مثيل، انعكست آثاره على السياسة المالية التي سلكها المرابطون مع الأهالي [2].

لم يكن بالأمر الهين على سكان المغرب معايشـــة مثل هذه الأوضاع، و إن كان هذا لا يختلـــف كثيرا عن الوضع الذي ألفوه قبل الفتح الإسلامي، و رغم ووجـــود إقليم المغرب الإسلامي على الحال الذي نراه عليه اليوم، بدولـــه المستقلـــة، فإن قدرة تحمل سكانـــه للمحن و تصديهم للمصاعب جعلت من منطقـــة المغرب الإسلامي نقطة صراع لم تعرف الاستقرار لفترات بعيدة.

---

1. حسن (أحمد محمود)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، ص.140.
2. أنظر. LAAROUI (A.), op.cit, p.148.

ب. إقليـــــم الســـــودان

حظي إقليم السودان بالدراسة و الاهتمام وصفاً، على عكس روايات البعض التي توحي بأن المنطقة كانت مهجورة، تكسوها الأدغال و تقطنها الوحوش إضافة إلى طغيان ما تنقله الدراسات الاستعمارية عن هذه المنطقة. فكلمة "سودان" وردت على ألسنة العديد من الرحالة والجغرافيين و المؤرخين و حتى الحكام.

فهناك من تطرق إلى دراسة المنطقـــة و مواصفاتها الجغرافيـــة، التي كانت منطلقا لكل الدراسات في العصور الوسطى أو الحديثة، و هناك من فضل الاهتمام بالسلالات البشرية التي ميزت هذه المنطقة و كانت أصل هذه التسميـــة. كما أن هناك من فضـــل الإشـــارة إلى بعض مميزات مدنها و عادات أهلها و المسافات التي تربـــط أقاليمها. و اعتبرت هذه المعلومـــات كلها مهمة مقارنة بالبدايات التي أصبح الإنسان يبحث فيها عن كل التفاصيل الدقيقـــة، لكتابة تاريخ هذه المدن وشعوبها.

و ذكر إقليم السودان عند القـــدامى يدخـــل ضمـــن التقسيمـــات التي ميزوا بها الكرة الأرضية. فيقول الدمشقي في كتابه : " أن أردشيـــر ابن بابـــك قسم الأرض إلى أربعة أقسام أحدها للترك، الثاني للعرب، الثـــالث للفرس و الرابع للســـودان. أما بالنسبة لقسمة نوح للأرض فبنيـــت على ثلاث، فكان المشـــرق و الشمال ليافث، و المغـــرب و الجنوب لحام والوسط لسام. فلســـام العرب و الروم و الـــفرس، و ليافث : الترك و الصقالبة، و يأجـــوج ومأجوج، أما حام فكان له : القبط و البربر و الســـودان [1].

---

1. الدمشقي، " نخبة الدهر في عجائب البر و البحر"، ط 2، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1914هـ/1998م، ص.36-37 . أنظر كذلك : ابن خلدون، "العبر..."، ج.12، ص.417.

إن هذا التقسيم الذي ورد في العديـــد من مثل هذه المؤلفـــات، لا يوحي بأي شيء من العلمية و القياسات الجغرافية، بل ما هي سوى جزء من تلك الكتابات التي دخلت في مضمون كتب الرحالـــة الذين أعطوا وصفا خرافيا للعديد من المناطق يصعب على العقل تصديقهـــا بسبب خلوها من تلك المقايـــيس المعتمد عليها حاليـــا في علم الجغرافيا مثـــلا. إلا أنها تبقى من بين أهـــم المصادر التي تعود بنا إلى الماضي البعيد لتزويدنـــا بمعلومات و بأنماط تلك الدراسات التي سادت سابقا.

و التقسيـــم الجغرافي الذي حظـــي به السودان في الكتب الجغرافية القديمـــة لا يساعدنا على تحديد مواصفاته و مميزاته المناخية إلا من خلال تلك الروايات التي كانت تصف السكان و المدن و عاداتهم و تقاليدهم، أي بمعنى آخر انعدام التخصـــص في هذه المؤلفـــات وهذا ما ميزها عن الكتب الحديثة، مثلما ذكره ابن بطوطة في كتابه الرحلـــة أو البكـــري، لأجد أن بعض الكتب راحت تميز إقليم السودان عن بقية الأقاليم الأخرى من خلال السلالات البشرية التي كانت تقطن أراضيه، و المميزة باللون الداكـــن، و هذا ما يعيـــده بعض المؤرخين إلى دخول العرب إلى المنطقة و الذين كانوا السباقين إلى تسميـــة هذا الإقليـــم بالسودان نسبـــة إلى سواد بشرة أهله [1].

و في هذا الصدد يقول ابن رستـــه : " أن الســـودان و الحبـــش يسكنون في بلاد التي تحاذيها البروج: من بين مدار الحمل إلى السرطـــان، و أن الشمـــس في هبوطهـــا وصعودهـــا في تلك البروج تتوســـط السماء التي تسخـــن أهويتهـــم و تحرقهـــم، و لهذا صار ألوانـــهم ســـودا و شعورهم قططـــة، وأبدانهم يابســـة وأطباعهـــم حارة و كذلـــك دوابهم وتجارهـــم" [2].

---

1. زبادية (عبد القادر)، "مملكة السنقاي في عهد الاسيقيين 1493-1591 "، ص 15، أنظر ابن بطوطة، "الرحلة" المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، ص 690-700.
2. ابن رستة، "الأعلاق النفيسة"، ص 99. أنظر كذلك مقال السودان، دائرة المعارف الإسلامية، ط.1، مجلد 11، ص327.

إلا أن الشائع في تعريف هذا الإقليم، هو أن كلمة بلاد السـودان، معناه بلاد السود، و من هنا فإن كلمة السودان مأخوذة من هذا اللفـظ الذي يدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة إفريقيـا. كما أطلقت على تلك المنطقـة شبه الصحراويـة من إفريقيا التي تغلغل فيها الإسلام [1]. وكلمـة السودان هـذه في معناها الواسـع تشتمل القـارة الإفريقيـة بين جزئها الشمالي و الجنوبي الشرقي و الغربي.

لكن ما دامت الدراسـة محددة بالزمان و المكان، يجب تحديد هذه الرقعة للوصول إلى تحديد المناطـق التي تحيط بالإقليم المدروس و هذا ما يدفعني إلى العودة إلى الدراسات الحديثة و أغلبها تلك التي اعتمدت على التقسيم الاستعماري للمناطق المستعمرة كذكر" السودان الفرنسي" الذي نعنـي به السودان الغربي، و " السودان الإنجليزي" الذي يراد به السودان الشرقي أو المصري.

و أهم هذه التقسيمات، هي التي تشير إلى تقسيم إقليم السـودان إلى ثلاثة أجزاء :

- **الجزء الغربي** : الذي يتضمن حوض نهر السنغال غامبيا و المجرى الأعلى لنهر النولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر. و هو محور هذه الدراسة ضمن عنصر تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي.
- **الجزء الثاني** : و يشمل حوض بحيرة التشاد و الذي يسمى بالسودان الأوسط.
- **الجزء الثالث** : و هو الذي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل و هو ما يسمى بالسودان المصري [2].

---

1. زبادية (عبد القادر)، "الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 130-141.
2. أنظر Soudan, in « Encyclopédie de l'Islam », T. IX, Paris, Maisoneuve, 1991, p.518.

و إذا حاولت التمعن في هذا اللفظ فأجد أنه من غير المعقول أن تسمـــى هذه المناطق "بالســـودان" اعتبارا لمعنى لفظ "ســـواد البشـــرة " لأن التحديـــد الجغرافي لبشـــرة السودان نجده في مناطق شمال الصحراء و أقصى جنوب إفريقيـــا عموما. كمـــا أن ما جاورها من الممالك لا ترجـــع إلى الأصل الأســـود و في مقدمتهـــم العرب و الموزعـــون عبر أنحاء إفريقيـــا [1].

إلا أن الاستنتاج دفعني إلى القـــول أن هذا اللفظ استخدم تاريخيا وفق القوى السياسية التي عرفتها مناطق إفريقيا خاصة في فترة العصور الوسطى. و هذا ما حملني على التسليم بهذا الواقع لأنطلق في دراســـة ووصف هذا الجزء الغربي من السودان، و إعطاء صورة واضحة عن طبيعـــة العلاقات التجاريـــة التي ميزت الإقليمين، و اقتصر فيما يلي بذكر و لو بشكل ملخص تلك السلالات البشريـــة التي ساهمـــت بشكل مباشر في بروز ممالك هذه المنطقة. إذا كانت كلمة غانا تعني " أرض الذهـــب" عند العرب خاصة أو "The lord of the Gold" عند الغربيين، فإن كلمة ســـودان عند العـــرب في هذه الفترة الإسلامية كانت تعني أيضا " الذهب " [2].

تعتبر هذه الفترة من ألمع فترات تاريخ غرب إفريقيا، سواء من ناحية معرفة أهم الممالك التي عرفها الإقليم أو من ناحية دراسة انفتاح هذا الجزء الإفريقي على مواطن الشمال، الذي بفضل فاتحيه المسلمين استطاع أن يربط المجابات الكبرى لصحرائه بالمحطات التجاريـــة السودانيـــة التي كانت وليدة هذا الترابط و الانفتاح، لتصبح إفريقيا غير بعيدة عن بحـــر الـــروم وحضارته التي نقلت عنه الكثير.

---

1. "السودان"، في " دائرة المعارف" للبستاني (بطرس)، م 10، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ص.166.
2. أنظر TAMSÙ (N.D.), « Le Soudan occidental au temps des grands empires-XI^{e} - XVI^{e} siècle -Présence Africaine-», Paris, 1975, p.14.

و كانت أهم المدن التي ميزت إقليم السودان الغربي في هذه الفترة، مملكة غانة، التي تعتبر أقدم إمبراطورية عرفها السودان الغربي [1]. و هذه الإشارة ملخصة لأهم النقاط الحساسة لتاريخ هذه المنطقة، التي أعطت وجودا لهذه الممالك قبل دخول المسلمين إليها وفتحهم لها. وسوف أتطرق إلى ذكر هذه المناطق و المدن المزدهرة في إفريقيا، بعد ازدهار تجارة القوافل التي عبرتها، والتي يعود الفضل فيها إلى توفر معدن الذهب في جنوب الصحراء الكبرى، دون تجاهل البضائع المختلفة الأخرى التي كانت ترافق الذهب شمالا أو الملح جنوبا.

تعتبر سنة 1000 للميلاد، فترة العصر الذهبي لإفريقيا الغربية [2] التي أصبح تصديرها للذهب و العاج عاملا أساسيا من عوامل تأسيس المدن و الإمبراطوريات و تكوين الجيوش واكتساب الثروات. بذلك تدخل منطقة السودان الغربي التاريخ من بابه الواسع، مسجلة أثارا في تجارة بحر الروم، ثم التجارة العالمية.

إن تاريخ إفريقيا التي عرفت منذ القدم، أنها أرض بدون تاريخ أصبحت اليوم تتخذ مسارا جديدا بعيدا كل البعد عن الركود و الجمود و الصمت الذي طبعها به الاستعمار، حيث لم تعد إفريقيا تلك القارة التي تأوي سلالة نوح المذنبة و الناقلة للّعنة و لا السلالة المتخلفة. فعلماء الوراثة أكدوا إحباط كل شكل من أشكال العنصرية التي من شأنها أن تصف الشعوب المتفوقة أو المنحطة [3]، كما لا يمكن اعتبار الزنوج الأفارقة حتى المتخلفين منهم كبدائيين، حيث من المستحيل التقريب بين التفكير الجماعي و الفكر البدائي [4].

---

1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », Tome I, de la préhistoire à 1600, L'Harmattan, 1996, p 175.
2. أنظر : DAVIDSON (B.), « The growth of Africa civilisation - a History of Africa 1000-1800 », London, Longman, 1969, p.27.
3. أنظر Afrique Noire in « Encarta 2000 », CD-ROM.
4. أنظر : DELAFOSSE (M.), « Les civilisations africaines », Paris, Librairies Stock, 1925, p.8.

و قد كان هذا دافعا أساسيا لانطلاق الدراسات بشكل جدي في هذه القارة كتلك التي اختصت في الروايات المكتوبة و الشفوية أو الدراسات الجيولوجية أو المناخية، لتطوى بذلك صفحة الاستعمار التي جعلت منها قارة تكسوها الأحراش و تقطنها الوحوش. لتحقق هذه الدراسات إنجازا بإزالة الغبار على حقائق تاريخ هذه المنطقة، خاصة عند اكتشافها للعدد الهائل من السلالات البشرية التي عمرتها، و التي كان لها أثر كبير في بروز العديد من الإمبراطوريات و الممالك التي ميزت السلطة داخل هذه القارة، و صنفت حضارتها ضمن حضارات العالم التي لا يستهان بها. لتكن المصادر العربية السباقة لإعادة كتابة تاريخ هذه القارة و معرفة حقيقة وقائعها، خاصة عندما يتعلق الأمر بجزئها الغربي الذي أعتبر عضوا ضمته الدولة الإسلامية لكيانها، بعد توسع الفتوحات الإسلامية نحو الجنوب. لتجعل منه ملحقة اقتصادية و ثقافية.

و تكمن أهمية هذا الجزء الغربي من إفريقيا الذي يدخل في تاريخ الإسلام و المسلمين عامة و المغاربة خاصة في ما كان يلقب بالسودان الغربي، الذي كان يعني عند العرب في العصور الوسطى "الذهب"، في نفس الفترة التي كان فيها جزء من هذا الإقليم، أي غانة يلقب "بأرض الذهب".

و يتطلب تعريف هذا الإقليم، العودة إلى هذه العبارات السابقة و ما حملته من معان عبر التاريخ، للتأكد من شيء واحد وهو أن السودان الغربي كانت له أهمية معتبرة في حياة المسلمين و الأفارقة عامة. و ازدادت هذه الأهمية في نظر الأوروبيين فيما بعد، وهم الذين رأوا في ثرواتهم و موقعهم الاستراتيجي سببا ملحا لاستبدال نظرتهم و تعاملهم تجاه هذه القارة.

هذا ما يحمله الميدان الاقتصادي في طيّاته من تأثيرات داخلية و خارجية جعلت من الإسلام قوة هذا الجزء الغربي من القارة، من الرأس الأخضر إلى حوض التشاد، و التي تنتشر في الشريط الساحلي السوداني الذي يمتد على مسافة 4000 كلم، و التي تشمل اليوم قرابة 30 مليون نسمة. هذه المنطقة الغنية بتاريخها و بتاريخ أكبر إمبراطورياتها، ميزها الإسلام بعد القرن الثاني للهجرة، من خلال التجار العرب و البربر الذين اهتموا بذهبها وعاجها و عبيدها، و ظهرت المدن الثقافية و التجارية المزدهرة، كتمبوكتو و كانو و أغادس، التي تحمل الماضي البعيد لرجال و حضارات،، و الذين شكلوا سلالات ذات نواة اجتماعية حقيقية بإمكانها أن تصبح منذ البداية انطلاقا لأي سلطة أو إمبراطورية [1].

بدراسة السلالات البشرية التي انتشرت في كل الجزء الغربي من هذه القارة، حسب الدراسات الحديثة آخذين في الحسبان الطابع اللغوي و السياسي و الثقافي لها، يمكن ملاحظة ما يلي في أقصى الغرب جماعة الولوف "Wolof" و بين السنغال و النيجر جماعة الماندي "Mandie" والتي تشمل جماعة السونينك "Soninke" و الماليكي "Malinké" وفي النيجر الأوسط جماعة السونغاي [2] "Songhay" والمهاجرين البول "Peuls" الذين شكلوا من السنغال، عبر كل إفريقيا السوداء، و لعدة قرون من الفوتاجالون "Futadjalon" إلى ماسينا "Massina" وبلاد الهاوسا "Haussa" النواة الحقيقية للتعمير البشري [3]. و أهم فصيلة يمكن التركيز عليها هي فصيلة الماندينج "Manding".

---

1. أنظر : Afrique Noire, in « Atlas Mondial -Encarta 2000-» , CD-ROM.
2. السنغاي : هي التسمية التي أطلقت في البداية على قبائل حوض النيجر. أنظر : Sounghay, in « E.I », p.510.
3. أنظر : LEWICKI (T.), « Études Maghrébines et soudanaises », pp 30-34.

الماندينـــــج :

إذا كان الجزء الغربي من السودان قد لعب دورا كبيرا في ربط علاقته التجاريـــة مع الجزء الشمالي، فالفضل يعود إلى تلك القبائل التي كان لها دور في أن تكون بـــذرة تأسيس معظم الممالك السودانية الكبرى و أشهر هذه القبائـــل، هي التي تعرف بالماندينـــج "Manding" و التي تنبغي الإشارة إليها. هذه الجماعات انتشرت في المناطق الواقعة في أعالي النيجر، و هي محاطة شمالا بالصحراء الغربية و جنوبا بحوض غامبيا، هذه الأراضي التي أحتضنت بين ثناياها مناجم معدن الذهب كل من بوري "Bouri" (أو Bitou) و بامبوك[1] "Bambuk" و أعالي فاليم "Falémé" التي استقطبت إليها مبكرا تجار شمال إفريقيا من البربر والعرب. و الماندينج هؤلاء، كانوا يلقبون و طنهـــم الأصلي وفق اللهجات المنتشـــرة بينهم، كماني "Mani" ثم مانن "Manèn" ماندنج "Mandeng"، ماندي[2] "Mandé" ، أو ماني "Mané". كما كانوا يلقبون أنفسهم بماندينكا "Mandinka" مانينكا "Maninka" ، مانينجا "Maninga" أو ماندنكا "Mandènka"، أو مانجا "Manenga" ماندينكو "Mandinko" أو موندينجـــو "Mandingo"، و أشير إلى أن المصادر العربيـــة في العصور الوسطى استعملت اسم مالي "Mali" أو ملي "Maili" للتعبير عن الماندينـــج. هذا الاسم الذي استعير لتسمية سكان البول "Peul" المجاورين و هم سكـــان المالـــي. و سكان المور "Maures" و السراكولي "Sarakole" (السونينج) و هم السكان الســـود لجنوب بلاد شنقيـــط، كانوا يلقبون هؤلاء بـــجانجرا "Gangara" أو جنجران "Gangarane"، أما السونغاي و الهاوسا يعينوهم بلقب ونقارة "Wangara".

و يبدو أن سكـــان الماندينـــج كانوا في البدايـــة يسكنـــون جنوب بلاد شنقيـــط، ثم اختلطوا مع الرجل الأبيض، و من الممكن أن يكونـــوا من العرب و البربر والفينيقيين، حسب دراســـة لهجـــات هذه الأخيرة المستعملـــة في لغـــة الماندينـــج[3].

---

1. بامبوك : منطقة الذهب، تقع بين فاليم غربا و مانينك شرقا، أنظر : Bambouk, in « Grand Larousse Universel », T.II, Paris, Larousse, 1997, p.1013.
2. أنظر : Mandé, in « E.I », T.VI, pp. 385-386.
3. أنظر LEWICKI (T.), op.cit, p-32.

إن الإشارة إلى السودان الغربي تدفعني لامحالة للحديث عن أهم المدن التي لعبت دورا في النشاط الاقتصادي و الاجتماعي للمنطقة قبل دخول الإسلام إليها. و من أهم هذه المدن : جيني جينو Djenné - Djeno جاو Gao، أو كاو كاو Kao Kao، كما يسميها العرب، إلى جانب مدينة كوكيا Kokia، و تادمكة Tademka.

مدينة جنيه : تقع مدينة جنيه على بعد حوالي كيلومتر واحد من جنيه الحالية، الواقعة بين تمبوكتو Tambouktou و سيقو Sigou. و يعود الفضل في الازدهار الذي عرفته المدينة إلى النشاط التجاري الذي توسع في رقعة تقرب الستين 60 كلم.

و في قمة ازدهارها بلغت المدينـــة (بين الفترة الممتدة من 133 هـ/750 م و 545 هـ 1150 م) مساحة تقدر بـــ 30 إلى 40 هكتارا. وبلـــغ عدد سكانها 10.000 ساكن. في حوالي عام 800 م ، يعود الانحطاط الذي شهدته المدينـــة، ربما إلى دخـــول العـــرب الذين فضلـــوا العيش بعيدا عن السكان الهمجيين، و بنوا لذلك مدينـــة جديدة على بعـــد كيلومتران من المدينـــة القديمة، وهي جنيه الحالية [1].

---

1. أنظر JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », T.1, de la préhistoire à 1600 », L'Harmattan, 1996, p.107- 127.

أما المدينة الثانية فهي جاو Gao التي لا يعرف متى تأسست بدقة، و لكن الدراسات التاريخية تشير إلى أنها دخلت في حكم إمبراطورية السنغاي سنة 370هـ/980 م [1] . إن موقع هذه المدينة محل نقاش، لأنه كثيرا ما وقع خلط بين مدينة جاو أو كاوكاو، كما يسميها العرب ومدينة كوكيا. و قيل أن مدينة جاو تقع في المنطقة التي تمتد بين بحر الظلمات و نهر النيجر، ليس فقط كضفة، بل كمنطقة تبادل و تداخل بين بيئات مختلفة و نماذج حياة متعددة. أي بين الصحراء والسودان، و بين البدو و المزارعين [2] . و تذكر بعض الدراسات أن مدينة كاوكاو تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر [3].

و يبدو أن هذه المدينة كانت تحت حكم سود، كانت لهم علاقات متصلة بالمسلمين. و حوالي 1010 م نقل كوسوي " Kossoï " الحاكم الخامس عشر من سلالة ملوك الديا "Dia " *، عاصمة الإمبراطورية سنغاي من كوكيا إلى جاو "Gao"، لتتوطد العلاقات مع مصر و المغرب لدرجة جعلت ملك السنغاي يعتنق الإسلام [4].

---

1. Ibid, p.107.
2. أنظر Farias (M.), « Some reassements and recent findings concerning epigraphic evidence from the Niger Valley and the Sahara », in « <u>Histoire du Sahara et des relations transahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain</u> – du moyen âge à l'époque coloniale-», actes du IV[e] colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986, p. 79.
3. العربي (إسماعيل)، " الصحراء الكبرى و شواطؤها"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص.317.

* تربعت سلالة الديا، Dia أو Za على إمارة سنغاي، كما تقول الأسطورة بعد وصول زا الأيمان Za El- Ayaman وأخيه إلى نيامي، بالنيجر، فوجد أن سكان المنطقة وثنيين يعبدون سمكة تطلع إلى سطح النهر في أوقات معينة فقام بقتلها فعينته قبيلة السنغاي حاكما عليها. و زا الأيمان، حسب الرواية تعني جاء من اليمن، و هكذا فإن بعض المؤرخين يردون أصل مؤسس سلالة الديا، إلى اليمن، و يعتقدون أنه كان مسلما، و لكن المؤكد أن الملوك الذين جاؤا بعده كانوا وثنيين. بينما يعتقد آخرون لأن أصله من قبائل لمتة وهووارا الذي زحف على رأسها دا الأيمان على كوكيا و أصبح بعدها ملكا على قبيلة السنغاي. أنظر في ذلك: « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », Paris, éd. Robert Laffont , 1971, p .157.

4. أنظر : « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », pp 157-159.

2. عوامل دعم الاتصال بين المغرب و السودان الغربي

أ. الصحـــــــــراء

تعتبر الصحراء من أهم العوامل التي يمكنني من خلالها التحدث عن الإطار العام الذي كونته تجارة الذهب. و لدراسة هذا العنصر أرى أنه من الضروري طرح سؤالين يعتبران المحرك الأساسي لهذه الدراسة و الإجابة عنهما تعتبر توضيحا واستكمالا للبحث. السؤال الأول :ما هي الصحراء التي تناولتها بالدراسة في هذا الموضوع؟ السؤال الثاني: ما هو الدور الذي لعبته هذه المنطقة في ربط الشمال بالجنوب و إنجاح تجارة الذهب ؟ لقد حاولت الإجابة عن هذين السؤالين من خلال تقسيم الموضوع إلى فكرتين أساسيتين :

- الدراســـة الطبيعيـــة.
- الدراســـة البشريـــة.

- طبيعيــــــا :

قبل التطرق إلى هذه الدراسة أرى أنه من المستحسن الإشارة و لو بشكل موجز إلى معنى هذه الكلمة التي قيل عنها الكثير. اعتبر البعض الصحراء أرضا مستوية، وهي من الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه، و لقد شبهت بظهر الدابة الأجـــرد، ليس بها شجر و لا جبال، ملساء [1]. و يرى البعض الآخر أن أكثر أقسامها مفاوز محرقة و قفار رملية و أراضي صخرية عقيمة وسهول وعرة يغشى الكثير منها رواسب رملية و مرتفعات صخرية أشبه بجبال ذات أودية فسيحة تعلوها الرمال [2].

---

1. ابن منظور، "لسان العرب"، المجلد الثالث، دار الجيل و دراسات العرب، 1988 ص 411.
2. الصحراء، في "دائرة المعارف" للبستاني (بطرس)، الجزء العاشر، ص 699.

إلا أن الدراسات الحديثة تعيدنا إلى العوامل المناخيــة التي تسود هذه الرقعة الجغرافية والتي تميزها عن بقية المناطق الأخرى، ليتخذ من عامل الحرارة و الأمطار أهم المظاهر المميــزة لها و بناء على ذلك يطلق لفظ الصحراء على المناطق الحارة و الجافــة، قليلة الأمطار. و حدد العلماء نسبــة التساقط فيها 25 ملم سنويا [1]. كما تمتاز أيضا بالفارق الحراري الكبــير، حيث ترتفع الحرارة في النهار إلى ما يقرب 50 درجة و في الليل ما يقرب 20 درجة تحت الصفر[2]، إضافــة إلى الرياح التي تبلغ درجة عاليــة من السرعة مما ساعد على تنشيط عملية التعرية التي تمتاز بها الصحــراء، و تفتت الصخور، هذا ما شكل عراقيل أمام حياة الإنسان فيها. و تذكر بعض الروايات أن هذه الريــاح التي تشكل الأعاصيــر الصحراويــة من شدتها ما يطوي قافلــة و يدفنهــا تحت الرمــال، ومن هذه الرياح ما يسمى بالشهيلي وهي ريــاح تهب من وسط الصحــراء. و أخطرها، المثقلــة بالرمال و الغبار و التي تسمى بالسيروكو [3]. و لقد ذكر ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا، أن هذه الرياح التي تهب من غانة إلى سجلماسة، تجفف المياه و هي في قرب المسافرين [4].

و يشبه العلماء الصحراء بالمناطق القطبية لأن درجة التجمد تحول دون وجود أي نبات بها ، و هذا بسبب تضافر العوامل الثلاث:الحرارة ، الأمطار و الإقليم النباتي في تشكيل وتمييز الصحراء عن بقية المناطق الأخرى. هذه الصعوبات و العراقيل التي من شأنها أن تعيق حياة الإنسان في هذه المنطقة جعلت الدراسات الحديثة تتساءل عن كنه هذه التجارة التي عبرت الصحراء في فترة من فترات التاريخ. كما ترددت في الاعتراف بها لاستحالة عبورها والعيش فيها، خاصة إذا تعلق الأمر بالصحراء الكبرى، أكبر صحارى العالم، لأنها جمعت كل الظروف القاسية التي تمتاز بها كل الصحارى الموجــودة في العالم.

---

1. الصحراء في "الموسوعة العربية العالمية"، الجزء 15 ، الطبعة 2، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، 1994، ص.56.
2. العربي (إسماعيل)، "الصحراء الكبرى و شواطئها "، 1983، ص 15.
3. نفسه، ص.ص. 16-17.
4. ابن سعيد (المغربي)، " كتاب الجغرافيا"، (تحقيق اسماعيل العربي)، ط.2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص.113.

تمتد الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي على طول الشمال الإفريقي مشكلة بذلك أكبر صحاري العالم بمساحة تقدر ب 9 مليون كلم^2 .و تشمل سلاسل جبلية و هضاب صخرية و مساحات شاسعة من الأراضي السهلية التي تغطيها الحصباء و الكثبان الرملية. يقدر طولها بأكثر من 5600 كلم، و يصل عرضها من الشمال إلى الجنوب 1930 كلم، مغطية بذلك كلا من الجزائر، تونس، ليبيا، السودان، النيجر، مالي و موريطانيا . [1]و تقع معظم هذه الأراضي بين دائرتي عرض 15 و 35 جنوب و شمال خط الاستواء. هذا الموقع الفلكي جعل من مناخها مناخا جافا و حارا.

و لمعرفة الأسباب التي جعلت هذا المناخ يتميز بهذه الظاهرة، أي الجفاف و الحرارة يقول العلماء : " أن المنطقة الواقعة ما بين 15° و 53° شمال جنوب خط الاستواء هي مناطق ذات الضغط الجوي المرتفع، فالهواء الدافئ ينبعث من خط الاستواء و يهب شمالا و جنوبا، وكلما ارتفع الهواء قلت درجة حرارته و تتساقط منه قطرات الرطوبة فوق المناطق المجاورة لخط الاستواء، فإذا بلغ مستوى دائرة 15 يأخذ في الهبوط و يسخن من جديد. و هكذا تتكون حالات الجفاف في الصحراء [2].

و الأهم في هذه الدراسة هو معرفة كيفية اجتياز القوافل للصحراء صوب مناجم الذهب. إن دراسة الصحراء بهذا الشكل غير كاف، بسبب ماضيها البعيد و حضارتها التي لا يستهان بها. لكن الصحراء التي أصبحت تشكل اليوم جزءا من سطح الأرض، لا يمكن أن تكون قد استقرت في هذه المنطقة منذ آلاف السنين. فعلا فإن الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الحفريات أكدت أن بعض مناطق الصحراء عرفت نمطا من الحياة يشبه النمط الذي نراه اليوم في الشمال. إن الاختفاء المفاجئ للعصر النيوليتي * أصبح يوحي باقتراب ظهور الصحراء و هذا بسبب الاضطرابات المناخية التي أصبحت تعيشها المنطقة، فالتساقط غير المنتظم للأمطار وهبوب العواصف و الزوابع أصبح لها تأثير بارز.

---

1. الصحراء، "الموسوعة العربية العالمية"، ط 2 ،ج 15، ص 62.
2. الصحراء، نفسه، ص58.

* نيوليتي : (Néolitique)، العصر الحجري الحديث.

و الغطاء النباتي الذي كان يسودها ما بين 7000 و 4000 سنـــة ق.م أصبح يتأثـــر شيئا فشيئـــا بتلك التغييـــرات، و أصبحت الأوديـــة تستقبل الماء بكميات أقـــل، وتقلص حجـــم البحيرات، بالإضافـــة إلى أن الجماعات الحيوانيـــة بدأت في الهجـــرة نحو الجنـــوب. و خلال الفترة الممتدة من 4000 إلى 2000 ق.م أصبحت عوامل التدهور أكثر بروزا، كزحف الرمـــال، تحول البحيـــرات إلى مستنقعـــات و سخونـــة الهـــواء [1].

و خلال سنة 1000 ق.م أصبح كـــل شيء جاهـــزا، ليلاحـــظ الإنسان الفـــرق بين فترة العصر النيوليتي و التصحـــر الـــذي حل مكانـــه. ومن بين أهم المناطـــق التي كانـــت آثار التصحر بـــارزة بها، في الفتـــرة التي سبقت بـــروز الصحراء (طاسيلـــي أجـــر)، التي كانـــت حضارتها مزدهـــرة بممارستها لنشـــاط الرعي المعتمـــد على تربيـــة الثيـــران في أرض خصبـــة معمـــرة [2].

و خلال الفترة الرومانيـــة لوحظ أيضا تطـــور هذه العوامـــل من سيئ إلى أسوأ. فنقص الميـــاه ترك لنا آثـــارا تدل فعلا على تفاقم هذه الظاهـــرة التي تعد استمرارا لتلك الظواهر التي عاشتها المناطق التي نسميها اليوم بالصحراء. و على سبيل المثـــال و ليس الحصر بقايا آثار العشرات من المـــدن و خزانـــات المياه المبتـــورة و أحواض الأودية الجافـــة، إضافة إلى انقراض معظم الحيوانـــات لضخمة بسبب نقص الأمطـــار. فالمسرح الروماني بتـــونس و مدينة تمقـــاد التي تقوم اليوم على مناطـــق عشبيـــة كانت يوما ما دليـــلا على الرخاء و الازدهار [3] لأقول إنه اختفى كل شيء و أصبح الإنسان محصورا بين هذه العوامل الطبيعيـــة القاسيـــة التي تتطلب منه التأقلـــم أو الهجرة.

---

1. انظر. HUGOT (J.H.), « Le Sahara avant le désert », p.83.
2. انظر. op.cit. p.84.
3. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ط.2، (ترجمة د. الهادي أبو لقمة و د. محمد عزيز)، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1988. ، ص 29.

– بشريـــــا :

في هذا الإطار من الدراسة لا مجال للحديث عن الحياة المزدهرة التي آوتها الصحراء الكبرى في الماضي، و لا عن تلك الصعوبـــات التي كانت تشكل دوما، في نظر العديد من الدارسين و المختصين الحاجز المانع لاتصال الشمال بالجنوب، بقدر ما يستدعي الأمر، العودة إلى تلك الصحراء التي ميزتها فترة العصور الوسطى بقوافلها التجاريـــة المنظمـــة و بأسواقها المزدهرة وبمحطاتها الهامـــة. و لا يمكن تدعيم هته الصفات إلا بالعودة إلى القبائل البربريـــة التي يرجع إليها الفضل في تعمير هذه المنطقـــة، و إلى الفتوحات الإسلامية التي دعمت هذا العامل و عززت روابط الصلـــة بين شمال إفريقيا و أقصى جنوب الصحراء الكبرى أي ما يمكن التعبير عنه بالانفتاح الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي و السياسي الذي حدث بين المغرب الإسلامي والسودان الغـــربي.

هذه الصحراء حددت بفعل التأثيرات المناخية بالشكل التالي :

– شرقا : الحدود الطبيعية للصحراء، بما فيها صحراء ليبيا و النيل؛

– غربا : المحيط الأطلسي،

– شمالا : صحراء سيرت، جبل نفوسة، شط الجريد، شط ملغيغ، الأطلس الصحراوي و درعة، مجتازين بذلك كل المراكز التجارية شمال الصحراء (فزان، غدامس، وادى ريغ، ورقلة، سجلماسة).

– جنوبا : تصل إلى منعطف نهر النيجر مرورا بالتشاد، إلى غاية النيل في درجة 16° شمالا [1].

1. أنظر : LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », in « Histoire Générale de l'Afrique – l'Afrique du VII^e au XI^e siècle-», UNESCO, 1990, p.303.

كانت العوامل الطبيعية القاسية سببا في قلة الكثافة السكانية، بل وهنالك من المناطق ما هو خال تماما من السكان، مثل بعض المناطق في الصحراء الليبية والمجابات الكبرى*.

لكن وجود السكان في هذه المناطق كان مؤكدا، و ما نقلته المصادر العربية إنطلاقا من القرن الثامن لدليل على ذلك. و كان وصف البكري و ابن حوقل، و ابن الفقيه والمسعودي و ابن بطوطة و ابن خلدون ثم حسن الوزان كافيا لدراسة هذه السلالات البشرية، وإعادة الاعتبار لتاريخ المنطقة التي كثيرا ما طمست حقيقتها أكاذيب الاستعمار و أساطير بعض المروجين. و من بين أهم التجمعات السكانية التي ميزت الصحراء في هذه الفترة، البربر الذين يشكلون نسبة 90 % من سكان المنطقة بالإضافة إلى السود الذين ما انفكوا يندمجون شيئا فشيئا مع الجنس الأبيض. و من بين قبائل السود التي سكنت الصحراء تشير بعض الدراسات إلى فصائل "توبو" " Toubou" و الذين شكلوا قبائل الزغاوة " Zaghaoua "، تدا "Téda" ودازا " Daza "[1].

أما بالنسبة للقبائل البربرية الصحراوية التي لعبت دورا هاما في توطيد العلاقات بين إفريقيا الشمالية و السودان، تنقسم إلى فرعين : فرع منه يسمى زناته، و فرع آخر يسمى صنهاجة. أما الصنهاجيون فكانوا بدوا رحلا، رعاة إبل و ماعز و غنم، بينما كان جزء من زناتة و القبائل المنفصلة عنها (مثل لواتة و مزاتة)، بدوا رحلا، و الجزء الأخر حضرا. هذه الجماعات السكانية التيكانت يوما ما سببا في تأسيس الواحات الجميلة لكل من وادي سوف، وادى ريغ، ورقلة ، تيديكلت و توات بالصحراء الجزائرية، إضافة إلى تربية الحيوانات كانت ماهرة في عملية تصريف المياه، و حفر القنوات الباطنية و الآبار الارتوازية [2].

---

* المجابات الكبرى : هي أصعب مراحل السفر التي كان يقطعها التجار في العصور الوسطى. تقع في الصحراء الغربية حاليا.

1. أنظر : LEWICKI (T.), « Études Maghrébines et Soudanaises », Varsovie, éd. Scientifiques de Pologne, p.43.

2. Ibid, p.305.

و هذا ما يجعلني أقول إنها كانت أهم عوامل التحدي و التعايش مع تلك الطبيعة القاسية. فاستقرار هذه القبائل في المناطق الجبلية كالهقار و فزان و تيبستي، لدليل على أن هناك مناطق احتفظت بنوع من الرطوبة سمحت للتجمعات البشرية بالتأقلم معها و تكوين نمط حياة خاص بها، و ما الإشارة إلى هته القبائل إلا دليل على تواجدها منذ فترات زمنية بعيدة. والدراسات الحديثة تقول أن هذا الاستقرار كان مؤكدا من 1000 سنة قبل الميلاد [1].

و ذكر هيرودوت الغرامانتيين "Garamants" سنة 450 ق.م، أنهم سكان واحات جرمة "Djerma" في فزان [2] و يؤكد أن المنطقة لم تكن خالية من السكان، أي أن ظهور تلك القبائل التي لعبت دورا هاما في التجارة العابرة للصحراء لم تظهر إثر توسع الفتوحات الإسلامية خلال القرن 8 للميلاد، بل قبل ذلك بكثير. كما يضيف " Basil Davidson " قائلا : " إن الاتصال بين الشمال و السودان الغربي تأكد عندما بدأ استعمال الجمل الذي أحدث فعلا ثورة لا يستهان بها في تاريخ الصحراء والتجارة العابرة لها. و بالرغم من وجود عدة دراسات أشارت إلى تاريخ هذا الاتصال، و الذي حددته خلال 1000 ق.م أين عبرت الصحراء تلك العربات التي تجرها الخيول، و التي تطورت على يد القرطاجيين خلال القرن الخامس ق.م، إلا أن الرومان المهيمنون على بحر الروم قللوا من شانها لمدة ثلاثة قرون، ليترك المجال للمسلمين الفاتحين خلال القرن السابع للميلاد [3]. لتصبح التجارة بذلك بعـــد قرن من الزمن فقط نمطا من أنماط الحياة ميز الواقع الاقتصادي للمنطقة و بشكل مكثف خلال ما يناهز ستة قرون.

و بالتالي أقول أن هذا التوسع و الوجود الحضاري الاقتصادي في هذه المنطقة، أكدته المحطات التجارية و الأسواق الكبرى التي انتشرت عبر كل هذه الصحاري. إضافة إلى التجمعات البشرية الكبرى التي انتظمت في شكل قوافل تجارية . و أن الصحراء لم تشكل يوما ما عائقا طبيعيا و بشريا بل عائقا تحدته رغبة الإنسان و إرادة الله في خلقه.

---

1. أنظر JOLLY (J.), « Histoire du cointinent Africain », p.59.
2. أنظر FAGE (J.D.), « A History of west Africa », Damas, Cambridje, 1969, p. 14.
3. أنظر : HOPKINS (A.G), « An economic history of West Africa », London, Longman, 1973, p.79.
أنظر أيضا : GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara », Verviers, Marabout Université, éd. Gérard & C^ie , 1967, pp.45-61.

ب. الآبـــــــار

تدخـــل الآبار ضمن المنشآت العمرانيـــة التي تـــدل على وجـــود الحيـــاة في كل من المناطـــق التي عمّرها الإنسان، في المدن و الأرياف و الصحـــاري. و تعـــود أهميتهـــا، بالإضافـــة إلى أهميـــة دراستهـــا، إلى كونها عامل جذب و استقطاب لكل التجمعـــات السكانيـــة.

رغم ندرة الدراسات الشاملـــة لكل الآبار التي وجدت في الصحـــراء المغربيـــة، حاولت إدماج هذه الفكـــرة و لو بشكل مختصـــر ضمن هذه الدراســـة، لألفت الانتبـــاه إلى الدور الذي لعبته هذه الآبار في تسهيـــل عمليـــة نقل القوافـــل التجاريـــة لذهب الســـودان الغربي عبر الصحراء الكبرى نحو مـــدن الشمال، وهذا باعتبارها معلما من معالم الطريق، التي تعتمد عليها القوافـــل أثناء تنقلها من منطقـــة لأخرى، إضافـــة إلى مساهمتها الفعّالـــة في ظهور العديد من القصـــور و المدن الصحراوية. فبغض النظر عن قسوة طبيعة الصحراء الكبرى، التي كانت تخفى آثار هذه الآبار في لحظات وجيزة، أثنـــاء تشكيل الزوابـــع الرمليـــة، إلا أن استمراريـــة وجودهـــا بدت واضحة على طـــول المسالك التجاريـــة التي ربطت مدن الساحـــل بمدن الجنوب. فكان لحكام المغرب الإسلامي أثـــر بالغ في ذلـــك، حيث اهتموا بهذه العمليـــة بشكل كبير جدا.

و قبل الإشارة إلى البعض من هذه الآبار التي ذكرتهـــا المصادر التاريخيـــة، يجب العودة إلى تلك العملية التي كانت تتوقـــف عليها عملية حفر الآبـــار، و هي كيفيـــة العثور على المـــاء في الصحراء، والتي كانت تجربـــة الإنسان فاصلـــة في أمرها كما يقول الإدريسي عن أهـــل بغامـــة : " و شربهم من عيـــون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها و تجربـــة " [1].

---

1. الإدريسي (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروع بالشريف الإدريسي)، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ط.1، بيروت، عالم الكتب، 1409 هـ/1989 م، ص.23.

و يتم الكشف عن وجــود المياه باستعمال طرق تثير العجب احيانا. و من أمثلة ما يمكن ذكره في هذا الصــدد، أن رجلا من البربر كان يستــدل على وجود الماء في الصحراء بمجرد أن يشتم حفنــة من التراب. و كثيرا ما كانت القوافل تحط رحالها في ذلك المكان وتحفر فيه فيتدفق الماء الزلال [1] حسب رواية الادريسي دائما.

و لقد عمد الحاكم عبــد الرحمــن بن الحبيب* منذ عام 128هـــ/745م، إلى حفـــر الآبار عبر مفاوز الصحـــراء الكبــرى على طول الطريــق الصحراوي الغربي الرابـــط بين تامدلـــت وأودغشت [2]. و أهم الآبـــار التي أشار إليها البكري في هذا الصدد بصفـــة عامة : بئر أمان تيسن، أي "ماء الملح"، ثم تنـــودادن، أي "بئر الأيايـــل"، يليه "توتيـــن أن وجليـــد"، أي "آبار الأمير"، و أخيرا "أمان يسيـــدان"، أي "مـــاء النعام". و هذا على طول الطـــريق الرابط بين درعة و سجلماسة [3].

و تعتبر إشـــارة البكـــري إلى هـــذه الآبار و مناطـــق وجود الماء في الصحـــراء الكبرى، دليلا على أنـــها استخدمـــت معلمـــا على طـــول هذه الطرق التي ترشـــد القوافـــل، و التي يصعـــب اجتياز الصحـــراء بدونها. و من الآبار التي أشـــار إليها البكري أيضا بئر الجمالين، تلك الواقعـــة على الطريق الرابط بين درعة و سجلماسة، و التي يبلغ عمقها أربع قامات و هي من أنبـــاط عبد الرحمـــن ابن الحبيـــب. و على طول هذه الطريـــق يشير أيضا إلى "ماء تندفس"، و هي آبار يحفرها المسافـــرون، و سرعان ما تنهار. يليه "بئر هيلون"، بعد بئر أنبطهـــا عبد الرحمن و احتفرها في حجـــر أدعـــج صلب طولها أربع قامـــات. و بعد "بئر ويطونان" و هي كبيرة لا تترف ماؤها رعاق، يسهل شاربيه من الأنعام والناس و هي أيضـــا من عمل عبد الرحمن، طولها ثـــلاث قامات. و بعد اجتياز مجابة جبل الرمل [4] يظهر بئر "وانزميـــن"، و هي قريبـــة الرثاء، يليهـــا بئر في حد بني وارث **.

1. الإدريسي (أبي عبيد الله)، المصدر السابق، ص. 23.

* عبد الرحمن بن الحبيب حفيد عقبة بن نافع.

2. أنظر : TRIAUD (J.L.), « Islam et société soudanaise au moyen âge », Paris–Ouagadougou, C.V.R.S, 1973, p.59.

3. البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، " المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب -جزء من كتاب المسالك و الممالك-"، (ترجمة ونشر ديكين دو سلان)، باريس، 1965، ص.156.

4. نفسه، ص.156-157.

** بني وارث من قبائل صنهاجة، و تقع في الطريق إلى أودغشت، و هي أصعب مراحل السفر إلى بلاد السودان.

والملاحظ في هذه الآبار أن مناطقها خالية من السكان تقريبا عكس آبار المدن الصحراوية ، التي أبرزت لنا الدور الثاني الذي لعبته الآبار والمتمثل في ظهور التجمعات السكانية في شكل واحات وقصور ومدن، فإذا كانت الآبار التي حفرت على طول طرق المفاوز الصحراوية قد ضمنت استمرارية سير القافلة وسفر التجار من سجلماسة إلى أودغشت، بتوفير الماء للمسافرين، فإن الهدف الذي من أجله ظهرت آبار المدن الصحراوية، يتمثل في تكوين المحطات الصحراوية لهؤلاء التجار، وضمان راحة القافلة التي تحط رحالها فيها. لهذا سرعان ما تحولت هذه المحطات إلى قصور ومدن تخزن معدن الذهب.

و بدت هذه الظاهرة واضحة المعالم في منخفض وادي ميا، الذي بلغ عدد الآبار التي حفرت فيه ما يقارب الواحد و الخمسين ألف بئر خاصة بعد ازدهار زراعة النخيل فيها. ومن أهم آبار منطقة سدراتة الارتوازية بئر "عين الصفا".

أما بالنسبة لمنطقة ورقلة، فإنها تعطى لنا فكرة واضحة عن كيفية ظهورها، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار و على سبيل المثال الرواية التي تقول : "أنه في الثالث من جمادى الأول من عام 108ه/726م جاء سبعون رجلا من زنزبار مع الشيخ هادو، بالقرب من سدراتة، وأسسوا مركزا جديدا يحمل اسم "ورقلة"، و الذي جلب إليه عددا كبيرا من الإباضيين، فحفرت الآبار و وسعت البساتين و ازدهرت المدينة بشكل كبير جدا [1]. و نفس الشيء بالنسبة لمدينة القلعة * التي نمت وازدهرت بعد حفرها لعدد كبير من الآبار الارتوازية التي شكلت حوض بلعيد، و الذي بواسطته تحولت واحات النخيل إلى جنات خضراء [2].

---

1. أنظر : LETHELIEUX (J.), « Ouargla cité saharienne – des origines au début du XX^{e} siècle-», Librairie orientaliste Paul Geuthner, SA, 1984, pp.27, 47, 82.

* القلعة أو القليعة : واحة في صحراء الجزائر، تقع على بعد 250 كلم جنوب ورقلة، و 390 كلم شمال عين صالح.

2. أنظر : El-Goléa, in « E.I », Paris, 1927, p, 184.

ومن خلال الأمثلة المذكورة يظهر جليا أن العمران الإسلامي قد اعتمد على أسس متينة لعبت أدوارا مختلفة في تثبيت الحياة في العديد من المناطق, و أن قصة الماء في حياة المسلمين هي قصة مقدسة تمت بصلة إلى نصوص و تعاليم الشريعة الإسلامية. لذا يعتبر الاهتمام بهذه الثروة فضيلة أخلاقية و جذورها لا تعود إلى قصة بئر زمزم و الأرض المقدسة فقط [1] وإنما إلى قصة الماء والحياة في الكون، قبل كل شيء. و إذا قال هيرودوت أن : "مصر هي هبة النيل " فيستحسن القول أن الواحات و القصور هي هبة الآبار في الصحراء.

و الإشارة إلى هذا الموضوع بشكل ملخص، يعتبر نموذجا لموضوع من أدق الموضوعات التي مازالت الدراسات التاريخية و الأثرية، تحاول إزالة الغبار عنه لما له من أهمية في كتابة تاريخ المغرب.

---

1. أنظر : MARCAIS (G.), « L'Urbanisme Musulman », in «Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'occident musulman», T.1, Alger, 1957, p.226.

ت. الجمل

لا يمكن لي تقدير إمكانيات الجمل المذهلة، إلا عندما أراه منتظما في القوافل المحملة ببضائع شتى، مخترقا بها الصحراء مشكلا بذلك وسيلة نقل فعالة، أبسط ما قيل عنها أنها سفينة الصحراء، قل من عرف سرّها وحل لغزها الذي يكمن في قدرة و حكمة الإله، الذي وضعها في هذا المخلوق العجيب. و يصف القرآن الكريم هذا الحيوان وصفا دقيقا و متميزا كقوله تعالى:" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" [1]، هذا التساؤل دفعني إلى البحث عن تلك المواصفات التي جعلت هذا الحيوان يتحدى قسوة الطبيعة الصحراوية.

ومن خلال هذا البحث اكتشفت أن العديد من الدراسات قد اهتمت بالجمل سواء من خلال وصف مميزاته أو دراسة تشريحاتـه بشكل علمي، واستنتجت من خلالها أن هذا الحيوان يتميز عن غيره بكثير من الصفات. و هذا ما سأحاول تبيينه في هذه النقطة.

و أهم ما يمكن ذكره هو أن الجمل يمتاز بالهدوء والصفاء ولا يُغير من سلوكه ولا ينتبه إلى ما يدور حوله من ضوضاء، بعكس الأغنام والماعز والأبقار والخيل. كما أنه حيوان مطيع وسهل القيادة، و هدوءه يجعل راكبه يشعر دائما بالأمان حيث يسير بخطوات متزنة وهادئة، و له نزعة للعيش مع الآخرين [2].

---

1. سورة الغاشية، الآية، 17.
2. محمود (محمد عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ط.1، الإسكندرية، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية، 1999، ص 41-42.

هذه الصفات تفسر الإقبال الكبير لسكان أقاليم الصحراء على تربية الإبل والإكثار منها من أجل إنتاج اللحم واللبن بالإضافة إلى استخدامها في النقل التجاري فيما بعد، وهذا منذ مئات السنين، ليشكل بذلك الوسيلة الأكثر استعمالا في الجنوب و على مشارف الصحراء [1].

اتفقت جميع الدراسات على أن ازدهار تجارة القوافل، في العديد من بقاع العالم، يعود إلى استخدام الجمل كوسيلة نقل خاصة في غرب آسيا وفي آسيا الوسطى [2]. إلا أن ما يهمني في هذه الدراسة هو الإشارة إلى الجمل الأفريقي ذي السنام الواحد، والذي اختلفت أراء الباحثين والمؤرخين حول تحديد فترة دخوله إلى منطقة المغرب. ومن خلال البحث اكتشفت أن معظم الدراسات، تتفق على الرأي الذي يدعم فكرة دخول الجمل من مصر وخلال فترة القـــرون الميلادية الأولى، أي ما بين القرنين الثاني والثالث للميلاد، والأرجح أن ذلك تم في عهـــد الرومـــان، إضافة إلى توسيع هذا الوجود أثناء الفتوحات الإسلامية [3]. و يمكن أن أدعم هذا الرأي بنظـــرة أخرى ذهبت فيها الدراســـات الحديثة إلى حد القول أن الجمل كان موجودا بصفة دائمة في شمال أفريقيا وأن الإبل الموجـــودة الآن ما هي إلا شكل من الإبل البريـــة التي هامت في الصحـــراء منذ العصر القديم "Pleistocene" *، وأن شكلها في الماضي يختلف عن شكلها الحالي. كما أشارت هذه الدراسات الحديثة إلى أن الجمل قد نشأ في أمريكا الشمالية وكان حجمه في ذلك الوقت يماثل حجم الأرنب البري. وقيل أيضا أن الجمل قد عاش في تلك المنطقة لفترة مقدارها أربعين مليون سنة هاجر بعدها إلى مناطق أخرى من العالم، حيث انتقل إلى آسيا عن طريق ألاسكا وسيبيريا من خلال مضيق بيرينج حتى انقرض تماما من المنطقة التي نشأ فيها ونتيجة تأقلمه مع البيئات المختلفة، تطور وأصبح يشكل الأنواع المختلفة التي تنتمي جميعا إلى ما يسمى بالعائلة الجملية ** [3].

---

1. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge – d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », Mémoires IFAN, n° 61,Dakar, 1961, p.394.
2. زنيبر (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب"، في "تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية،1404 هـ/1984م، ص.162.
3. أنظر : LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien monde du V[e] au XI[e] siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton & C[ie], 1974, pp.205-206.

* السلسلة الأولى لنظام العصر الجيولوجي الرابع الذي بدأ منذ 1.64 مليون سنة.

** العائلة الجملية : يقصد منها فصائل الجمل الموجودة في العالم، منها الجمل العربي ذو السنام الواحد و الذي ينتشر في إفريقيا والوطن العرب، ثم الجمل ذو السنامين و الذي ينتشر في آسيا. أما حيوان اللاّما، و الجوانكو فتميز بطول رقبتها و اقتصادها المميز في استهلاك الماء، و ليس لها سنام.

4. محمود (عبد العزيز)، ' الجمل العربي"، ص 29.

هذا القول يؤكد صعوبة تحديد الفترة الزمنية التي تم فيها انتقال الجمل إلى شمال إفريقيا و الذي يعرف بالجمل العربي ذو السنام الواحد والأرجل الطويلة والذي يستقر في المناطق الصحراوية في كل من شمال إفريقيا و الشرق الأوسط.

لكن الأهم من هذا كله هو أن تواجد الجمل بهذه المنطقة سيعود بالفائدة على القبائل البربرية الصحراوية، ليستخدم في النقل والحروب حيث يعتبر أكثر تأقلما من الحصان الذي تصعب تغذيته ومن الحمار الذي لا يستخدم في الحروب، لذا سهل على القبائل البربرية تنظيم حروبها، والتوسع نحو الجنوب [1]، لتدخل بذلك هذه المنطقة تاريخا جديدا تميزه العلاقات التجارية مع إفريقيا السوداء وشبكة الشرق و بحر الروم. و لإثراء الموضوع ينبغي علي أن أجيب عن السؤال الآتي: ما هو سر نجاح هذه الدابــة في مقاومة قسوة طبيعة الصحراء ؟

إن قدرة الإبل على التأقلم و المعيشة في المناطق الحارة الجافة مقارنة بالحيوانات الأخرى يرجع إلى الوظائف المميزة لأعضائها المختلفة. فقدرتها على تحمل الحرارة العالية والجفاف الشديد تعتبر أحد العوامل الهامة المحددة لانتشارها في تلك المناطق، لأن فيزيلوجية الجمل مكنته من التأقلم مع المعيشة في تلك المناطق. يبلغ طول الجمل حوالي 220 سم عند الكتف، و يتراوح وزنه بين 450 و 600 كلغ، وهو بذلك ذو قامة طويلة. هذه الصفة تساعد الجمل على التصدي لقوة الرياح الصحراوية المصحوبة بالرمال و الزوابع الرملية التي غالبا ما تهب قريبة من سطح الأرض و لذلك فإنه يرفع رأسه عاليا ليتنفس هواءً خاليا من الرمال، كما أنها تمكنه من تناول الأوراق من على أفرع الأشجار الطويلة. و كبر حجمه يساعده، على اكتساب الحرارة ببطء عند تعرضه لأشعة الشمس، بعكس الحيوانات الصغيرة [2].

---

1. أنظر MAUNY (R.) : « Les Siècles obscurs de l'Afrique noire », Paris, Fayard, librairie Arthème, 1970, p.129. ، أنظر أيضا : العربي (اسماعيل)، " الصحراء الكبرى و شواطؤها"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص‌ص. 42-45.
2. محمود (عبد العزيز)، "الجمل العربي"، 32 – 46.

هذا ما جعل القوافـــل التي تقطـــع الصحراء، قادرة على مقاومـــة الزوابع الرمليـــة الكبرى التي قل ما نجـــا منها إنســـان، إلا ذوي التجربـــة ومن كانت له معرفـــة دقيقـــة بالبيئـــة الصحراويـــة والمسالك التي تتعـــرض عـــادة لمثل هذه الزوابـــع وكيفيـــة التصدي لها.لهذا يمكن اعتبار عمليـــة تسمين الجمال التي تشرف عليها بعض القبائل التي تهتم بتنظيم القوافل التجاريـــة العابرة للصحـــراء باتجاه السودان من أهم التفاصيل المتعلقـــة بالرحلة. وهذا دليل على أن حجم الجمـــل وضخامتـــه يلعبـــان دورا كبيرا في مقاومـــة قسوة الطبيعة .

إلا أن الأمـــر المحير في هذا الحيـــوان، هو قدرتـــه على السير في تلك الكثبان الرمليـــة الدقيقة دون أن تغوص قدماه فيها. توصل العلماء إلى أن سبب ذلك يعود إلى شكل قدمـــه التي تتـــلاءم بدرجـــة كبيرة مع السيـــر في الرمال، و التي تشبـــه طبقا كبيرا مما يجعل الجمل قادرا على الحفاظ على توازنـــه في الرمـــال إضافـــة إلى أن قدميـــه الأماميتين تغطيـــان مساحـــة مقدارها 300 سم^2 وهي مستقيمـــة بينما القدم الخلفية 200 سم^2 [1]، و السر في ذلك كله يكمن في أن هذه الأقدام تحمل الأخفـــاف المانعـــة للغوص في الرمال [2].

وإذا تعلق الأمر بالصحراء والحرارة الشديدة فالسؤال الذي يطرح نفسه هو:كيف يستطيع الجمل مقاومة العطش لفترة زمنية طويلـــة، مع حمله للثقل لمسافة طويلة ؟ لقد كانت هذه الخاصية سر نجاح القوافل في مهامها، وازدهار التجارة عبر الصحراء.

---

1. محمود (عبد العزيز)، "الجمل العربي"، ص.51.
2. زغلول (سعد)، " تاريخ المغرب العربي"، ج.4، ص.90.

إن آخر ما ذكر في هذا الصدد هو تلك النتائج الباهرة التي توصلت إليها الدراسات الحديثة التي اختصت بدراسة هذا النمط من الحيوانات، والتي تقول إن الجمل الذي يتراوح وزنه بين 400 و 600 كلغ بإمكانه أن يحمل ما بين 150 إلى 200 كلغ، وعلى مسيرة 30 كلم معدل يومي، وبذلك فهو قادر على نقل هذه الحمولة ولمسافة طويلة دون تعب، كما أنه بإمكانه يقطع مسافة 150 كلم في مدة تتراوح ما بين 15 إلى 20 ساعة يوميا، وبسرعة تتراوح ما بين 8 إلى 20 كلم/سا.

أما في حالة عدم حمل الجمل للثقل، فبإمكانه أن يسير بسرعة 16 كلم/سا لمدة 18 ساعة في اليوم. وهذا ما يفسر أن هذا الحيوان شديد التحمل للألم والظروف القاسية، فهو يستمر في العمل دون أن يبرز ظواهر الألم، كما يستطيع العيش عندما يفقد 30 % من وزنه عند تعرضه للعطش، بينما تتعرض الحيوانات الأخرى للهلاك إذا ما وصل فقدان الماء من جسمها إلى 10 %، وهذا ما يجعله قادرا على البقاء طويلا تحت أشعة الشمس عكس الحيوانات الأخرى [1].

ومن هذه الصفات أيضا انه لا يعرق قبل درجة حرارة 41، بينما يبرد جسمه ليلا إلى درجة حرارة 34 وهو يعوض ما يفقده من الماء مما هو مخزن في سنامه وذلك عن طريق أكسدة الشحم فيه [2]. هذه الصفة الكبرى التي تربط بين مقاومة الحرارة والتصدي لها وعدم تضييع الماء من جسمه، ميزته فعلا عن بقية الحيوانات، وجعلته قادرا على قطع الصحراء من جهة والحفاظ على حياة راكبه من جهة أخرى بإمداده بالماء أثناء فقدانه.

---

1. محمود (عبد العزيز)، المرجع السابق، ص .43.
2. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ج.4، ص.ص 90-91.

فمنذ زمـــن بعيد تحدثت الروايات عن الطريقـــة التي يلجأ إليهـــا الرحالـــة دائما، للحصول على الماء أثناء افتقـــاده، و ذلك ببقر بطون الإبل وشرب الماء التي بداخلها. فكيـــف يا ترى يكون ذلك بالرغم من أن هذا الجمل قد بقي أياما عديـــدة دون شـــرب الماء، ومن علّـــم هذا البدوي علم التشريح ليعلم ذلك، أم التجربة هي التي كانـــت وراء ذلك ؟

إن التجربة هي التي كانت وراء مثل هذه الحلول لإنقاذ حياتـــه، ولقد أكدت الدراسات الحديثة مؤخرا أنه حقا يمكن للجمل أن يعيش 30 يوما بدون شرب الماء في حالة وجود المرعى، كما قُدر أن الإبل تحصل على ثلاثين لترا من الماء من النباتات التي تتغذى عليها، و ذلك اعتمادا على كمية الماء الموجودة في النباتـــات [1]. هذا ما يجعل القافلة دائما قبل الرحيل تلجأ إلى اختيار الدليل، هذا الرجل الذي يجب أن يكون مطلعا على كل تفاصيل المسلك وبشكل دقيق سواء المتعلقة بالمحطات أو الآبار أو مناطق الرعي التي تحتوي على نباتات أقل جفافا أي التي تحتوي على كمية معتبرة من الماء [2].

كما اكتشفت الدراسات الحديثة أن الجمل، يستمر في أكل النباتات بالرغم من العطش، عكس الحيوانـــات الأخرى، لأن إفرازات اللعاب التي تقل عند الإنسان والحيوانات الأخرى لا نجدهـــا في الإبـــل، واستمرار الإبـــل في تحريك فمهـــا يؤدي إلى استمـــرار ترطيب الفم، مما يسمـــح بالبلع الطبيعـــي. والمبهر هو ذلك الاكتشاف الذي يؤكد أن كميـــة الماء التي يمكن أن تحتويها كـــرش الإبـــل الذي يزن 550 كلغ، تصل إلى 66 لترا، وإذا أضفنا محتوى القناة المضمية تصل إلى 82 لترا.

---

1. محمود (عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ص .73.
2. انظر : LETHIELLEUX (J.), « Ouargla cité saharienne ». p.161.

هـذا أيضا ما يؤكد النسبة المئوية من الـماء التي يحتويها جسم الجمل عامة والتي تصل إلى 75 % من وزن الحيوان في فترات الحرارة وتقل النسبة أثناء الشتاء إلى 50 % [1]. وإن دلّ ذلك على شيء إنما يدل على حكمة الله في خلقه وتسخير هذا الحيوان من أجل خدمة الإنسان، وليكون بمثابة سفينة الصحراء تستعمل في الترحال والتنقل والحروب والتجارة، دون أن أنسى ما للبن ولحم هـذا الحيوان من فوائد جمّة.

ولا يعيب العرب مدح هذا الحيوان والإكثار من تربيته، لأنه فعلا المصدر الأساسي لثروتهم وعماد حياتهم قديما وحديثا. وما ذكر في القرآن الكريم تأكيد على ذلك، في الآية : " وعليها وعلى الفلك تحملون" [2]، أو في قوله صلى الله عليه وسلم : " الإبل عز لأهلها".

---

1. محمود (عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ص . 82.
2. سورة المؤمنون، الآية 22.

ث. التجّـــــــــــــار

تعتبر فئة التجار مـــن أهم الطبقات الاجتماعيـــة التي ميزت النشاط الاقتصـــادي في المغرب الإسلامي، هذا النشـــاط الاقتصادي الذي اهتم به المسلمون انطلاقـــا من تعاليـــم دينهم الذي حث على ممارسة التجـــارة، في قوله (ص): " عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق." و في قوله أيضا (ص) : " التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين و الشهداء".

هذا التعامل التجاري الذي ميزه الدين الإسلامي أصبح فعلا من أهم النشاطات التي أعطت للتاجر المسلم صفات يمتاز بها عن بقية التجار الآخرين، سواء من أهل الذمة أو الوثنيين الأفارقة الذين اتصلوا بهم بعد الفتوحات الإسلامية. لتصبح هذه المميزات بعد ذلك عاملا أساسيا من عوامل تدعيم الإسلام و انتشاره خاصة في إفريقيا السوداء. هذا التاجر الذي تردد على المراكز التجارية في السودان الغربي، سمحت له الظروف أن يصبح هو و العوامل الأخرى عاملا من عوامل ازدهار التجارة بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي، متصفا بنفس الصفات التي امتاز بها التاجر في كل الأقطار التي دخلها الإسلام و هذا بترك بصماته و أثاره أينما حل وفي جميع الميادين خاصة الاجتماعية منها.

و إذا نظرت في الشروط التي من خلالها باشر التاجر نشاطه التجاري أجدها مستوحاة من مصدر القرآن الذي مكنه في عمله و جعله يساوي عمل المجاهد. ومن أهمها أن يكون عالما بالتعاليم الدينية الخاصة بالمعاملات حتى يميز المباح من المحظور. إضافة إلى تحاشي الضرر

و أن يكون المبيع منتفعا به[1] و أساس هذا التعامل هو الابتعاد عن أكل الربا و الغش و التحايل، وهذا لقوله تعالى : " الذيـــن يأكلـــون الربـــا لا يقومـــون إلا كما يقـــوم الذي يتخبطـــه الشيطان من المـــس ذلك بأنهـــم قالـــوا إنما البيـــع مثل الربـــا و أحل الله البيع و حرم الربا فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف و أمره إلى الله و من عاد فأولائك أصحاب النار هم فيها خالدون "[2].

كما أشار ابن خلدون إلى هذه النقطـــة، عندمـــا تناول التجـــارة من الناحية الخلقية و الاجتماعية فدعا إلى إعلاء شـــأن التجـــار، وندد بجرائم الغـــش، و الإيمان والتطفيـــف في المكيال و الميزان[3]. إضافة إلى هذه الصفـــات أجد أن التاجر المسلم عامة والمغربي على الخصوص كان يجمـــع بين الدعوة و بيع سلعتـــه. فكثيرا ما كان يلفت أنظار الوثنيين الأفارقة، بكثـــرة وضوئـــه، و انتظـــام أوقات صلاتـــه و عبادتـــه، و ما تحلى به من سمـــو عقلي وخلقي، و استعداده و رغبتـــه في إمدادهم بمزايـــاه و معارفـــه الساميـــة إلى جانب نشـــره للغـــة العربيـــة بين أوســـاط الأفارقـــة [4]. ليكـــون بذلك الصدق دينه والأمانـــة دستـــوره[5].

لن يصبح هذا النجاح الذي حققه التاجـــر المغربي داخل المغرب و خارجه واضحا، إلا بعد أن ساهمـــت الحكومات في تسهيل مهامه. و هذه الصفة كانت معروفة في كافة أقطار العالم الإسلامي، حيث اهتمت الحكومات بإنشاء الطرقات و حراستها وإنشاء أماكن يستريح فيها

---

1. باشا (نجاة)، "التجارة في المغـــرب الإسلامي من القرن 4 إلى 8 هـــ"، تونس، منشورات الجامعة التونسية، كلية العلوم الإنسانية، 1976، ص.21.
2. سورة البقرة، الآية 274.
3. ابن خلدون (عبد الرحمن)، "المقدمة"، ج.2، ص.412.
4. الأمين (عوض الله)، "تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي" في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، 1404 ه/ 1984 م ، ص95.
5. شلبي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ط.5، ج.6، مكتبة النهضة المصرية، 1990، ص.163.

المسافرون، و تأمين الماء لهم، و إنشاء المنائر في الثغور والفنادق و الوكالات، و القياسر داخل المدائن و خارجها [1]. ويقول لمبار موريس في هذا الصدد : " أن التاجر هو الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الاقتصادي، وهو الذي يميل إلى المغامرة و استكشاف الأسواق في البلدان البعيدة وهو الذي سيكشف موارد الذهب في السودان [2].

و لا يمكن إبراز أهمية هذا النشاط التجاري إلا من خلال معرفة مدى استغلال التجار للظروف التي مر بها المغرب الإسلامي في المجال الاقتصادي أثناء هذه الفترة و التي سمحت لهم أن يبرزوا مدى الثراء الذي حققه المجتمع المغربي.

وبالرغم من أن الدراسات التي اهتمت بالحياة الاقتصادية للمغرب الإسلامي لهذه الفترة لا تزودنا بالمعلومات الكافية، عن مدى مشاركة التاجر في الحياة الاقتصادية من خلال أصناف التجار الذين شكلوا هذه الطبقة أو من خلال التوزيع الجغرافي لهم، فأنني حاولت الإلمام ببعض الدراسات التي اهتمت بالموضوع، لأشكل تصورا عساه يكمل أطراف هذه الدراسة لتي اقتضت مني العودة إلى هذا العنصر.

تمت الإشارة إلى التاجر المغربي ضمن فئة التجار الصغار التي استقرت في الأسواق و ما لهذه الطبقة من تمسك في زمام المواد الاستهلاكية داخليا، وبعث روح المبادرة على استحداث الصناعات و تشغيل اليد العاملة و سير الأسواق لترويج المنتوج، ليتطور فيما بعد ليصبح ذلك المغامر الذي ينشط في السفر إلى المناطق نائية باحثا عن أسواق بعيدة، وهكذا كان الأمر بالنسبة لأسواق السودان الغـــربي [3].

---

1. عبد القادر الخطيب (محمد محمد)، "دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية"، جامعة الأزهر، مطبعة الحسين الإسلامية، 1411 هـ/1991 م، ص.150.
2. لومبارد (موريس)، " الإسلام في مجده الأول"، (ت : إسماعيل العربي)، بيروت-دار الجيل، المغرب-دار الآفاق الجديدة، ص.221.
3. باشا (نجاة)، " التجارة في المغرب الإسلامي"، ص.56.

أما طبقة كبار التجار فلقد أوضحت مدى استجابة الأوضاع الاقتصادية للأوضاع السياسية التي عاشتها كل دول المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة، ليتوصل البعض منهم إلى اكتساب أسواق خاصة بهم مثل ابن وردة في الدولة الرستمية أو أبو محمد الصيرفي و ابن الواسطي الذين أشار إليهم ابن صغير، وهم من مالكي الأموال الطائلة، و من مميزاتها أنها وثيقة الإتصال بالسلطة من أجل حماية مصالحها و الدفاع عنها [1].

و عنهم يقول لومبارد موريس أنهم كثيرا ما يتمتعون بالحضوة في قصور الملوك والخلفاء خاصة بالنسبة للصرافين المعتمدين لدى القصر، و الذين يقترحون المال لكبار الشخصيات و المتعهديـــن بتمويل القصور الملكية بالسلع [2]. فهؤلاء سوقهم الدولة و كبار الموظفين والأغنيـــاء و سلعهم كل ما ندر و غلى، و هذا ما يحقق لهم أرباحا طائلة [3]. كما أن حضورهم في المجالس الحكومية و شعورهم مسبقا بما يتخذ من إجراءات و قرارات جعلهم يغتنمون كل الفرص للاحتكار و إدرار الثروة و القيام بالصفقات التجارية المربحة [4].

إلا أن من أهم خصال هذه الفئة، كونها أكثر العامة إنفاقا للأموال، هذا لما كانت تقوم به من أعمال خيرية، كانت تعود بالصلاح على المجتمع، و ما تقديم الأموال و الصدقات للمعوزين و الضيوف والطلبة و بناء المساجد و تحسينها إلا دليلا على تلك المواصفات التي امتاز بها التاجر المسلم أينما حلّ. وهذا بإظهار سمو أخلاقه و العمل بالأمانة و الصدق [5].

---

1. جودت (عبد الكريم)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط خلال القرن 3-4هـ/9-10 م"، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1986/1985، ص.345.
2. لومبار (موريس)، "الإسلام في مجده الأول"، ص.224.
3. جودت (عبد الكريم)، نفسه، ص.346.
4. باشا (نجاة)، " التجارة في المغرب الإسلامي"، ص.126.
5. جودت (عبد الكريم)، نفسه، ص.346.

و ممن أشارت إليهم النصوص العربية أولئك الذين استقروا في المدن التجارية ذات الشهرة الاقتصادية، كتملي الويسياني الذي كان مقلا في أول الأمر، و هو من أهل القصور (ورقلة)، فجعل يسافر إلى تادمكة و بلغ بها مالا كثيرا فجعل يبعث من تادمكة كل سنة ستة عشر كيسا، كل كيس فيه خمسمائة دينار، مكتوب على كل واحد منها هذا مال الله [1].

لا تشير هذه الفقرة إلى مدى ثراء هذه الطبقة من التجار بقدر ما تشير إلى مدى الترابط الديني بين أتباع المذهب الواحد، فإرسال الزكاة من تادمكة إلى ورقلة، يبرز الحرص الشديد لدى الإباضيين لمذهبهم و بقاء الثروة بين عناصرها.

و بروز طبقة التجار لم يكن في المجال الاقتصادي فحسب بل تعداه إلى المجال الثقافي، حيث امتاز بثقافة واسعة اكتسبها من خلال أسفاره و دخوله عدة أمصار و احتكاكه بمختلف الأقوام، شاهد في عاداتها ما كان يدعو للدهشة و الإعجاب في آن واحد [2]. و لم يكن ابن خيرون سوى أحد هؤلاء التجار أصحاب الذوق الرفيع و الذين انتفعت بهم القيروان بعد بنائه للفنادق القيروانية الضخمة و جامع الثلاثة أبواب. ليلعب بذلك دورا كبيرا في نقل دقة الفن الأندلسي المتحضر [3].

---

1. ابن عزوز (فريدة)، " قراءة في أبحاث تاديوش لويتسكي حول فجر العلاقات بين بلاد المغرب و بلاد السودان"، كلية الآداب، تيطوان، ص.458.
2. حودت (عبد الكريم)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..."، ص.364.
3. الجنحاني (حبيب)، "القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي"، الدار التونسية للنشر، 1968، ص.173.

و هناك من الدراسات من ألغت عبـــارة صغار التجار و كبار التجار، و هذا بإشارتها إلى التجار المستقرين و التجار المتجولين. فالمستقـــرون، هم من مالكي الحوانيت الثابتة أين تباع سلعهم، أو من مالكي الأماكن في الســـوق و ملازمتها إلى المساء. أما المتجولون، فهم الذين يتعرضون إلى مضاربات من كبار التجار و التي تدفعـــه إلى بيع البضائع ذات القيم الضئيلة، التي لا تلفت نظر كبار التجار، و التي كانت اهتماماتهم كما سبق و أن ذكرت، تخص البضائع النادرة [1].

و بإمكاني إضافة تصنيف ثالث لهذه الفئـــة و التي أطلقت عليها تسمية التجار الحكام، الذين كانوا يمارسون التجارة و الإمارة في آن واحـــد. و قيد قيل "إذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا"، هذا القول ينطبق على تلك الدول التي اعتمدت على النشـــاط التجاري لسلب أموال الناس بعد احتكارها لهم، و هذا ما ينطبـــق على الدولة الفاطميـــة. أما بقية الدول المستقلة التي شهدها المغرب الإسلامي في هذه الفترة لم يسجل التاريخ لحكامها ومشاركتهم الرعية في التجارة، سوى الازدهار و النمو [2]. فلم تكن مشاركـــة الأئمـــة الرستميين في التجارة إلا زيادة في التقدم و الرخاء و التي مارسوها إلى أن زالت دولتهم، و من بين من برزوا في هذا المجـــال الإمام عبد الوهاب الذي كان ابنه الأفلـــح* قائما له بها، و أبا اليقضـــان و ابنه أبا حاتم ليسلك المدراريون ملك الرستميون في ذلك، فكان الأئمـــة و أمراء البيت المالك يرصـــدون أموالا للتجارة، و كان في ذلك خير للتجـــارة و التجـــار، ليبرز بدورهـم أمراء العلويين بأسواقهم الخاصة سواء كان ذلك بممارستهم الشخصيـــة أو الإستعانـــة بالوكلاء، و من هذه الأسواق، سوق حمزة و سوق إبراهيم [3].

---

1. جودت (عبد الكريم)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..." ، ص.146.
2. نفسه، ص.126.

* الأفلح : بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثالث الأئمة الرستميين من إباضيي تاهرت، بويع بعد وفاة أبيه عام 190 هـــ/ 805 م.

3. حسين (مؤنس)، " تاريخ المغرب و الأندلس"، ج.1، ص.388.

أما الحكم الفاطمي الذي تميز وجوده في أرض المغرب عن بقية الدول الأخرى لم ينحاز عن النمط الذي سبق ذكره، حيث شارك الأئمة في التجارة و استغلوها في خدمة مصالحهم و تحقيق أهدافهم المادية، و أحسن ما يذكر في هذا الصدد المنصور الذي كان يصرح بممارسة التجارة في الحلال الطيب بنفسه، دون أن ننسى احتكارهم لتجارة الذهب. ففي القيروان و المهدية و المنصورة كانت الأسواق مرتبة تحت إشراف رجال البيت الفاطمي، فلكل خليفة أو أمير أو إمرأة من أهل القصر وكيل يتاجر بجزء من أمواله أو أموالها [1].

و مشاركة هؤلاء الحكام والأمراء الرعية في ممارسة نشاطها التجاري يعطينا صورة واضحة عن أهمية هذا النشاط، خاصة التجارة ذات المسافات الطويلة التي كان الذهب السوداني يجلب بواسطتها، و الذي كان سببا من أسباب دخول العديد من الأمراء فيها.

و اختلاف أهداف كل دولة جعلني ألاحظ الفرق الذي بدا واضحا من خلال تحليلي للأوضاع التي عاشها التجار أثناء ممارستهم لهذا النشاط و أكتفي بوضع ملاحظتين حول دولتين، اختلفت فيها أهداف و أساليب التعامل فيها.

فإذا حاولت البحث في ثنايا تاريخ الدولة الفاطمية و حياة التجار فيها أجد أن هذه الدولة مبنية في سياستها المالية على نهب أموال الناس وسلب ما بأيديهم من خيرات بكل الطرق [2]. و لم تكن وسيلتهم الإحسان إلى التجار و تشجيعهم و تأمينهم بل عكس ذلك

---

1. جودت (عبد الكريم)،)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط..." ، ص.126.
2. عبد الفتاح مقلد (الغنيمي)، " موسوعة المغرب العربي"، م.1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994، ص.86.

و مما يؤكد ذلك تعدي الجند الفاطميين على أموال الناس، كتعـدي القائـد أبو مدين ابن فـروخ الهيصي عام 304ه/916م، على سكان قفصـة. إضافة إلى نصالـة ابن حبـوس الذي قام بنهـب كل من نكور، تلمسان، فـاس وسجلماسة [1]. ليبرز نشاط عبيـد الله و اتباعـه من الكتاميـن الذين استخدموا في غزو المدن و القبائل و نهب أموال أهلها. و لم يكتف بذلك بل تعـدى إلى سبي الأطفال.

و من أهم هذه الوقائع ما سجـل في 298هـ/910م، عند مهاجمـة قبيلتي صدينـة وزناتة. إن معاناة طبقات التجار من تمـادي جبـروت الجند الفاطمي يدعـو فعلا إلى الوقـوف عندها و تحليلها حيث لم يسلم كبار التجـار من دسـائس جندها و مؤامرات أئمتها، التي كانت أهدافها مرتبطة بالحياة السياسية و الدينيـة، و أكـبر مؤامرة دبرت في حق التجـار تلك التي سجلت عام 300-301 ه/ 912-913 م حين قام رجـال عبد الله الداعي بقتل أكبر التجـار الأندلسيين في القيروان، صاحب أكبر الفنادق القيروانيـة، و هو جعفـر محمد ابن خيرون العافـري، و الذي استولوا على أمواله [2].

إن إباحة الخلفاء الفاطميين لقادتهم بنهب أموال أي بلد يشكّـون في ولاء أهلـه، وبالاعتداء على دكاكيـن التجـار، أدى في العديـد من المـرات إلى وقـوع قتـال في المـدن [3] بين الطرفين. هذا ما كان يدعو إلى انعدام الراحة و الطمأنينة و التبشير بزوال الدولـة سواء طال الزمن أو قصر.

---

1. حسين (مؤنس)، " تاريخ المغرب و الأندلس"، ج.1، القاهرة، دار مطابع المستقبل، 1980، ص.510.
2. نفسه، ص.509.
3. نفسه، ص.510.

أما بالنسبة لدولة المرابطين فلقد وجدت أن الأمر يختلف تماما، خاصة في عهد يوسف ابن تاشفين و ولده على ابن يوسف حيث كان لحكمهم أثر في ظهور أهمية التجار. و من بين أهم الأعمال التي شجعت التجار على مزاولة نشاطهم، إلغاء الدولة للضرائب الفادحة، و أداء ما عليهم من ضرائب شرعية فقط. إذ أصبح في مقدور التاجر أن ينمي ثروته و يشارك في الحياة الإجتماعية بكل مظاهرها إضافة إلى فتح منافذ جديدة لتسويق المنتجات الزراعية و الصناعية، و تنشيط حركة الصادر و الوارد، و نمو التجارة الداخلية و الخارجية و تأميم طرقها البرية و البحرية من الأخطار التي كانت تتعرض لها [1].

هكذا وبإمكاني القول أنه كان للأئمة الرستميين و الأمراء المرابطين دورا لا يستهان به في إبراز هذه الطبقة من التجار التي ميزت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي، الذين بواسطتهم استعملت السبل إلى بلاد السودان وعمرت المدن و ازدهرت المحطات التجارية التي كان التجار يتوافدون عليها من كل الأقطار.

---

1. حسن (أحمد محمود)، " قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1416هـ/1996 م، ص.349. أنظر أيضا : محمود (السيد)، "تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999، ص110، و عبد الفتاح مقلد (الغنيمي)، " موسوعة المغرب العربي"، م.2، ص ص . 180 و 181.

ج. القافلـــــــــة

يعتبر الاهتمام بتاريخ القوافل التجارية، من أهم الدراســات التي تطرح جملــة من القضايا الاجتماعية و الاقتصادية و حتى الطبيعيــة عند كتابة تاريخ منطقة ما. و إثــارة مثل هذه المواضع بالنسبة لمنطقة المغرب الإسلامي يبدو واضحــا من حيث أهميــة هذه القوافل التجاريــة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقــة.

لأقول أن النشــاط التجاري أصبح مميــزا في التاريخ الإسلامي بالقافلــة وتنظيمهــا، لأن نطاقها لم يبق ضيقا بل توسع و اعتمــد عليهــا في كل الأرجاء التي امتــدت إليها سيادة الدولــة الإسلاميــة. و كما ارتبط مصطلح القافلــة بمصطلح آخر هو الناقــة، هذا الحيوان الذي استطعت أن أحدد لــه و لو باختصار بعض المميــزات التي ساعدته على مقاومــة قسوة طبيعــة الصحراء والتأقلــم معها مشكلا بذلك العنصــر الأساسي الذي به، كتب النجاح للتجارة عبر الصحراء، في هذا الجــزء الغربي من العالــم الإسلامــي.

و قبل أن أبدأ في تحليل هذا الموضــوع أعود و لو بشكل موجــز إلى هذه الكلمــة وما تحمله في ثناياهــا من معــاني، من شانها أن تزيــد الموضوع وضوحــا. إن أصل مصطلح القافلـــة هو القفــول، أي العــودة أو الرجوع من السفــر، و لا يقال للذاهبــين قافلــة [1] حتى يرجعوا. و قال أبن منظــور سميت القافلــة تفاؤلا بقفولها عن سفرهــا الذي ابتدأتــه[2].

1. أبو الحسن (أحمد بن فارس بن زكريا)، "معجم مقاييس اللغة"، (ت : عبد السلام محمد هارون)، م.5، ط.1، بيروت، دار الجيل، 1441 ه/1991 م، 112 ص.
2. ابن منظور، "لسان العرب"، م.5، 139 ص.

إذا كانت القافلة هي الرفقـة الراجعـة من السفر. و العرب سموا القافلـة الذاهبين في ابتداء الأسفـار تفاؤلا بأن ييسـر الله لـها القفـول. فالقافلـة تشمـل حسـب استعمـالات العـرب والمصطلحـات الحديثـة المعنَيـين، الرفقـة والقفـال أي الراجعة من السفر و المبتدئة فيـه [1].

فالقافلـة إذا هي ذلك التنظيم البشرى و المـادي و الحيوانـي الذي لجـأ إليـه التاجـر منـذ فتـرة ما قبـل الإسـلام لبيـع بضاعتـه داخل محيـط بيئتـه أو خارجها وقد ظهـر ذلك واضـحا في كل من غرب آسيا و آسيـا الوسطى [2].

كما ورد ذكر مصطلح القافلة في القرآن الكـريم، و ذلك في قوله تعالى : " لإيـلاف قريـش إيلافهـم رحلـة الشتـاء والصيـف" [3]، إشـارة إلى اعتمـاد عرب قريـش على تجـارة القوافـل وبروز نفوذهم داخل شبه الجزيرة وخارجهـا. و كان لتوسـع العرب شرقا و غربـا، أثر على انتقـال الناقة التي كانت سببا في نجاح و إتمـام مهام هذه القافلـة في كل المناطـق التي استهدفوهـا واستقـروا فيها. ليصبح المغرب الإسلامي بعـد الفتح جـزء من أجـزاء هذه المعمـورة التي عاشـت ، أي توسـع نطاق تربيـة الإبـل وتجـارة القوافـل فيها و التي سنـرى في تنظيمهـا شيئا يوحـي بالشجاعـة و روح المخاطـرة، ودقـة المعرفـة بمخاطـر الصحراء، وحـب المـال والإجـماع على اتبـاع سنة النبي محمد (ص)، بقولـه : "تسع أعشـار الرزق في التجـارة".

---

1. أبي فيض (محب الدين السيد مرتض الحسين الواسطي الزبيدي الحنفي)، "تاج العروس من جواهر القاموس "، م.15، باب اللام، (دراسة و تحقيق شيرتي علي)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 632 ص.
2. زنيبر (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب"، 161 ص.
3. سورة قريش، الآية رقم 1 و 2.

إن التطرق إلى القافلة يقتضي مني الإشارة إلى البدو الرحل، الذين شكلوا فئة اجتماعية ذات أهمية كبرى في جميع البلدان الإسلامية، و التي يعود إليها الفضل في توسع نطاق الفتوحات الإسلامية[1]. لقد شكلت العديد من القبائل البدوية عنصرا أساسيا في نجاح مهام القافلة، التي كانت تعبر الصحراء، و ذلك لتميز هم عن السكان الحضر البادية بالقوة و الشجاعة و السرعة في أداء مهامهم،مما ساهم مساهمة كبيرة في مساعدة التجار المغاربة الذين كانوا يعتمدون عليهم أثناء اجتيازهم الصحراء.

ومن أهم الخدمات التي كانت تقدمها هذه القبائل، الرحل الظاعنة في الصحراء : تأجير جمالها أو بيعها، مرافقة القافلة و السهر على تغذية الجمال بالبحث عن المراعي ذات الأعشاب الخضراء، و تعبئتها وإزالة الأحمال عن ظهورها، إضافة إلي تزويدها بالماء، دون أن أنسى العمل الذي يقوم به الدليل، و الكاشف الذي يسبق القافلة إلى أرض السودان[2]. لتلعب بذلك هذه القبائل دورا فعالا في إتمام مراحل التنظيم الذي تباشر فيه القافلة سواء في المحطات التجارية الكبرى (الموانئ) أو أثناء اجتيازها لمفاوز الصحراء .

و لاكتشاف أسرار هذا الموضوع لابد من الإجابة عن السؤال التالي : ما هي المراحل والمحطات التي تمر بها القافلة في تنظيم سيرها قبل أن تحط رحالها في السودان الغربي ؟ لم تذكر المصادر العربية و لا حتى الغربية كل ما يتعلق بالقافلة التجارية والتنظيم الذي عرفته، قبل البدء في السفر و أثناءه، خاصة فيما يتعلق بالفترة التي هي موضوع هذه الدراسة، سوى تلك المعلومات المشار إليها أثناء التعرض إلى وصف التجارة الصحراوية، و التي -بالرغم من قلتها -سمحت لي أن أضع تصورا عله يحقق ما كنت أرجوه من جواب. ففي المرحلة الأولى لهذه القافلة وجدت أن السفر ينطلق في زمن معين و في مكان محدد، و في هذا يقول الإدريسي : " أن القافلة تنطلق في سيرها في زمن الخريف" [3].

---

1. انظر : REY (R.C.), « Nomade et nomadisme au Sahara », recherches sur les zones arides, UNESCO, 1963, p 13.
2. زنيبر (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، 181 ص.
3. الإدريسي، نفس المصدر، ص.107.

أما بعض الدراســـات الغربيـــة فتشير إلى أن القافلـــة تجتاز الصحـــراء في فترة الشتاء [1]، و ما استنتجتـــه هو أن هذه القافلة لا تقطـــع الصحراء في فصل الربيع أو فصل الصيف لعدة أسباب منها : تفادي مخاطر الصحراء الطبيعيـــة التي تكثر فيها الرياح الموسميـــة في نهاية فصل الربيع و بداية فصل الصيف (مثل الشهيـــلي و السيـــروكو) [2]، و التي تتسبب في زوابع رملية مهلكـــة للإنسان و الحيوان معا، إضافة إلى ارتفاع درجـــة الحرارة التي تفوق قـــدرة تحمل الإنسان. أما فصل الخريف،نجـــد فيه انخفاضا في درجة الحرارة مع ضمان وجود الكلأ للإبـــل التي تتشكل منها القافلـــة.

أما مكان الانطلاق، فهو ذلك المستودع أو الميناء أو المحطـــات الصحراويـــة الكبرى، التي هي عبارة عن مدن استقبلت البضائـــع و القوافل معا في اتجاه الشمال و الجنوب، لتصبح بذلك أهم المحطات التي تلتقي فيها قوافل الشمـــال بمختلف أصناف التجار المغاربة، قبل بداية الرحلة باتجاه أرض السودان. و من مثيلات هذه المحطات التي برزت في تاريخ تجارة القوافل عبر الصحراء، مدينـــة سجلماســـة غربا و ورقلـــة في الوسط و غدامس شرقـــا.

يصل تجار الشمال من القاهرة، إفريقيـــا، تاهرت، تلمسان، طرابلس و فاس، إلى هـــذه الموانئ من أجل استكمال التحضيـــرات الأخيرة للبدء في اجتياز المجابـــات الصحراوية الكبرى[3]. و يكون هؤلاء التجار قد حضروا لهذه التجارة على أساس المعلومات التي وصلتهم من مدن السودان بتحديد النوعية و الكمية و السعر قبل سفرهم. هذا ما يدفعني إلى القول أن البضائع التي كانت تصدر إلى السودان لم تكن عشوائية ، بلكان يتم انتقاؤها بشكل منظم يأخذ بعين الإعتبار متطلبات السوق السودانية و حاجيات السكان عامة. ومما يدل على أن هذا التنظيم لا يختلف كثيرا عن التنظيم التجاري الذي تعرفه أسواقنا اليوم.

---

1. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique de l'Ouest africain…», 401 p.
2. العربي (اسماعيل) " الصحراء الكبرى و شواطؤها"، ص 16.
3. أنظر : GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara », p.197.

خلال هذه المرحلة يبدأ التجار في الاهتمام بلوازم السفر كشراء الجمال، و المـؤن و القرب لنقل الماء التي كانت من أهم العناصر التي ميزت هذا السفر. بالنسبة للجمال، لاحظت في ذكر المواصفات الفيزيولوجية للجمل، أن كبر حجمه يساعده على تحمل الحرارة وثقـل الحمولة بالموازاة مع السرعـة التي يجتـاز فيها هذه المفـاوز. لذا تلجأ قبائـل البدو إلى الاهتمام بالجمال وتسمينها ثلاثة اشهر قبل انطلاق القافلة لكي تكون في كامـل قواها الجسمانية قبل السفر[1]. هؤلاء التجار الذين يشاركون بأنفسهم في السفر أو تعيين وكلاء لهم لنقل البضاعة إلى السودان، يقومون أيضا و بشكل جماعي باختيار الدليل أو المرشد الذي تهتدي به القافلة المتوجهة من سجلماسة إلى أودغشت، و يكون من عناصر تلك القبائل التي مارست الدلالة، وهم من أهـل البدو و لهم من الجرأة و القوة والمعرفة بأحوال الصحراء ما لا يتوفر لغيرهم و منها قبائل مسوفـة [2]. ولها الاحتكار الشبه الكلي للطرق المتوجهة من سجلماسة جنوبا، و أنهم "سادة الطريق، و التجار يدفعون لهم حقوق" [3].

و يقول لمبارد موريس : " أن دبلوماسية كبار التجار تؤدي إلى عقد معاهـدات مع البدو الرحل أسياد الصحراء، من أجل حمايـة القافلة طوال الرحلة؛ طبعـا حمايتهـا من الاعتداءات و نقص المـاء. و من هذه القبائـل على غرار مسوفـة، نجد لمتـة، لمتونـة وجزولـة [4].

أما النقطة الأخيرة في هذه المرحلة تتعلق بتعيين الدليل من النوع الثاني، هذا الدليل لا يرافق القافلة، بل يستبقها إلى أرض السودان و يختار من نفس القبائل التي تمتاز بالقوة و المعرفة لطرق الصحراء و مجـاباتها.

---

1. أنظر: MAUNY (R.), « Tableau géographique… », 401 p.
أنظر كذلك : OULD BAH (A.), « Les villes anciennes de Mauritanie et leurs rapports avec le commerce au moyen âge » in « Histoire du Sahara et ses relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest africain», actes du IV^{e} colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986, p.117.
2. أنظر : LOMBARD (Maurice), « Les métaux dans l'ancien monde du V^{e} au XI^{e} siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton et Cie, 1974, p.223.
3. أنظر : MAUNY (R.), op.cit, p.400.
4. أنظر : LOMBARD (M.), op.cit, p.223.

و قد تطرق ابن بطوطة إلى هذا الدليل في قوله : " أن التجار كانوا يستعينون بالتكشيف"* (1). هذا الكشاف هو الذي يقوم بحمل الرسائل التي يرسلها التجار إلى أصحابهم، ليكتروا لهم الدور و يخرجوا للقائهم بالماء. و بعد إتمام تحضير كل الضروريات يبدأ الانطلاق في السفر، و تعتبر هذه المرحلة أصعب مرحلة تمر بها القافلة بعد أن نظمت نفسها بشكل دقيق مسبقا.

في المرحلة الثانيـــة و التي تهتم بالسفر بعد انطلاقه، تكون القافلـــة قد استوفت كافة الشروط الضرورية لاجتياز الصحراء. أثنـــاء خروجها من سجلماســـة أو غيرهـــا من الموانئ الصحراويـــة كورقلـــة وزويلـــة تكون القافلـــة محملـــة بالبضائـــع المغربيـــة والمشرقيـــة في سفر يدوم شهريـــن يشترك فيه مئات المسافريـــن. و هنـــاك من القوافـــل من يصل عـــدد جمالها إلى عشـــرة آلاف (2).

و تتنوع جمال القافلـــة الواحدة من جمال مخصصـــة لحمل البضائع، و أخرى للمؤونة و الماء، و الباقية للركوب. كما لا يختلـــف عدد هذه القافلـــة عن ذلـــك الذي ذكره لومبار موريس نقلا ابن خلـــدون في فتـــرة متقدمـــة مشيرا إلى : "أن القافلـــة المتوجهة من القاهرة إلى السودان بلغ عددها جمالـــها خلال القرن الرابـــع عشر أثنى عشـــر ألف جمل (3). أما إذا عدنا إلى القرن الثاني عشر، فإن التجار كانوا يسوقون في تجارتهم ما بين سبعين إلى مائة جمل (4).

---

* التكشيف : اسم يطلق على كل رجل من مسوفة، يكتريه أهل القافلة على حد قول ابن بطوطة، للقيام بتسهيل الرحلة للقافلة وتحضير وسائل الراحلة لها في المحطات التي يترلون بها.

1. أنظر : أبن بطوطة (أبو عبد الله محمد الطنجي)، " تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار"، ج.1، المكتبة التجارية الكبرى، ص ص . 192 و 193.
2. أنظر DEVISSE (J.), « Sidjilmasa », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes », 1986, p.127.
3. أنظر LOMBARD (M.), op.cit, p.225.
4. زنيبر (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، ص 182.

لن أكون مبالغـة إن حاولت تحديد العدد بين ثمانيـة آلاف إلى اثنتي عشر ألفـا بل أكثر بالنسبة للطريق الغربي الذي يمر بسجلماسـة، و حجتي في ذلك ما عرفته تجارة الذهب من ازدهـار و إقبـال كبيـرين لكل دول المغرب و المشرق، إضافـة إلى اهتمام كل القبائـل الصحراويـة بكافة المحطات التجاريـة التي تستقبلـه، و العناية الكبرى بالجمل الذي أصبح يشكل سفينـة لا مثيل لها في مثل هذه الظروف. و لتحديد فترة الرحلة أقول أنه نظرا لأهمية البضاعـة التي كانت القافلـة تشد الرحال من أجلهـا، أي جلب ذهب السودان عند انطـلاق القافلـة في رحلتها يجب أن تكون الفتـرة المحددة لذلك هي وقت السحـر، و تستمر حتى طلوع الشمـس واشتداد حرهـا، لتتوقف في وقت العصـر ثم تستأنف المسيـر إلى أن يحـل الظـلام، لتبـدأ الرحلـة من جديـد عند بزوغ الفجـر [1].

لقد ذكر الإدريسي هذه العملية بشكل واضح مشيرا إلى أن هذه الطريقة هي نمط " سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان، لأن الشمس تقتـل بحرّها من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ و حرارة الأرض" [2]. و نظرا لصعوبة المسلك باتجاه بلاد السودان كان اختيار فترة الرحيل من أهم الأمور التي كان التجار يولونها اهتماما كبيرا من أجل تفادي المخاطر واجتياز الصحراء بأمان. و الإشارة البسيطة التي ذكرها الإدريسي، أعطت توضيحا دقيقا للفترات الزمنية التي كانت القافلة تحددها لبداية السفر أو توقفه، كما فتحت مجالا واسعا لفروع دراسة تعتبر أساسا في حركة القوافل في الصحراء. هذه الدراسة تتمثل في علم الفلك الذي كانت مبادؤه معروفة عند العرب الحضر، أما البادية فاقتصرت على ما توارثته الأجيال بما يدرك بالعين، فكانت للعرب اهتمامات بالغة بعلم الأنوار لمعرفة حال الجو، وتساقط المطر التي تحيي الأرض، التي تتغذى منها إبلهم و ماشيتهم التي التي تقوم عليها حياتهم، إضافة إلى صلة هذا العلم الوثيقة بالنجوم، فكانوا يتأملون النجوم في السماء الصافية بالصحراء للاهتداء بها و لمعرفة أوقات الرياح [3]. خاصة

---

1. شنايت (العيفة)، "دولة بني مدرار سجلماسة و دور تجارة القوافل في إزدهارها الحضاري"، بحث لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، 1991/1990م ، ص 146.
2. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ص.108.
3. عرابي (سمير)، " علوم الفلك و الرياضيات و الجغرافيا عند العرب و المسلمين"، ط.1، دار الكتاب الحديث، 1419 هـ/ 1999م، ص.7.

تطلع أهل البادية إلى معرفة الكواكب الكبرى الثابتة، و مواقع طلوعها و غروبها، لأنهم كثيرا ما أظطروا إلى قطع الفيافي و القفار ليلا مهتدين برؤية الدراري، فلولاها لظلت جيوشهم و هلكت قوافلهم في الكثبان و البراري. و يؤكد ذلك في قوله تعالى " و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر و البحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " (1) . و من بين أسماء الكواكب الثابتة التي كانوا يهتدون بها و التي بلغ عددها عند عرب البادية نحو أكثر من مائتي و خمسين كوكبا "الفرقدين" – "الدبران" – "الثريا" – "الشعريين" (2).

و إذا كانت القافلة تهتدي ليلا بالنجوم أي بالاعتماد على الكواكب الثابتة فلقد وجدنها تهتدي نهارا بنجم آخر يسمى الشمس و الذي ارتبط ضوءه بتحديد مواقيت الصلاة والذي كان عرب البادية يعرفونه جيدا. و من بين أهم الأوقات التي كانت تعتمد عليها القافلة في سيرها وقت السحر، أو وقت الفجر، وقت الزوال أو القيلولة أو القائلة كما ذكرها الإدريسي (3) ثم فترة العصر. و لتحديد هذه الفترات فقهيا، اعتمد الأستاذ بوناطيرو* على معطيات الشيخ العلامة محمد بن أحمد ميارة ** قائلا : "أن وقت العصر يبدأ بانتهاء فترة الذهر أي عند نهاية ظل العمود بفترة تكفي قضاء صلاة أربع ركعات. أما بالنسبة لوقت صلاة الفجر فيبدأ بالضبط عند ظهور الخيط الأصفر الذي يلي مباشرة الخيط الأبيض*** من الفجر". و الملاحظ هنا حسب قول الأستاذ بوناطيرو دائما أن هذه الطريقة الفقهية المتبعة في تحديد مواقيت الصلاة، غير معمول بها اليوم، لأن التعاريف المعمول بها لتحديد وقت غروب الشمس و شروقها لا يعود إلى ظاهرة بزوغ نور الشمس أو إختفاءه و إنما يعود إلى ظهور سلسلة من النجوم، كل حسب قوة ضياءها. و من أمثلة ما قدم الأستاذ بوناطيرو، أن وقت صلاة العشاء مثلا يعلن عنه مؤخرا بفارق زمني يختلف من فصل إلى آخر ففي فصل الشتاء يعلن عن صلاة العشاء بعد عشر دقائق من وقتها الفقهي، أما في الصيف فيعلن عنها بعد خمسة و ثلاثين دقيقة، و هكذا بالنسبة لصلاة الفجر.

---

1. سورة الأنعام، الآية 98.
2. نلّينو (كارلو)، " علم الفلك – تاريخه عند العرب في القرون الوسطى- "، روما، 1911، ص.107.
3. الإدريسي، المصدر السابق، ج.1، ص.108.

* الأستاذ بوناطيرو لوط : باحث في علم الفلك، و مدير المرصد الوطني لعلم الفلك ببوزريعة/الجزائر.

** من أتباع المذهب المالكي و هو صاحب كتاب " الدار الثمين و المورد المعين"، الذي تناول فيه مواقيت الصلاة فقهيا.

*** الفارق الزمني بين الخيطين أي الأبيض و الأصفر عشر دقائق. و نعني بالخيط، الضوء. و عن تحدي مواقيت الصلاة كاملة أنظر الملحق.

و يمكنني من خلال ما سبق ذكره، أن استنتج أن علم الفلك كانت له أهمية معتبرة في المعارف التي كان يتزود بها التاجر أو الدليل أو رجل البادية. كما كان علم الفلك من أهم العلوم التي أعطت للوقت قيمته و أعتطت للحياة نظامها. و مازال العديد من الدارسين يبحثون عن السبل الحقيقية لهذا العلم الذي مازال يخفي أسرارا كثيرة عن القافلة و كيفية تنقلها في الصحراء خاصة في فترة العصور الوسطى أي فترة ازدهار العلوم الإسلامية التي أعطت لهذا العلم قاعدة رياضية وفزيائية يصعب إهمالها. لتبقى هذه المعلومات الفلكية إحدى العوامل التي سهلت مهمة التجار في نقل بضائعهم، و عدم معرفتها يدفع التجار إلى مواجهة مخاطر الصحراء العديدة.

لم تنكـــر الحوادث اليومية التي تعيشهـــا الصحراء الكبرى هذا الواقع، عندما يشار إلى فقدان السيـــاح بظل الطريق و هلاك الأشخـــاص إمـــا من شدة الحرّ و جفاف الجســـم أو مما يسمى بالضربـــات الشمسية التي أكد العلـــم الحديث أن جسم الإنسان لا يقوى فعلا على مقاومـــة الحرارة الشديـــدة، و لا شدة العطش أو الزوابع الرملية المهلكة، دون اللجـــوء إلى أي شكل من أشكال الوقايـــة.

من الروايات التي أشارت إلى عملية الوقاية إضافة إلى التي ذكرها البكري، أن التجار كانوا يسافرون في "خيم من الجلد" لكي لا يختنقوا من تلك الزوابع الرملية الشديـــدة[1]. والاعتقاد يدفعني إلى القول أن هذه الخيـــم هي التي يطلق عليها بالعربية اسم "الهـــودج".

---

1. أنظر. MAUNY (R.) , « Tableau géographique… », p .403.

و لم تتوقف مخاطر الرحلات عبر الصحراء على ما ذكر سالفا، بل تعداه إلى غارات القبائل الصحراوية التي تكون سببا في تعطيل القوافل.[1] و بما أن معظم هذه المسافة عبارة عن مفاوز قليلة المياه و المراعي، أي عبارة عن كثبان رملية واسعة، غالبا ما تشكل مأوى للمعتدين الذين ينظمون غارات مفاجئة على القوافل التجارية [2]. و تجرد بذلك من محتويات ثرواتها، وغالبــا ما يحدث هذا أثنـــاء العودة، أي عندما تعود القافلة و هي محملة بالتبر.

و من الروايات التي تثير الانتباه أيضا، تلك التي ذكـــرها موني "MAUNY" نقلا عن تاريـــخ الفتـــاش : " أن تلك الغارات كانت تتم بعد باختفاء المغيرين داخل البئر، و قطـــع حبل الدلو ليحرموا القافلة من التزود بالماء و بالتالي هلاكها بالعطش، ثم يتم السطو على ممتلكاتهـــا " [3]، هذا ربما ما أدى إلى التخلي عن هذا الطريق حسب نص ابن حوقل حين يقول : " و فيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم و مفردهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة. وقصدهم أيضا العدو و أهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة" [4]. لذا أجد أن مسئولية الدليل، كانت صعبة و مهمة في آن واحد، أي أن ينجح في اختيار المسلك الصحيح و في اجتياز الصحراء دون تسجيل حوادث تعود بالخسارة على القافلة، و أن يحط الرحال في المناطق ذات المراعي الكثيفة و أن ينتقـــل بين المناطق التي تحتوي على الماء، دون تعريـــض القافلـــة إلى أية عملية تثقل من تكاليف السفر، كذبح الجمال أو سرقة الثروات أو ضياع جزء من القافلة بسبب التيـــه في الصحراء. و في هذا الصدد كذلك يقول ابن حوقل : "من أوصاف هذه القبائل، المعرفـــة بأوضاع البر وأشكاله والهدايـــة فيه و الدلالة على مياهه" [5].

---

1. زنيبر (محمد)، نفسه، ص 182.
2. أنظر.LOMBARD (M.), « les métaux dans l'ancien monde... », p.223
3. أنظر.MAUNY (R.) , « Tableau géographique... », p 402
4. ابن حوقل، "صورة الأرض"، ص .98.
5. نفسه، ص.98.

و من الظواهر الطبيعية التي كانت القافلة تتجنبها أثناء اجتيازها لمفاوز الرمال المتحركة، و لا نستغرب أمرا كهذا في الصحراء الكبرى، خاصة و أنها تشكل جزء من مميزاتها الطبيعية و الخطيرة، والتي يعرفها البدو الرحل و تجار القوافل. و لقد دفعني التفكير في هذه الظاهرة ما ذكره البكري حينما وصف الطريق الممتدة من تامدلت إلى أودغشت قائلا : "من تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة و هذه البير عمقها اربع قامات من أنباط* عبد الرحمن بن حبيب و منها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة" [1].

هذا النص يؤكد انحراف القافلة عن طريق الرمال الواسعة و لجوئها إلى الممرات الضيقة و الصعبة المسلك، خاصة عندما يقول : " ثم تسير في جبل يسمى أزور ثلاثة أيام وهو محجر تحفى** فيه الإبل " [2].

و هنا يدفعني الأمر إلى التساؤل عن الأسباب التي دفعت القافلة إلى أن تسلك هذا الطريق بالرغم من كونه محفوفا بالمخاطر، تؤثر على الإنسان و الإبل معا ؟ و الجواب عنه يدفعني إلى الاعتقاد أن السبب يعود إلى أن هذا المسلك يعتبر الوحيد الذي يؤدي إلى أودغشت أو لأن مخاطره يمكن تفاديها مقارنة بمخاطر الرمال المتحركة، خاصة و أن الدراسات العلمية المختصة بالجمل اكتشفت أن هذا الحيوان عديم الذكاء، اعتمادا على عدة ملاحظات أشارت فيها إلى وضع الإبل التي تقع في شراك الرمال المتحركة دون أن تعمل على تفاديها كبقية الحيوانات الأخرى. فالبرغم من رؤيتها لأول حيوان يقع فيها، إلا أنها لا تبذل أية محاولة لتجنب ذلك [3].

---

* هي الآبار التي بناها عبد الرحمن بن حبيب.

1. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب"، ص.156.

** أي أن أظلاف الإبل تصبح طرية و غير صالحة للسير، هذا ما يجبر القافلة على التوقف لمدة يوم أو يومين لمعالجتها، لأن علاج الأظلاف يتم باستخدام القطران و قشور الرمان.

2. البكري، نفسه، أنظر كذلك دوفيس DEVISE (R.) « Tegdaoust – Recherches sur Audaghust- », T.1, par DEVISE (R.), SERGE (R.) et DEVISSE (J.), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1970, p.33.

3. محمود (محمد عبد العزيز)، " الجمل العربي "، ص.42.

من المعقول جـــدا أن تتعــرض هذه القافلـــة إلى مثل هذه المخاطر و هي في طريقها إلى الســـودان مجتـــازة المفاوز الكبرى، و السبـــب في ذلك يعود أولا إلى اجتياز هذه الرقعـــة الجغرافيـــة، التي كثيرا ما أثارت مخاوف المغامرين و التي كانـــت دائما توحي بروح المخاطرة والمغامـــرة، إضافـــة إلى المدة الزمنية التي تقضيها القافلـــة في رحلتهـــا، و هي شهرين كامليـــن حسب قـــول لومبارد "LOMBARD"، تكون فيها سرعة الجمـــل من 3 إلى 3.5 كلـــم/سا. لتقطع بذلك القافلـــة مسافـــة 35 كلم يوميـــا. أما المهري* الذي يخصص للتكشيف يقطع مسافة 120 كلم يوميا. هذا ما يجعلـــه يسبـــق القافلـــة إلى أرض الســـودان [1]. و نعرف اليوم أن المسافـــة التي تربط بين تافيلالت و جنوب موريطانيا إلى غاية السينغال و مالي والنيجـــر، تعـــد بآلاف الكيلومترات لـــذا لا يجب على المـــرء أن يتعجـــب عندما تحـــصى مثل هذه المخاطر في مثل هذه البيئـــة، بقدر ما يستوجب التعجـــب من أولئك الذين اجتازوا هذه المفـــاوز.

و عن الأسباب التي دفعتهـــم إلى اجتياز هذه المخاطـــر، فإن كان الهدف هو الحصول على الذهب، لا يصعب علي مقارنتهم بأولئك الذين يخاطـــرون اليوم بحياتهم من أجل الكسب السريـــع، لكن هناك اختلاف كبير، و هو أن تجار البربـــر و العرب اندفعوا تحت راية الإسلام من أجـــل الكسب وفق نصـــوص هذه الشريعـــة، أما الكسب اليـــوم فهو مبني على أسس الحضارة الماديـــة التي جردت التاجـــر من كل الأخلاقيـــات التي فرضهـــا عليه المجتمـــع و مبادئ دينه الحنيف.

---

* اسم من الأسماء التي تطلق على الجمال، و المهرية، وهي المنسوبة إلى مهره ميدان و هو شيخ قبيلة. و من أهم هذه الأسماء : عايش وهو المستخدم في الحروب، و راحلة لنقل البضائع، و الهجن هو الجمل المستخدم في الركوب و السباق. كما يطلق على قافلة من الإبل أو مجموعة منها "القطار". و يعني هذا الإسم الحركة التجارية التي يقوم بها البدو على ظهور الجمال.

1. أنظر LOMBARD (M.), « les métaux dans l'ancien monde... », p.224.

أما آخر مرحلة فتبدأ بدخول القافلة أرض السودان، تكون فيها القافلـــة قد اجتازت كل المخاطر كما تكون قد دفعت الحقـــوق للقبائـــل المشرفـــة على المسالك، و قللت من عدد جمالها التي نحرت و بقرت بطونها لشرب ما في بطنهـــا من الماء بعـــد أن قل في الآبـــار و جف ما في القرب.

هذه المرحلة التي تبـــدأ بتحضـــيرات سكـــان مدن السواحل، مثل أودغشـــت التي تكون في انتظار القافلـــة بشغف و سرور، لما تحمله هذه القافلـــة من بضائع تبهر الناظـــر. بضائـــع الشمـــال التي ينتظرها السكان الســـودان لمدة سنة كاملـــة، الذين لا يتركون هذا الحدث يمر دون الاحتفال به باستخـــدام الطبـــل[1]. هذه الوسيلـــة التي أصبحـــت تميز تجارة الذهب داخل إفريقيـــا[2]. و على مشارف الصحراء. هذا الاستقبال يتم على مسافـــة أربعة أيام على المدن الساحليـــة و يتم من أجل استقبال القافلـــة، بالماء، وما هؤلاء المشكليـــن لموكب الاستقبـــال و المنظمين للاحتفـــال، إلا أصحـــاب تجار الشمـــال الذين يكون الدليل (التكشيف) قد أخبرهم مسبقا.

بعد دخول أرض الســـودان، و بعد رحلـــة دامت شهرين كاملين، تنقسم القافلة إلى قسمين، وهناك من يواصل الرحلة جنوبا إلى غاية مستودعـــات الذهب. و هناك من يواصل الرحلة من التجار ووكلائهم إلى الجنوب في مسيرة تستغرق 20 يوما، أي إلى غاية السينغال مثلا للمقايضة مع السكان المحليين، وهم عراة يعيشون في حفر* في الأرض. و تتم هذه العملية بواسطة التجارة الصامتة [3]. وهنـــاك من يبقى ينتظـــر في تلك المراكـــز التجاريـــة، (أودغشت، كومبي صالح، جاو)، إلى غاية عودة الوكلاء[4].

---

1. أنظر LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde .. », p.224.
2. أنظر MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p.403.

* و هي المواضع التي كانوا ينقبون فيها عن الذهب، عن هذا الموضوع، أنظر بوفيل "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.151 و 152.

3. حسن (ابراهيم حسن)، "انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية" .ص.75.
4. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير" ،ص.150.

لتعود القافلـــة فيما بعــد، أي بعد إتمـــام كل الصفقات التجاريـــة إلى مدن المغرب محملة بالتبر و البضائع الأخرى. لكن هذه المرة في مدة زمنيـــة أقل، أشار إليها حسن إبراهيم حسن أنها تصل إلى شهر ونصــف[1]. كما يتقلص عدد جمال هذه القافلـــة حيث يكون أقـــل بكثير من عددهـــا ذهابـــا، لأن التجـــار كانوا يبيعونها تفاديا لتكاليف رعايتهـــا[2].

عندما تطرقت إلى دراسة المرحلة الأخيرة من الرحلة التي تقضيها القافلة في أرض السودان راودتني أسئلة تتعلق بكميات الذهب التي كانت تنقلهـــا القافلـــة أثناء عودتها مقارنـــة بضخامة حجمها ذهابا و تقلصه إيابا، هذا ما اقتضـــى مني التطـــرق إلى هذا العنصر في أحد فصول هذه الدراسة. لتكون بذلك القافلة قد حققت نجاحـــا كبيرا في خلق هذا النمط من التجـــارة عبر الصحراء بشكل يستدعي العنايـــة أكثر من طرف البـــاحثين، لأن المعلومات المتواضعة التي ذكـــرت في هذا التحليل ما هي إلا بدايـــة لدراســـات تشعبت ميادينهـــا وتنوعت مواضيعها.

---

1. حسن (ابراهيم حسن)، "انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية" .ص.75.
2. أنظر : LOMBARD (M.), « les métaux dans l'ancien monde... », p.223.

3. الفتـــوحــــات الإسلاميـــــــة

ا. الفتـــح الإسلامـــي للمغـــرب

اكتمل الفتح و تحقق النصر بشرطين أساسيين و هما إرادة الله التي شاءت أن يخرج الإسلام من مكة لبلوغ أهداف لم يسبق أن حققتها أي ديانـــة سماويـــة من قبل، و تعاليم القرآن الإنسانية التي جعلت من القائد الفاتـــح ذلك الحريص على رسالة حاول إبلاغ مضمونها بكل ما يملكه من شجاعة و قوة و حنكـــة حربية و حسن الخلق. ليكون الرســـول (ص) السبّاق في الاتصاف بهذه الخلق التي كان الإســـلام لا ينشر إلا بها و لا يستقر إلا على أسسها، لأن الإسلام هو النعمة التي أتمها الله على عبـــاده فكيف بإمكانه مخالفـــة مواصفات الإنسانيـــة المثلى.

هذه النعمة التي أتمها الله على العرب بعد فتح مكـــة، أتمها أيضا على البربر بعد فتح شمال إفريقيا، التي أخذت من عقبـــة قدوة ليبلغ الإسلام قلوبهم، فقرة إيمان عقبـــة الذي وهب نفسه للإسلام مع أصحابـــه لم تزد البربـــر إلا انفتاحا و ميـــلا لهذا الدين الجديد الذي بسماحته وبساطته و إنسانيته اطمئن له القلب و ارتاح له البال و فتحـــت له أبـــواب مغفرة الله و ثواب الآخرة بدون مقابل عكس الديانات الأخرى [1].

---

1. مؤنس (حسين)، "الإسلام الفاتح"، ط1، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1408 هـ/1987م ، 22 ص.

عدم فهم العديد من الناس و القراء لهذه الحقيقة، جعلهم يسلمون بفكرة أن فتح شمال إفريقيا لم يتحقق بفعل الاندفاع الذي يسببه الحماس الديني، بل بمجرد رغبة الفتح[1]. وكثيرا ما يواجه الباحث مثل هذه الأحكام التي تصدرها العديد من الدراسات الغربية بشأن بعض النصوص العربية التي تشير إلى المراحل التي تم فيها فتح شمال إفريقيا. فتراجع بعض الفاتحين إلى الوراء أو حصولهم على غنائم ما هي إلا وسيلة من الوسائل التي أستمدها الإسلام قبل البدء في المراحل الحاسمة لفتح العديد من الأقاليم و التي بإمكاني أن أسميها بمراحل جس النبض.

لم يكن بناء قاعدة الفسطاط الجديدة من طرف عمرو بن العاص إلا سببا من أسباب فتح برقة، لتامين هذه القاعدة و حماية المكاسب العربية بمصر، و لم يكن توقيف الخليفة عمر لمواصلة عملية الفتح، سوى خوفا على مصير المسلمين في أرض مجهولة[2]، و تأكيدا على أن الفتوحات الإسلامية لم تكن جزافية، ليس من باب خدمة مصالح القادة الفاتحين و لكن من باب توطيد الأركان الصحيحة لعملية الفتح. أما مصالحة ابن أبي سرح بطريق إفريقية على ألفي ألف دينار وخمس مائة ألف دينار[3] مقابل انسحابه سنة 92 هـ/710 م تدخل في إطار حملة الغنائم[4]، التي أكسبت بيت مال المسلمين أموالا طائلة.

و كان لنجاح الفتوحات الإسلامية لأقطار المغرب حوالي سنة 750 م أن جعلها تحت سيطرة العرب بالرغم من وجود بعض المعارضات من طرف الأهالي[5]. هذا النجاح الذي يرجعه البعض إلى ظروف البلاد و إلى طبيعة المسيحية فيها و إلى طبيعة أهلها ثم إلى سياسة الدولة الأموية التي أتمت الفتح و أدخلت البلاد في نطاق الدولة الإسلامية[6].

---

1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير" ط.2، (ترجمة الهادي أبولقمة و محمد عزيز)، منشورات جامعة قار يونس، بن غازي، 1988، ص. 115.
2. لقبال (موسى)، " المغرب الإسلامي"، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1981، ص. 18.
3. البلاذري (أحمد ابن يحي جابر)، "فتوح البلدان"، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1956، ص .268.
4. لقبال (موسى)، نفسه، ص.21.
5. أنظر : DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique Occidentale française », 2e éd. Paris, Librairie Delagrave, 1937, p.50.
6. حسن محمود (أحمد)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، حسن محمود (أحمد) و حسن محمود(منى)، ط.1، القاهرة، 1419هـ / 1999م، ص.75.

كما نجـــد أن بعض الباحثين قد رد سهولة فتـــح شـــمال إفريقيا إلى عوامل عـــدة اكثر تفصيلا من سابقاتهـــا، فمنها الحضاريـــة، انطلاقا من مفهوم أن العـــرب بدو، ومن شأن البـــدو التغلب على الحضارة.

أما العوامل البيئيـــة تتمثل في التقارب و التشابـــه بين بيئـــة العرب الفاتحـــين وبيئة المغرب و إفريقيا، حيث لم يواجهوا أي حاجز من شأنه أن يعرقل عملية الفتح التي انطلقوا فيها، إضافة إلى العامل الاجتماعي الـــذي رأى فيـــه العرب رابط النسب، و الصلـــة مع البربـــر، مما سهل عليهم الاندماج الاجتماعي دون أن أنســـى العامـــل النفسي أو العنصـــري اللذين كان لهما أثر في تسهيـــل عملية الفتـــح[1].

من البساطة أن يحكم على هذه العوامل أنها شـــيء بديهـــي يحـــدث و الأقاليم التي تفتـــح، لكن بالنسبة للمغرب هناك ما يميزه خاصة إذا حاولت إدراج العامل الاقتصادي هذا العامل الحساس الذي جعل الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب تسيل الحـــبر الكثيـــر، عندما تقترن هذه العبارة بمصطلـــح الغنيمة أو الثروة، حيث تصبح المحـــرك الأساسي لمعظم عمليات الفتح التي عاشتها المنطقة، و أكثر من ذلك عندما يتعلق الأمر بفتح السودان.

وإن حاولت طرح هذه المسألة أجد نفســـي بين نصـــوص تؤكد من جهة أن فتح شمال إفريقيـــا لم يكن سوى مرحلة من المراحل التي مرت بها عملية نشر الرسالة المحمدية ونصوص غربية من جهـــة أخرى، التي وضعت تصـــورا كامـــلا لأسباب فتح المسلمين للسودان الغربي، هذا التصور الذي يتمثل في أن المسلمين الفاتحين كانوا يعرفـــون مسبقـــا ثروات الســـودان الغربي التي تشمل معدن الذهب، لتفسر بذلك حملات الفتح التي شهدتـــها هذه المنطقـــة على أنها تهدف إلى الاستيلاء عليها و استغـــلال ثرواتها لصالح المسلمين.

---

1. الكعبي (المنجي)، "أسباب توطيد الإسلام بإفريقيا و المغرب"، "مجلة الثقافة"، السنة الرابعة عشرة، العدد 84، 1984، ص ص. 55 و 57 .

وهذا ما فسره الباحثـون عند دراسـة العامل الاقتصـادي و هو أن البدو ، كغيرهم ،عندما يكونـون في جفـاف و فقـر، يبحثـون عن ثروات و عن خيرات، ليبرز بذلك الدافـع الاقتصادي القوي على حساب الدافـع الديني الضعيـف و كأنـما ليـس هو الأسـاس[1].

و من الصعب إصدار مثل هذه الأحكـام على دخول الإسلام إلى إفريقيا والسودان الغربي خاصة لأن ذهب السـودان لم يكن السبـاق إلى خـزائن المسلمين حيث كان هناك ذهب مصر و سوريا و بـلاد فارس، و كنـوز الكنـائس و الأديرة و المقابـر الفرعونيـة القديمة إضافـة إلى استغـلال المسلمين للمناجم القديمـة بآسيـا (لقوقاز، أرمينيـا، سواحل الهنـد، إفريقيا الشرقيـة و النوبـة) [2].

ب. الفتـح الإسـلامي للسـودان :

إن الكـلام عن السودان و فتحه، يدفعني للعـودة إلى أول احتكـاك للعرب بهذه المناطق (السـودان الغـربي)، و هذا انطلاقا من نظريات مؤكـدة سلمت بها كل الدراسـات العربية منها والغربيـة، على أن معرفة جنوب الصحراء لم تأت إلا على يـد العرب[3].

لكن قبـل مجيء العرب فتحـت الصحـراء أبوابها للبربـر بعد دخول الجمل إلى شمـال إفريقيا انطلاقـا من القرن الثانـي بعد الميلاد لتشهـد بعد ذلك تربيـة الجمـل توسعا لا مثيل له، على يد قبائل لمتـة، لمتونـة، جزولـة، و الملثمـون[4]. هذه القبائـل البربريـة التي عرفنا كم كان لها دور كبير في توسيـع نشـاط تجارة القوافـل عبر الصحـراء و ربـط شمال إفريقيـا بالصحـراء الكـبرى، خاصـة الجـزء الغـربي منهـا المتمثل في السـودان.

---

1. الكعبي (المنجي)، نفسه، 56 ص.
2. إسكندر (توفيق)، " بحوث في التاريخ الإقتصادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، المقدمة، ص.4.
3. زنيبر (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب "، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ/ 1984 م، ، 165 ص.
4. أنظر : LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », 207 p.

هذا ما يدفعني إلى ذكر الدور الذي لعبه المرابطون في فتح السودان و نشر الإسلام فيه و توسيع حركة التجارة بينه و بين المدن الصحراوية التي كانت تشكل المحطات التجارية المغربية الكبرى. هذا التوسع البربري نحو الجنوب يبرز بشكل واضح ما بين القرن الرابع و الثامن للميلاد، حيث تم الاتصال بالسودان الغربي بالقرب من منعطف نهر النيجر أو ما يسمى بنيل السودان [1].

إلا أن الأهم في هذه الدراسة يتمثل خصوصا في فتح العرب و البربر هذه الرقعة الجغرافية و جعلها فيما بعد ملحقة اقتصادية إسلامية. لقد صعبت علي المقارنة بين النصوص التي تؤكد أن سبب توجه العرب نحو السودان مصدره معدن الذهب، و النصوص التي تجعل من حملات عقبة تأكيدا على طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية التي دفعت الفاتحين إلى التوغل في كل الجهات، منها الصحراء الإفريقية التي لم تشكل حاجزا على العرب الفاتحين الذين تعودوا على حياة الصحراء و متاهاتهـــا [2].

و من بين هذه النصـــوص، تلك التي تشير إلى أن العرب قبل القرن الثامـــن للميلاد كانوا على درايـــة تامة أن غانـــة هي بلاد الذهب من خلال نصوص مصادر كل من الفـــزاري، اليعقـــوبي و ابن الفقيـــه و غيرهـــم. و لتبرير هذه الأحكام تتم الإشـــارة إلى تلك الحمـــلات التي وجههـــا عقبة جنوب طرابلـــس و المغـــرب الأقصى ما بين 44 و 62 هــ/ 664 و 681 م [3].

---

1. Ibid, p.207.
2. زنيبر (محمد)، "تجارة القوافل في المغرب"، ص .165.
3. أنظر : LOMBARD (M.), op.cit, 207 p.

إلا أن المتتبـع لعملية فتـح عقبة ابن نابـع لكل من فـزان و كـوار يكتشف أنه لم يقصد الحصول على ثروة الذهـب و لا حتى البحث عن مواقعـه، بل كان هدفه تأديب الملوك و فتح ممالكهم للإسـلام. و يقول البكـري في هذا الصـدد : " سـار بنفسه في أربع مايـة فارس و أربع مايـة بعير و ثمانمايـة قربـة ماء حتى قـدم ودان و افتتحهـا و أخـذ ملكهم فجدع أذنـه فقال لما فعلت هذا و قد عاهـدني المسلمون، قال أدبـا لك إذا أمسسـت أذنك ذكرت فلم تـحارب العرب". و عن ملوك كـوار يقول : " فمضى أمامـه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهـى إلى أقصاهـا و فيـه ملكهـا فأخـذه و قطع أصبعـه فقـال لما فعلـت هذا بي قال أدبـا لك إذا أنت نظـرت إلى أصبعك ذكرت فلم تحارب العرب" [1].

أما النصوص التي تشيـر إلى فتح السـودان انطلاقا من السـوس و درعـة هي التي كانت محل نقـاش العديد من الدراسـات، خاصة تلك التي تشيـر إلى تأسيس سجلماسـة عام 728م وتنظيـم أول غارة عربيـة على السودان سنة 734 م بقيادة حبيب ابن أبي عبيـدة الفهري، الذي أنجز الطريـق الرابـط بين تامـدلت و أزدغشت خلال 745 م [2].

لكن توجه حبيب ابن أبي عبيدة هـذا من السوس نحو الصحراء باتباع طريق لمتونة الذي يصل بين درعة و أدرار و من موريانيـا ليصـل إلى السودان فسر حسب أهداف العديد من الدراسات فغالبيتها أرجعتها إلى رغبة العرب في الاستحـواذ على ذهب غانة بعـد التأكد من أنها فعلا هي أرض الذهب، و دليلها في ذلك هو عودة حبيب ابن أبي عبيدة بعد غـارته على السودان بكميات معتبرة من الذهب [3]. لكن هذا لن يكفي لتقبل مثل هذه الأحكام، ويستوجب الأمر مني إدراج العوامل الأخرى التي من شأنها تفسير الوضع بشكل مخالف. و الملاحظ هنا هو عدم تقبل هذه العوامل لوحدها لإصدار مثل هذه الأحكام، لذا يجب العودة إلى إلى عوامل أخرى من شأنها أن تزيد الأمر وضوحا.

---

1. البكري، "المعرب في ذكر إفريقيا و المغرب"، ص.13.
2. MAUNY (R.), « Tableau Géographiques… », p.521.
3. MAUNY (R.), « Les siècles obscurs de l'Afrique Noire », librairie Arlème Fayard, 1970, 141 p.

و من أهم هذه العوامل نجد :

- عالمية الدعوة الإسلامية التي استهدفت كل الأقطار؛
- تأقلم العرب و بيئة الصحراء و التي لم تخالف بيئة شبه الجزيرة العربية موطنهم الأصلي؛
- سرعة انتشار الإسلام بين القبائل البربرية؛
- قوة إمبراطورية غانة و عدائها للقبائل البربرية .

و تكامل هذه العوامل حسب رأيي يظهر بارزا بعد ظهور المرابطين و دخولهم إلى السودان و نشر الإسلام هناك. و النزعة الدينية لهؤلاء الملثمين أراها استمرارية لعملية فتح عقبة للسودان من جهة، و تأكيدا على أن الجانب المادي يأتي في المرتبة الثانية بعد تحقيق الهدف الديني.

4. أهـــــم إمبراطوريـــات المغـــرب و الســـودان الغـــربي

أ. إمبراطوريـــــــة المـــرابطـــين

إن الكلام عن المرابطين يدفعني إلى إثارة عدة مواضيع، لعبت فيها هذه الدولة دورا فعالا جعلها تعطي لظهورها هذا طابعا خاصا ، يختلف كثيرا عن بقية الدول المستقلة التي عرفها المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن 3-5 هــ الموافق لــ 9-11 م، و من أهم هذه المواضيع التي يرتبط ذكرها بالمرابطين ،موضوع الفتوحات الإسلامية الذي يعتبر النقطة الحساسة في تاريخ المغرب الإسلامي . ذلك أن هذه الفتوحات التي انطلقت من مفاوز الصحراء الكبرى قد أعطت دفعا جديدا و تكملة للفتوحات التي باشر فيها العرب بعد فتح شمال إفريقيا، هذا من جهة. و من جهة ثانية، طابع الدعوة التي جاءت بها هذه الحركة في استكمال عمليات الفتح نحو الجنوب، أي إفريقيا الغربية، خاصة منها منطقة السودان الغربي التي تعيش بظهور المرابطين تحولا جذريا عن تلك العملية المسالمة لعمليات الفتح و التي حسب رأيي تعود إلى طابع التجار الإباضيين الذين كان هدفهم قبل كل شيء هو الاستقرار ثم البحث عن امكانية استغلال ثروات البلاد من الذهب و ترويج التجارة لتأتي بعد ذلك الدعوة، التي كان يحملها التاجر يوميا في مظهره و طريقة معاملاته مع الأفارقة. هذا ما دفع العديد من المؤرخين و النصوص الغربية إلى محاولة تقسيم الإسلام في إفريقيا الغربية إلى مرحلتين :

المرحلـــة الأولى:

و هي ماقبل القرن **11 م**، و **الثانية** بعده، أي بعد قيام دولة المرابطين الذين جاءوا فيها بالحرب المقدسة التي قطفت ثمار العمل الطويـــل و الدؤوب للتجار الذين سبقوهم، و الذين

كانوا يخشون توسع المرابطين الذين حسب رأيهم أوشكوا أن يجهضوا التوازن السياسي والاقتصادي للمنطقة و أن يحدثوا اضطرابا في التدخل البطيء الذي كانت تعيشه مؤسساتهم الدينية و التجارية، لكن سرعان ما تتظافر الجهود في وحدة متكاملة من أجل الانطلاق في الغزو الروحي للمجتمعات السودانية [1].

بالفعل جاءت حركة المرابطين بمثابة دفع جديد لعمليات الفتح التي انطلق فيها القادة العرب الفاتحون. و يبرز هذا في دعوة عبد الله بن ياسين عند دعوة اتباعه لمواصلة الجهاد ومحاربة المنكرات والتي أماثلها بدعوة عقبة ابن نافع في بناء القيروان، و دعوة طارق ابن زياد في محاربة المسيحيين. و تتمثل دعوة عبد الله ابن ياسين في مضمون هذا النص : " اخرجوا على بركة الله تعالى و انذروا قومكم، و خوفوهم عقاب الله، و أبلغوهم حجته، فإن تابوا و أنابوا، و رجعوا إلى الحق و أقلعوا عما هم فيه فأخلوا سبيلهم، و إن أبوا ذلك و تمادوا في غيهم و لجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم و جاهدنا هم حتى يحكم الله بيننا" [2]. و كان لقبيلتي لمتونة وجدالة* الدور الكبير في نشر الإسلام بين سكان السودان الغربي، لما تتميز به من حماس ديني في تحويل الناس إلى الإسلام، و قوة بدنية ميزهم عن بقية سكان شمال إفريقيا. و هي ميزة امتاز بها فيما بعد تقريبا كل سكان الصحراء. و تعود قوة سكان الصحراء إلى عدة عوامل منها نمط المعيشة كما يذكر البكري : " طعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب و السمن و شرابهم اللبن، قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء وقوّتهم مع ذلك مكينة و أبدانهم صحيحة" [3]. هذه الصفات جعلت الإنسان يتأقلم مع بيئة الصحراء، كما تعتبر عاملا من عوامل نجاح الرجل المغربي عامة و البربري خاصة عند ممارسة

1. TRIAUD (J.L.), « Islam et Sociétés soudanaises au moyen âge », Paris, Recherches Voltaïques 16, CNRS, 1973, P.61.
2. حسن (إبراهيم حسن)،"انتشار السلام في ما يلي الصحراء الكبرى"، قسم الدراسات التاريخية و الجغرافية،1957، ص 6.

* جدالة و لمتونة، من شعب صنهاجة الجنوب، الملثين.

3. البكري، المصدر السابق، ص 170.

النشاط التجاري و الاستمرار في نشر الإسلام داخل المغرب و خارجه، ليكون المرابطي رجلا من هاته الجماعة التي انطلقت شمالا و جنوبا مبرهنا على عدم و جود ما يسمى بالحواجز الطبيعية والبشرية التي من شأنها توقيف الرغبة في إقامة الدين وإصلاحه أو الرغبة في إقامة الحضارة وتوسيعها. و لم تتوقف دولة المرابطين عند حد معنى الرباط الذي هو أساس نشأتها بالدفاع عن دولة الإسلام و حمايته بتجميع العباد المجاهدين على الحدود و تجهيزهم بالعدد و العتاد [1]، بل توسعت مشاريعها شأنها في ذلك شأن كل الدول الإسلامية في مشارق الأرض و مغاربها. فبمجرد أن يتحقق الفتح أو الإصلاح يظهر التوسع في المنشآت العمرانية والحضارية.

و لقد حاولت في هذا الجانب التركيز أكثر على الحياة الاقتصادية و التي من شأنها إبراز الدور الحقيقي للمرابطين في توفير الشروط الحسنة التي ستسمح لذهب السودان أن يسلك طريقه شمالا بالغا كل أهدافه. كما تجب الإشارة إلى مدى استغلال الدولة لذهب السودان الذي ساهم مساهمة فعالة في تقوية نفوذ هذه الدولة و إبراز شأنها داخل المغرب و خارجه. و أول إشارة ستكون موجهة لقوة التجارة المرابطية، و التي تنطلق من سيطرة قبائلها الرئيسية على مساحات شاسعة من الصحراء وتحكمها في الطرق التجارية العالمية. و من أهم هذه القبائل قبيلة لمتونة التي لم تقاوم خضوعها للمرابطين[2] و التي كانت تحتل موقعا ممتازا بسيطرتها على الطريق التجاري الذي يسير بمحاذاة البحر المحيط، و التي كانت ساعدا أيمنا في تنشيط حركتها التجارية و نموها الاقتصادي خاصة كونها المشرفة على طريق غانة (مصدر الذهب)، الذي هو ضمن ديارها، لتكتب لها السيادة على القبائل جميعا بعد وفرة المال و العدد و احتلال الموقع الممتاز [3].

---

1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"،ج4، المرابطون، ص.183.
2. نفسه، ص185.
3. حسن (محمود أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص. 46.

لكن هذا لم يقلل من شأن قبيلة جدالة، التي كانت أول من غزاها المرابطون كونها أقرب مواطن صنهاجة إلى الرباط و المهد الأول لعبد الله ابن ياسين [1] .هذه القبيلة التي اتخذت من أوليل مركزا لها حيث يكثر الملح الذي تنقله القوافل شمالا و جنوبا، كانت هي الأخرى أقوى القبائل باتجاه الجنوب، إلى غاية مصب نهر السنغال، كما كانت هي أوفر مالا و أكثر استقرارا لقربها من بلاد السودان و لانفتاحها على أهم المواقع الاستراتيجية التي كان معدن الذهب يسلكها باتجاه الشمال حيث تقرب من غانة و سنغانة و أودغشت وطريق سجلماسة [2].

إضافة إلى مسوفة التي تعتبر أكبر قبائل الصحراء الملثمين الصنهاجية [3] و ما ميزها كذلك هو سيطرتها على الطريق الحيوي للتجارة السودانية، حيث تمتد في منطقة قاحلة تقع بين سجلماسة في الشمال و أودغشت في الجنوب لتصل ببعض بطونها إلى غاية تادمكة و كوكو شرقا [4] لن تزيد هذه القبائل الثلاث التي تحول رجالها من مربي الجمال و العيش على نتاجها إلى المحاربين في سبيل الله، سوى دفعا عسكريا و اقتصاديا لدولة المرابطين، خاصة بعد أن أصبحوا أبطال الإسلام المعرض للانحصار و مدافعين عن تعاليمه المقدسة و حكاما على مجال مزدوج، المجال الأوروبي و المجال الإفريقي [5].

إن تحقيق المرابطين لهذا النجاح التجاري الذي سوف يصبح بمثابة قوتهم الاقتصادية إضافـــة إلى المراكز و الطرق التجارية التي كانت تحت سيطرة القبائل السالفة الذكر يظهر بشكل

---

1. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، ص185.
2. حسن (محمود أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص.47.
3. زغلول، نفسه، ج4، ص.196.
4. حسن (محمود أحمد)، المرجع السابق، ص47.
5. مارسيه (جورج)، "بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى"، (مراجعة أبو ضيف أحمد)، الإسكندرية منشأة المعارف، ص . 265.

واضح الأهداف التي دفعتهم إلى ضم المركزين الأساسيين للتجارة عبر الصحراء، و هما : سجلماسة و أغمات، التي كان من الضروري ضمها إلى حظيرة المرابطين، فبعد 446هـ/1054-1055م. و بعد الاستيلاء على سجلماسة توجه يحي ابن عمر و عبد الله ابن ياسين نحو أودغشت للاستيلاء عليها. ليكون بعد ذلك للمرابطين السيطرة و المراقبة الكلية على النقل التجاري للقوافل عبر الصحراء، إضافة إلى أن الإستيلاء على أودغشت و سجلماسة يعد انتصارا في المجال السياسي و الديني و الاقتصادي على حساب السودانيين و قبائل زناتة. و يزداد هذا الانتصار توسعا بعد الاستيـــلاء على اغمات في 71 من ربيع الثاني من عام 450 هـــ الموافق لـــ 1058م، والتي تعتبـــر من أهم المدن ثراء باعتبارها أكبر مركز تجاري كانت تستفيد منه قبيلة زناتة ومغراوة [1]. إضافة إلى أنها ذات علاقات و ثيقة مع سجلماسة (باب تجارة السودان)، و مدينة فاس حيث يمر الطريق بينهما بعدد من المراكز التجارية المزدهرة مثل بلد زواغة الذي يجمع فيه تجار فاس و البصرة وسجلماسة و مغيلة و أوزقور التي يسكنها ربضة الأندلس و ورزيغة [2].

و مما زاد من التفوق الاقتصادي للمرابطين تلك السياسة التي انتهجوها في المجال المالي خاصة عندما أبطل يوسف بن تاشفين كل الضرائب التي فرضت على المغرب الكبير ما عدا الزكاة، لأنها من فرائض الإسلام إضافة إلى الخراج و الجزية من أهل الذمة و خمس غنيمة الحرب، و هذا ما شجع التجار الذين أقبلوا على ممارسة أعمالهم التجارية في حدود الواجبات التنظيمية والدينية منعا للاستغلال و الاحتكار و الغلاء و أعمال الربا [3].

---

1. انظر : LAGARDERE (V.), « Les Almoravides jusqu au règne de Yusuf b. tasfin 1034-1106 », L'harmattan, Paris, pp.61-69.
2. زغلول (سعد)، المرجع السابق، ص.509 .
3. نجيب (زبيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس "، (ت: أحمد بن سودة)، ط1، بيروت، لبنان، دار الامير للثقافة والعلوم، 1995، ص.241.

و نظرا لملاءمة الحياة الاقتصادية لكل الإنجازات السياسية و الدينية، ذهب العديد من المحللين إلى تفسير أن أسباب دخول المرابطين إلى السودان كانت أهدافا مخططة مسبقا وهذا في قولهم أن تحديد الأهداف الإقتصادية و البحث عن تحقيقها لن يأتي إلا بالبحث عن طريق نشر دعوة دينية أو تنظيم غارة عسكرية. و ما الانهزامات التي تكبدتها إمبراطورية غانة على يد أبو بكر ابن عمر سوى تفسير آخر على أن حملة المرابطين لم يكن لها هدف سوى الصراع من أجل احتكار طرق الذهب السوداني [1].

و دليل هذه الكتابات يستنبط من الإنجاز الأكبر الذي عرفته هذه الدولة على أرض المغرب، بعد أن توسعت حدودها شمالا و جنوبا، و الذي يتمثل في سك العملة من هذا المعدن الخالص أي ذهب السودان الغربي، علمـــا بأن هذا الذهـــب لن يغذي مراكز ضرب العملة في المغرب الإسلامي فقط بل كل من مراكز الضرب بإسبانيـــا و أوروبا عامـــة، إضافة إلى أنه سوف يسمح بربط علاقـــات اقتصاديـــة بين كل من الســـودان الغربي والمغرب و العالم المسيحي [2]. و أنشأ بذلك مركز لسك النقود في أود غشت اقربـــها من السودان حيث يـــورد الذهب عليها بكثرة عن طريق القوافل المتجهة شمـــالا [3]. و بعد الاستفـــادة الكاملة من ذهب الســـودان الذي تجمع عندهم بكثرة، ضربت الدنانير الذهبية ذات العيار الممتـــاز في سجلماســـة، و أغمات و مراكز فـــاس و نول لمطـــة و تلمسان، التي اكتسبت شهرة دوليـــة.

---

1. أنظر : CISSE (D.A.), « Histoire Économique de l'Afrique Noire - Economie et Societes Medievales de l'Afrique Noire Subsaharienne - de 622 a 1794 Tome I, Paris, L'Harmattan, 1980, pp.18.
2. Ibid, pp.22.
3. محمود (السيد)، "تاريخ دولة المرابطين والموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999، ص.110.

بين مدن الغرب المسيحي ابتداء من القــرن 11م. و لعل السبب يعود إلى أن الذهب الذي ضربت منه هذه الدنانيــر هو أجود أنواع الذهب و أنقــاها أي ذهب غانة [1] كما سبق و أن تطرقت إلى تصنيفه.

إن شيوع هذه الثقة في الدينار المرابطي ضمن التجارة الدولية لا يعود فقط إلى نقاوة هذا المعدن المستخدم، بل إلى ارتفاع قيمته الشرائية و ثباتها، بسبب كثرة التداول و المعاملات، فوصل إلى القسطنطينية و كاد أن يصبح عملة دولية لانتشاره الواسع، و يذكر ابن قربة في مقاله هذا أن التجار المغاربة الوافدين على الإسكندرية كانوا يحرصون على أن يتقاضــوا أثمان سلعهم بالدنانير المرابطية، كما أنه ثمة وثيقة صينية مؤرخة سنة 583 هـــ/1187م تقول أن Mulapni، وهي محرفة عن كلمة مرابط بالعربية تعني المركز التجاري لأقطار المغرب الأقصى [2]. هذا ما جعل فعلا سنة 464هـــ/1072م و هو العام الذي ضرب فيه الدينار الذهبي المرابطي على يد أبي بكر ابن عمر، و كأنه عام تأسيس للدولة المرابطية في شكلها المدني، خلافا عن دولة عبد الله بن ياسين و خلفائه و هي الدولة الفقهية البدوية [3]. و استطاعت هذه الدولة خلال عشر سنوات وبفضل هذا الدينار المرابطي، أو كما يسمى " Marabutine " أو " Marabutino " أو " Maravedi إعادة إحياء اقتصاد الغرب المسيحي ليتأكد هذا بعد النهضة التي عاشتها تجارة العالم الإسلامي والمشاركة الفعالة للدينار في الحركة النقديـــة، والاختفاء الشبه الكلي للعملة النحاسية، و هذا بقولهم أن العملة الذهبية الجيدة قد طردت العملة النحاسية السيئة [4].

---

1. ابن قربة (صالح)، "انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى"، في "سلسلة الندوات والمناظرات"، رقم 48، الرباط، منشورات كلية العلوم الإنسانية، ص 175.
2. زغلول (سعد)، المرجع السابق ، ج 4، ص261.
3. CISSÉ (D.A.), « Histoire économique… », p.25.
4. Ibid, p.25.

و إن كان هذا الانتصار الذي حققه المرابطون في المجال الاقتصادي خاصة النقدي و التجاري منه، من بين الأهداف التي دفعهم إلى غزو السودان، فلا حرج في القول أنهم كانوا على حق و لو ولد ذلك بين جوانبهم الطمع و حب المال. و إن التحمس الشديد الذي دفع المسلمين إلى توجيه حملاقم ما بين 116هـ/734م و 133 هـ/750م، نحو السودان، و التي اعتبرها بعض المؤرخين أشد المغامرات خطرا من الحملات التي قادها سبتينيوس فلاكس و يوليوس ماترنس على طول الطريق الأيسر إلى فزان [1]، كان بمثابة التأكيد على أن الوازع الديني و لو اقترن بحب المال لا يتخلى عن مبادئه الأصلية، و انتشار الإسلام في السودان الغربي و دخول أقطاره تحت سيادة العالم الإسلامي، يشير إلى أن المجد الذي حققه هذا العالم في المجال المادي ما هو إلا مرحلة من المراحل التي مرت بها الفتوحات الإسلامية في مختلف الأمصار، كل حسب ظروفها و عواملها البشرية والمادية.

1. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير "، ص.132.

ب. إمبراطورية غانة

لم يعد تاريخ غانة و إمبراطوريتها ذلك التاريخ الغامض الذي يصعب تحليله أو دراسته بسبب ندرة المصادر و المراجع التي عالجت الموضوع، حيث أصبح من الممكن اليوم البحث في تاريخ هذه المنطقة بعد ظهور الدراسات الأثرية و كذلك الروايات و كتب الرحلات التي تناولت تاريخ المنطقة بشكل يثير الإعجاب و الفضول العلمي. و من بين المؤلفين الذين أشاروا إلى غانة في كتب رحلاتهم أو مؤلفاتهم، ابن حوقل [1] خلال القرن 10 م، البكري[2] في القرن 11 م، الإدريسي [3] في القرن 12 م، ياقوت الحموي [4] في القرن 13 م، ابن سعيد المغربي [5] في القرن 13م، ابن خلدون [6] في القرن 14 م. و يعتبر كتاب البكري من أهم المصادر العربية التي أفادتنا بمعلومات قيمة حول غانة و معدن الذهب و عادات و تقاليد أهلها، إضافة إلى بعض مميزات وضعها الاقتصادي [7]. هذا الوضع الذي كان فيه معدن الذهب أساس نشأته و قوة ملوكه [8].

1. ابن حوقل، "صورة الأرض".
2. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب"، جزء من كتاب المسالك و الممالك.
3. الإدريسي، " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".
4. الحموي، "معجم البلدان".
5. ابن سعيد المغربي، " كتاب الجغرافيا".
6. ابن خلدون، " العبر ".
7. البكري، "المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب"، جزء من كتاب المسالك و الممالك، ترجمة دي سلان، باريس، 1965، ص.174.
8. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent Africain … », p.85.

عاصرت غانـــة الواقعة بين نهر السنغال و النيجر، عدة ممالك منها :

- جــــاو،
- الهوســـا،
- اليروبـــا،
- صوصـــو،
- كانـــمـــبـــو،
- التكـــرور غربا،
- الماندينـــج جنوبا.

والملاحظ هنا أن معظم هذه الممالـــك لم تحض بذكر واسع في المصادر العربية [1]، و اقترن اسم غانة في جل المصادر العربية بمعنى اسم الذهب الذي شاع انطلاقا من القرن الثامن و التي لم تكن في الواقع سوى مملكة محتكرة للطرق التجارية و ليست منتجة للذهب [2]. ويذكر حسن ابراهيم حسن نقلا عن القزويني : " أن التجار يدخلون من غانة إلى بلاد التبر، و لولاها تعذر عليهم ذلك " [3].

إن أصل كلمة غانة لم يفصل فيه لحد الآن، فهناك من الدراسات من أعادته إلى تسمية لقب ملوكها كايا ماغان * " Kaya Maghan "، و التي تعـــني ملك الذهب أو سيد الذهب [4]، و تشير المصادر العربية في هذا المعنى قائلة : " غانة سمة لملوكها" [5].

---

1. انظر : CISSOKO (S.M.), « Histoire de l'Afrique occidentale – Moyen âge et temps modernes», Présence Africaine, Paris, 1966, P.6.
2. انظر : POSNANSKY (M.), « The Origins of West African Trade », Ghana University press, Accra Tema Ghana, 1971, P.5.
3. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى"، قسم الدراســـات التاريخية و الجغرافية، 1957، ص 205.
4. كايا ماغان : ترادف كلمة : إمبراطور أو الرجل المحارب.
5. JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », P 85.
6. الحميري (محمد عبد المنعم)، " الروض المعطار في خبر الأقطار"، (ت: إحسان عباس)، ط.2، مكتبة لبنان، 1984، ص 426.

و يذكر سيسوكو "Cissoko" نقلا عن الخوارزمي، في معنى آخر : " أن اسم غانة كان يعني بلاد السودان" [1]. و من جهة أخرى أطلق عليها أيضا اسم مملكة "الواجادو"، نسبة إلى الاسم الأول الذي كان يلقب به كبار آلهتهم "واقادو بيدا "، " Wagadou Bida " وهو الإله الثعبان الذي كان يحمي قبائلهم و يحرس كنوزهم وثرواتهم، ويمنحهم بركات السعادة والنجاح والتقـــدم [2]. ولا يزال هذا الاسم " بيدا" "Bida " إلى يومنا هذا يطلق على الفتيات في هذه المنطقة.

بالرغم مما سبق ذكره، فإن معنى كلمة غانة لم يفصل فيه نهائيا، و مازال الشك قائما حول أصلها. فبعض الدراسات الحديثـــة تضيف معنى آخر هو " أغانا "، الذي هو في الأصل تسمية بربرية تعني المناطق التي تفتقر إلى الغطـــاء النباتي و التي تشير إلى المناطق الساحلية لقبائل السونينـــك، و الحجة التاريخية في ذلك هو أن هذا الاسم أعطى ميلاد بلاد غينيا " Guinée " خلال العصور الوسطى [3]. و الأهم في ذلك هو أن الحاكم أو الإمبراطور كان يلقب بتونكا " Tounka " الذي يعني الأمير، كما كان يلقب أيضا ماغا " Magha" أو (ماغان) " Maghan " الذي يعني السيد، أو (كايا ماغان) " Kaya Maghan " الذي يعني (سيد الذهب) أو (سيد الإقليم)، ويسمى أيضا "Ghana " غانا الرجل المحارب و هذا الاسم الأخير أصبح ثابتا أو توسع ليشمل كل الإمبراطورية " أي إمبراطورية غانة". و بالنسبة عاصمتها، يقول أحمد شلبي : " إذا كانت غانة القديمة تقع جنوبي موريطانيا الحالية، فإن عاصمتها كانت تسمى " كومبي" ولقد كشفت الأبحاث الأثرية على أطلال مدينة بالقرب من كومبي صالح* يعتقد أن تكون كومبي عاصمة غانة القديمة [4].

---

1. CISSOKO (S.M.), op.cit, P.8.
2. حوزيف (حوان)، "الإسلام في الممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء"، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، ط.1، 1984، ص 37.
3. GHANA, in Encyclopédie « Universalis » France, S.A.1999. p.4.

* تقع على بعد حوالي 200 ميل شمال باماكو حاليا.

4. شلبي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي "،ج6، ط.5، مكتبة النهضة المصرية، 1990، ص.102.

ولم يكن تحديد معنى كلمة غانة فقط مثار جدل المؤرخين، بل حتى ظهور هذه الإمبراطورية و تاريخ بدايتها و أصل سكانها مازال محل نقـاش وبحث. و يبقى بذلك تاريخ إمبراطورية غانة من الدراسات التي تحتاج إلى مزيد من البحث والتمحيص.

يكمن أصل الجدل في أن تأسيس غانة يعود إلى جماعة من البيض وفدوا من الشمال أصلهم من صنهاجة [1]، و يذكر" Delafosse " في هذا الصدد : " أن تأسيسها يعود إلى الجماعات السامية التي هاجرت من منطقة "دياكا" "Diaka" * أو "مسينا" " Massina " باتجـاه منطقـة "أوكـار" **، لتتصل بجماعـات "الونقـارة" "Ouangara" التي مكثـت في المنطقـة قرونا عديدة، لتأتي جماعة سامية أخرى من منطقة توات، لتشكل مستعمرة ذات أهمية قبل اتخاذها موطنا من طرف الونقارة و التي تعطي ميلاد جماعات سراكولي" Sarakolli" التي أسست في أوكار خلال الألف الأولى للميلاد ما يعرف بغانة، و التي كان أول ملوكها من البيض [2]. ومن المؤرخين من أعاد أصولها إلى الفرس، ليذهب البعض إلى القول أن هذه الجماعات من اليهود الذين هاجروا إلى هذه المناطق عقب تدمير الإمبراطور تيطس للمعبد*** و طرد اليهود من فلسطين[3].

و في الفترة الإسلامية أي عندما دخل العرب إلى غانة عام 116 هـ/734 م كان الحكم في يد البربر، و بعد مقتل آخر ملك بربري حكم غانة حوالي سنة 174هـ/790 م، خلفه ملك الواجادو **** أحد عناصر السونينك، من قبيلـة سيسي "CISSÉ "، و في عهده توسـعت الإمبراطوريـة لتشمل المناطـق الواقعـة شمـال السنغـال، ونهـر النيجـر، حـتى تخـوم الصحـراء ،

1. شلبي (أحمد)، نفسه، ص.103.
* دياكا : تقع غرب نهر النيجر.
** أوكار : تقع بين غانة و أودغشت.
2. DELAFOSSE (M.), « Histoire De l'Afrique Occidentale Française », p.56.
*** وقع ذلك سنة 7 م.
**** يدعى تونقارة " Tounkara " بواسطته وحدت كل قبائل السونينك.

ليزداد هذا التوسع اكثر بعد 380هـ/ 990 م ، بعد الاستلاء على أود غشت*، التي كانت عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لمتونة البربرية [1]. وهذا الانتصار يسجل قوة غانة** وتوسعها، حيث أصبحت تشرف على مناجم الذهب في جالام " Galam " او على التكرور غربا ، إضافة إلى المناطق المجاورة لكل من جني " Djenné " وتومبكتـــو و على بعض القبائل البربرية في الصحراء [2].

قـــوة غانـــة الاقتصاديـــة :

قبل الإجابة على السؤال الاقتصادي المتمثل في ازدهار غانة و نمو ثروتها، لا بد من العودة و لو بشكل موجز إلى أهم التنظيمات التي ميزت سلطة غانة و جعلتها تتفوق اقتصاديا على بقية الممالك الأخرى لفترة طويلة من الزمن. و أول ما يمكن الإشارة إليه هو التنظيم العسكري، الذي استبعد كل احتمال وقوع هجوم إسلامي على الإمبراطورية قبل ظهور المرابطين. و يظهر هذا واضحا خاصة بعد حملة الحبيب ابن أبي عبيده عام 116 هـ/734م، حيث استطاعت غانة بواسطة سلاح الفرسان أن تضمن السيطرة الكلية على كل المناطق التي استحوذت عليها، خاصة على تلك الجماعات السكانية التي لم تعرف بعد كل التنظيمات الحديثة [3].

---

* مدينة تقع بين صحراء لمتونة و السودان، تبعد عن غانة بإثنى عشر مرحلة، و عن ورقلة بإحدى و ثلاثون مرحلة، و عن سجلماسة بنحو خمسين مرحلة.

1. شلبي (أحمد)، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، ج.6، ص.105.

** قدر جيشها بنحو 200 ألف محارب، و يتشكل من 40 ألف من رماة السهام.

2. JOLLY (J.), « Histoire du continent Africain », T1, P.108.
3. GHANA, in « E.U », P.4.

أما التنظيم الإداري فكان مميزا حيث قسمت الإمبراطورية إلى مقاطعات وممالك " كديارا " و "صوصو" إضافة إلى قرى و نواحي. و كانت الممالك تسير من طرف ملوك إقطاعيين. كما كانت هذه الممالك تدفع لهم الضرائب و تقدم لهم الجيوش المحاربة. وهناك أمراء من الأسرة الحاكمة يسيرون ممالك إقطاعية أخرى [1]. بهذه الطريقة استطاع الملك أو الإمبراطور الغاني أن يؤسس الإمبراطورية و يسيرها بإحكام، خاصة كيفية حصوله على ثروة الذهب. تشير بعض المصادر العربية إلى مملكة غانة قائلة : " و لملك غانة مملكة واسعة نحو شهرين في مثلها، و في بلاده يوجد الذهب الكثير و هو يعم جميع بلاد الدنيا، و أفضل الذهب بمملكته ماكان ببلد "غيارو" [2].

واستقطبت هذه الثروة التي كانت من الأراضي المجاورة لغانة إليها التجار العرب و البربر حيث كانت حياة هؤلاء تتوقف على طبيعة النظام الذي كان يسود الإمبراطورية. وكانت عملية دفع الضرائب للإمبراطور تضمن لهم الأمان و حسن الضيافة [3].

و بالتالي لعب هؤلاء التجار دورا هاما في النمو التجاري و كانت غانة التي لعبت الدور الوسيط بين مناطق الذهب جنوبا و الملح شمالا، لا تملك الذهب في أراضيها، بل كان يستخرج من بامبوك في أعالي الفاليم و بورى أعالي النيجر ، و كانت تعتمد على تجار السونينك الذين كانوا يحتكرون الذهب و الذي بواسطتهم يصل إلى التجار العرب و البربر الذين ينتظرونه في مدن الساحل، كأودغشت مثلا [4].

---

1. CISSOKO (S.M.), « Histoire de l'Afrique occidentale... », P12.
2. الحميري، " الروض المعطار في خبر الأقطار "، ص.462.
3. DAVIDSON (B.), « The Growth of African civilisation », p.39.
4. Ghana, in « Encarta 2000 » p. 5.

و ازدهار غانـــة في هذا المجال يدفعني إلى ذكر مدينة أودغشت التي لعبت دور الوسيط المميز على طريق الذهب و الملح، و التي دفعت ملك غانة في نهاية القرن العاشر أن يستولي عليهـــا [1]، لتشكل بعد ذلك همزة وصل بين عالم حوض المتوسط و إفريقيا. وكان هذا الموقع يدر لها أرباحا طائلة سمحت لها خلال القرن الحادي عشر أن توسع من نشاطاتها الاقتصادية، خاصة منها الزراعة، التجارة و الحرف التي أصبحت تميز حياة غانة فيما بعد [2]. كما ربطت هذه المدينة علاقات جيدة مع الحكم المغربي في سجلماسة، حيث كانت تصدر العنبر و التبر و الصمغ و بعض المصنوعات الجلدية، و تستورد الملح و الحلي و النحاس [3]. أما التجار العرب و البربر فكانوا ينقلون بدورهم العديد من البضائع إلى أسواق غانة، كالأقمشة، الملح، التمور، التين المجفف والصدف، إضافة إلى النحاس وبعض الحلي [4].

و من أهم المدن التي كان يستقر فيها التجار البربر، غنديـــورو " Gandiorou " التي تقع بالقرب من مدينة كايس "Kayes"، حيث كان يلتقي فيها تجار البربر وتجار الونقارة، واشتهرت بتجارة الذهب و الرقيق لتصبح خلال القرن 12 م، مركزا لاستقرار العديد من العائلات الإسلامية. دون أن أنسى مدينة بريسه – سيلا "Barissa-Silla" التي عرفت هي الأخرى ازدهارا في تجارة الذهب و ملح أوليل ولرقيق [5].

---

1. انظر. « Les mémoires de l'Afrique des origines à nos jours », p.184
2. انظر. CISSOKO (S.M.), op cit, p.15
3. انظر. JOLLY (J.), op cit , p .108
4. انظر. DELAFOSSE (M.), op cit , p.58
5. انظر. CISSOKO (S.M.), op cit, p.20

و من خلال ما ذكر يمكن لي أن أستنتج أن غانة استفادت من عدة عوامل ساهمت في بروزها منها : سيطرتها الشبه كلية على تجارة الذهب التي سمحت لها أن تصبح أعظم إمبراطورية عرفتها إفريقيا الغربية خلال العصور الوسطى. كما يمكن أن أقول أن وفود التجار العرب والبربر على هذه الإمبراطورية، ساهم بشكل كبير في رفع إنتاج الذهب و تدعيم خزائن هذه الإمبراطورية بهذا المعدن الثمين، من خلال الضرائب التي كان يفرضها ملك غانة على هؤلاء التجار أثناء إجتيازهم لأراضيه. كما استطاعت إمبراطورية غانة أن تتصل بعالم بحر الروم، الذي استفاد هو الآخر من ذهب السودان الغربي، و الذي ساهم بشكل كبير في تفسير الحركة التجارية خلال العصور الوسطى. و في الأخير يمكن أن أستنتج أيضا أنه بالرغم من قوة هذه الإمبراطورية، إلا أنها سرعان ما سقطت تحت ضربات المرابطين، الذين أظهروا منافسة شديدة لغانة، خاصة بعدما استرجعوا أودغشت سنة 446 هـ/1054 م و توسع نفوذهم إلى غاية مناجم الذهب بامبوك [1].

ولقد قيّم بوفيل سقوط هـذه الإمبراطورية قائلا : " إن الإمبراطورية الإفريقية الكبرى التي ظهرت في العصور الوسطى تختلـف عن الدول الحديثة التي تظم الأمم حيث لم تكن متجانسـة" [2]، و يضيف أيضا نقلا عن ترمنغهام : " أنها تجمع غير منتظم من جماعات مرتبطة بالقربى ليس لها إلا القليل من الأمـور المشتركة، ما عدا الاعتراف الأسطوري بسيد أعلى، هم تابعون له و هو بعيد عنهم، بحجـة عدم امتلاكها لحدود دقيقـة، و لأن الحاكم لايعني السيطرة على الأرض بقدر ما يعـني العلاقـة التي تربطـه بالتجمعات الاجتماعيـة التي يمكن أن يأخذ منها الرجـال في وقت الحروب بأخذ منها الخدم للعمل في قصره و مزارعه و إبقاء مخازن حبوبه مملـوءة" [3]. و هذا ما دفعها لتنشأ بسرعة و تترسع قبل أوانها ثم تتلاشى، و ينطبق هذا على إمبراطورية غانة بالرغم من طول فترة حكمها، ثم مالي و السنغاي أخيرا.

و مهما تعددت التحاليل و الرؤى حول إمبراطورية غانة، فإنه لا يمكن أن أنكر أنها سجلت بأحرف من ذهب تاريخ السودان الغربي و علاقاته بالمغرب الإسلامي بمنافستها الشديدة للمرابطين مع احتكارها للجزء الأكبر من مناجم الذهب التي عرفها السودان الغربي.

1. أنظر : DELAFOSSE (M.) , op.cit , p.59.
2. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.11.

الفصل الثاني

معدن الذهب و الأهمية الاقتصادية للمغرب

1. – ذهب السودان الغربي

أ. تعريف معدن الذهب

ب. مواطن ذهب السودان الغربي

ت. طرق استخراجه

2. – التنافس المغربي على مسالك ذهب السودان

أ. الأغالبة

ب. الرستميون

ت. الفاطميون

ث. المرابطون

3. – معدن الذهب و سك النقود

أ. ذهب السودان و العملة المغربية

ب. الدينار الذهبي المغربي

4. – مراكز ضرب الدينار الذهبي المغربي

أ. سجلماسة

ب. أغمات

ت. تادلة

ت. تلمسان

ث. سبتة

جـ . مراكش

1. ذهـــب الســــودان الغــــربي

أ. تعريف معدن الذهب و مصطلح التبر

قبل البدء في تعريـــف معدن الذهـــب من الجانب العلمي و العودة إلى خواصـــه الكيميائية، التي تميزه عن بقيـــة المعـــادن الأخرى، لا بد من العـــودة إلى التاريخ و ما سجلـــه ولو باختصار عن هذا المعـــدن، الذي اعتبر المـــحرك الأساســـي لكل الحضـــارات، القديمـــة منهـــا أو الحديثة [1]. حيث ارتبـــط هذا المعدن بالطقوس و المعتـــقدات التي اعتبرت الذهب واقيا من قوى الشـــر. و من جهة أخرى كانت الرغبـــة في البروز بمظهر السلطة و الثراء من بين العوامل التي ألهبت رغبة الإنسان في الاستحـــواذ على هذا المعدن النفيـــس.

أن تاريخ الذهب، هذا المعدن الذي يسمى في اللغة العربية "النظار" [2] أو"العسجد"، يدفعني إلى أن اطرح تساؤلا سبقني إليه العديد من الدارسين لهذا الموضوع.وهو كالتالي : من علمَ رجلَ "Cromagnon" أن يزين حليه المصنوعة من الأصداف و أسنان الحيوانات منذ 30.000 سنة ق.م. بهذه العدسات الصفراء اللون [3] التي سيطلق عليها يوما ما اسم الذهب أو النظار ؟

إن حدة الدهشة تخف عندما أجد أن الفراعنة قد جعلوه منذ 2700 سنة رمزا للأسرة الحاكمـــة، بعد أن أبدعوا في طرق استغلاله، ليصبح معدنا مقرونا بالآلهة المعبودة وسلطة الملك [4]. لذا يجب أن يزين كل رموزه من آواني و تحف وأوسمة ليتطور و يصبح فيما بعد رمزا للحياة الأبدية أي الخلود بتغليف جثث المـــوتى و الأواني التي يصطحبها الفرعـــون معه إلى العالم الخفي متيقنا أن الذهب سيبعد كل مكروه قد يصيبه أو قد يحل بأحد أفراد الأسرة الحاكمة.

---

1. أنظر SÉROUSSI (R.), «L'histoire de l'Or », Paris, éditions France-Empire, 1998, p.45.
2. أبو الحسن (ابن على الحكيم)، " الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة"، ص.22.
3. أنظر LEPIDI (J.), « L'OR », Paris, 6ème éd, Que sais je ?, Presse Universitaire de France, 1997. p.5.
4. أنظر SÉROUSSI (R.), op.cit, p.40

إن هذا الاهتمام الذي حظي به معدن الذهب عبر التاريخ تؤكده الحفريات وكذا الكتابات القديمة، منها الخط الهيروغليفي هو الآخر منح مكانة لهذا المعـــدن حيث يرمز الطوق الذهبي إلى الجمال و القوة.

و كما استمر الإنسان في التمسك بهذا المعدن و التنقـــل بين أسرة الأنهـــار القديمة و الحديثة من اجل التقاط تلك الحبيبات البراقة، استمر أيضا في الإبـــداع و التفنن ليجعـــل منه تحفة ليست كبقية التحف تجلب الأنظـــار و تبهت العقول، مالكـــة روح كل من يقتـــرب منها أو يكتسبها. هذا ما تؤكده المعتقدات الافريقية التي تعتبر الذهب جانا يسكن جسد الفـــرد الذي يعثر عليه و يلازمه إلى أن يفارق الحياة، بل حتى و هو في قبره [1]. كما سجل التاريـــخ براعـــة "Phidias" [2] الذي خلد مجد الإغريق من خلال التحف التي غلفها برقائق الذهب، و من أهمس تلك الأعمال : تمثال "Athéna" و "Zeus" سيد الآلهة.

أما بالنسبة للرومان ،فقد اتخذ معدن الذهب عندهم شكلا مميزا نوعا ما وهذا بتطور نظرة المجتمع إلى معدن الذهب بعد آلاف السنين من اكتشافه، فالمصابيح الزيتية المغلفة بالذهب والأواني الذهبية أو الحلي ذات شكل الزواحف، لا تعني سوى نبل العائلة ومدى غناها وتميزها عن بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى [3].

وفيما يخص المسلمين،فقد ورد ذكر الذهب في مواقع عديدة و اقترن ذكره دائما بمظاهر القوة و السلطان و حب الدنيا.و من ذلك قوله تعالى : "زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطر المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب " [4].

---

1. أنظر MEYER (L.), « Les Métaux précieux dans l'art d'Afrique noire », Paris, Ed. Sépia, 1997.
2. فيدياس : أكبر نحاتي الإغريق خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ذكرت العديد من المصادر أن هذا الأخير قام بتحويل كمية كبيرة من الذهب المخصص لتمثال أثينا لصالحه، فانتهى به الأمر إلى الموت داخل السجن.
3. أنظر SÉROUSSI (R.), « op.cit », p.59.
4. سورة آل عمران، الآية 14.

أن التاريخ يؤكد هذه الحقيقة، فبعد استحواذ المسلمين على مصادر الذهب الموجودة في بلاد فارس و كنائس المسيحيين و أهرامات الفراعنة، إضافة إلى الذهب الإفريقي عامة عظمت شوكتهم وتوسع سلطانهم وبرزت قوتهم بين الأمم و الديانات السماوية الأخرى فأسسوا إمبراطورية سياسية مترامية الأطراف تمتـــد من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مطبوعة بتفوق اقتصادي جعل الأمة الإسلامية جمعاء تستفيد من نور هذا الدين الجديد. وما سك عملة من معدن الذهب إلا دليل على وفرته وحسن استغلاله من طرف هذه الإمبراطورية، التي سرعان ما نشب النزاع بين العديد من إماراتها سواء من أجل الإشراف على مسالكه أو تجارته، وهذا ما عاشه المغرب الإسلامي طيلة فترة ازدهار تجارة معدن الذهب [1].

لقد أردت من خلال هذه الإشارات التاريخية الإجابة عن بعض الأسئلة التي شغلتني منـــذ أن توسعت في عناصر بحثي، ألا وهي العودة ولو باختصار إلى بدايـــات هذا المعدن والتي تعـــددت حوله الآراء و تعددت فيه المصادر التي تشكل دراسات ذات أهميـــة لمن أراد فعلا العودة إلى ذلك. لكن بالرغم من أن الموضوع تاريخي، إلا انه لم يمنعني من العـــودة إلى الدراسات العلميـــة لتحليل جانب من جوانب هذا المعدن و هي عديـــدة و متشعبـــة.

و إنجاز هذا العمل اقتضى مني البحث عن أهم المؤسســـات التي تهتـــم بهذا المعدن من الجانب العلمي، فكان الجواب متمثلا في العودة إلى إحدى مخابر الوكالـــة الوطنيـــة لتحويل الذهب و المعادن الثمينة "AGENOR" التي استطاعت من خلال الشروحـــات التي قدمت لي، أن أصل إلى ما كنت ابحـــث عنـــه، والذي لم يختلـــف كثيرا عن تلـــك الاستنتاجات التي توصلت إليها كل الدراسات التي اهتمت بمعدن الذهب و خواصـــه الكيميائيـــة أو غيرها.

كانت توجيهات هذه الوكالة علمية دقيقـــة، دفعتني إلى الغوص في عالم الذرات و الإليكترونـــات خاصة بعد دخولي إلى المخبر واتصالي بالمهندسين المختصين في الكيميـــاء الذين قدموا لي شروحـــات كافيـــة جعلتني ألقى الجواب عن السؤال التالي : لماذا يمتاز معـــدن الذهب

1. أنظر LOMBARD (M.), « Les bases monétaires d'une suprématie économique- L'Or musulman du VII[e] au XI[e] siècle », in Anales : A.E.S.C, économies – sociétés – civilisations, 2[ème] Année, avril – juin 1974, n° 2, Librairie Armand Colin, pp. 143.

عن بقية المعادن الأخرى بالرغم من قلتها في الطبيعة و غلاء ثمنها، كالألماس و البلاتيـــن ؟ فكان الجواب أن الذهب معدن طبيعي، لونه أصفر، براق، عنصر فلزي، رمزه الكيميائي "AU" و هي مقطوعة من اسمه اللاتيني "Aurum".

و هو ألين معدن موجود في الطبيعة، و هذا ربما ما جعل البشرية تهتم به أكثر من المعادن الأخرى، لأنه يمكن طرقه و هو بارد. وقد قيل قديما أن الذهب أبقى جواهر الأرض، أي لا يفسد، كلما بقي تحت الأرض صلب و طاب، وكلما دخل النار تخلص و حسن [1]. هذا القول لا يختلف في شيء عما تطرقت إليه كل الموسوعات و الكتب العلمية المؤلفة للموضوع. و يذكر البستاني نقلا عن القزويني في هذا الصدد : " إن النار لا تقدر على تغريق أجزائه و لا يبلى بالتراب، و لا يصدأ على طول الزمن ..." [2].

من أجل هذه الخواص نشأ ما يسمى في العصور الوسطى بـــ "الكيمياء" أو "الخيمياء"، هذا العلم الذي يهتم بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، التي ظهر في العصرر الوسطى، و يظن الكثير من الكيميائيين أن ذلك ممكن، و هذا بتغيير نسب التراب والنار*، فيتحول النحاس إلى ذهب[3]، أي بعد أن تفننت البشرية في استغلاله، لكن هذه المرة في محاولة لإنتاجه بشكل اصطناعي.

إن الذهب يدين بالكثير من لخواصـــه الفيزيائية و الجمالية ليونته، و مقاومته للكيمائيات و كذلك لكثافته**. فهو ذو لون أصفر جميل و بريق معدني أخاذ، و يسهل تحويه بسبب ليونته هذه. و يصف العلماء بأنه قابل للسحب في شكل أسلاك رقيقـــة، لسهولـــة طرقه و تحويله إلى ألواح رقيقة [4]. و بشأن هذه العمليـــة فإن التكنولوجيا الحديثـــة أصبحت تتحكم فيها و بشكل دقيـــق، فبالإمكان سحب مئات الأمتـــار من أسلاك الذهـــب من واحد غرام ذهب.

1. الحكيم (أبي الحسن ابن على)، "الدوحة المشتبكة"، ص.46.
2. البستاني (بطرس)، دائرة المعارف، ج.8، ص.380.

* المادة، مزيج من أربع مواد أساسية هي التراب و الماء و الهواء و النار، هي فكرة إغريقية أيونية قديمة.

3. ساقان (كارل)، " الكون"، (ت: نافع أيوب لبّس)، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، طبعة 1993. ص.193.

** كثافة معدن الذهب، يقصد بها أن حجم 1 كلغ من الذهب أقل من واحد كلغ من الفضة.

4. الموسوعة العربية العامة، الجزء العاشر، الذهب، ص.646.

هذا المعدن الذي بهر الملوك و الفنانين أصبح يبهر اكثر العلماء الذين رأوا فيه معدنا واسع المجال في الاستخدامات الطبية والصناعية، ليس فقط لأنه ذو مقدرة على مقاومة الصدأ و التغيرات الكيميائية الأخرى التي تحدث بفعل الهواء [1]، بل لأنه أيضا معدن ناقل للحرارة و الكهربـــاء فهو كهربائي إيجابي بنسبة قليلة، كما انه لا يتفاعل مع الأكسجين الجوي عندما يسخن ولا مع غالبية المواد المذيبة.

يذوب الذهب في محلول "Chlorure, Bromure et les Iodures" و في بعض المحاليل المؤكسدة أي خليط الحوامض مثل : حامض الكلوريدريك و حامض النيتريك " Acide Nitrique et acide Chlorhydrique". ومن مواصفاته أيضا انه يذوب في الدرجة المئوية ° 1064، و يغلي في الدرجـــة ° 2807، بكثافة تقدر 19.3 و كتلة ذرية تقدر ب 196.97 [2]. أما بالنسبة لمـــجالات استعمالاتـــه فأقول أن اكبر كميات الذهب المستخرجة، تستخدم في ضرب العملة، أو صناعـــة الحلي أي الصياغة، و هنا أجـــد أن الذهب يمزج أو يخلط بالمعادن الأخرى كالفضة و النحاس، ليصبـــح اكثر صلابة، ويسمى هذا الخليط سبيكة وسبائـــك الذهـــب تقاس بالقيراط والقيراط يساوي واحد من أربعة و عشرين جزءا، وهكذا فإن الذهب 24 قيراط هو الذهب الصافي أو النقي [3].

و النقود المصنوعة من الذهب تحتوى علي 90 جزء من الذهب و 10 أجزاء من فلـــز آخر أي الفضة [4]. أما الذهب المستخدم في المجوهرات فيحتوي على النحاس و الفضة. ومن بين أهم هذه الأنواع التي نجدها في معدن الذهب بعد خلطه بفلزات أخرى : الذهب الأبيض : وهو الذي يحتوي على الزنك و النيكل أو معادن من مجموعة البلاتين "PLATINE"، و في هذه الحالة يستخدم كثيرا كإطار للأحجار الكريمة في الخواتم و الأطواق [5]. ومن أنواع الذهب حسبما حكاه الحرفيون القدامى أحمر و اصفر واسود الظاهر واحمر باطن و هي كلها من الثقل.

---

1. الموسوعة العربية العامة، نفسه، ص.644.
2. أنظر .Or, in Encyclopédie « Encarta 1998 »
3. الموسوعة العربية العامة، ص.645.
4. نفسه، ص.649.
5. أبو الحسن (ابن على الحكيم)، "الدوحة المشتبكة..."، ص.30.

إلا أن استخداماته في المجال الصناعي قد تطورت كثيرا، فلقد برز في مجـــال الصناعات الكهربائية و الإلكترونية و بخاصة في الدوائـــر المطبوعـــة و الموصلات، و على الأخص في شبـــه الموصـــلات المصنوعـــة من السليكون المطلي. كما يستخدم في تغطية النوافذ الزجاجيـــة، من اجل التقليـــل من الأشعـــة تحت الحمراء. أما السائك الذهبية فإنها تستخدم في معـــدات القيـــاس و القياســـات الحرارية. إضافة إلى حامض "Chloraurique" الذي يستخـــدم في مجـــال التصويـــر من اجـــل استخـــراج الصور الفضيـــة [1].

لقد توصلت لحـــد الآن لاستنتاج أن معـــدن الذهب قد تعددت مجالات استعماله، وكثر الاهتمام به، خاصة من الناحية الطبية، و لم اكن أتصوره بنفس حجم الاستخدام الصناعي والفني. ففي المجال البيولوجي اهتم العلماء بنظير معدن الذهب الذي هو محل البحث الطبي إلا أن الذهب الإشعاعي يستخدم فيما يسمى بـــ : "scintigraphie hépatique" أي في عملية الكشف عن الأمراض التي تصيب الكبد [2]. أما الميدان اكثر شيوعا هو طب الأسنان الذي ما زال الطلب عليه مستمراً و بشكل مكثف. و الجدير بالذكر أن الرومان قد سبقوا الطب الحديث في هذا المجال بآلاف السنين . فلقد توصلوا إلى استبدال الأسنان بالذهب منذ اكثر من 2000 سنة. و في هذا النوع من العلاج يلجأ الأطباء إلى استخدام رقائق الذهب و الأنواع الأخرى، كما يستخدم في حشو الفجوات، وصنع الجسور و التيجان [3]. كما أثبتت دراســـة حديثـــة لجون فوكلر من فرع الكيمياء بجامعة تكساس، أن بعض شذرات الذهب تنتج عندما يصيبها الضوء إشعاعا فلوريـــا يدوم مليون مرة مدة أطول من التي تشـــع خلالها المعادن الأخرى. هذا الاكتشـــاف الذي لا يزال سببـــه غير مفهـــوم، له تطبيقات مدهشـــة في المجال الطبي خاصة في علم الجينـــات والكيمياء. حيث أن إشعاع مثل هذه الشذرات تغيـــر من لونها تبعا لطبيعة الذرات المحيطة به [4].

---

1. الموسوعة العربية العامة، ص.650.
2. أنظر. Or, in Encyclopédie « Encarta 1998 ».
3. الموسوعة العربية العامة، ص.650.
4. أنظر « Le mystérieux éclat de l'Or », in Science & vie, numéro 1001, février 2001, p.15.

و بالتالي يمكن الكشف عن وجود عناصر كيماوية حتى لو كان تركيزها ضعيفا. هكذا فبإدخال الذهب في خلية حية يمكن بفضل أشعته، تحليل المكونات الكيماوية و الكشف عن أمراض محتملة [1]. فمعدن الذهب لا يستهان به في مجال الطب. إضافة إلى هذه الاستعمالات، نصح علماء الكيمياء القدامى باستعمالات عديدة لمتثبت عدم صحتها بشكل قاطع. و من هذه المواصفات: إذا امسك الذهب في الفم، يزيل البخار. و إذا ثقبت الأذن بإبرة من ذهب لم تلتحم. ومن كوي به لم ينقط *، و إذا اكتحل به، حدّ البصر [1].

في المجال الفني برهن التاريخ على أن الإنسان قد اهتم بعملية "التذهيب" أو ما يسمى بالطلاء الذهبي و هذه العملية تتمثل في وضع رقائق الذهب الرفيعة ثم يضغط عليها ثم تصقل لتثبيتها. و هذه العملية تجعل و كأن الأشياء أو التحف فعلا مصنوعة من الذهب، ولذا لجأ إليها الإنسان منذ ما يقرب من 5000 سنة. كما لجأ العرب قديما إلى استخدام الذهب في فن الكتابة بتحليل أوراق هذا المعدن بالعسل و إضافة الصمغ المحلول له بعد تصفيته، ثم يلجأ للكتابة به[2].

هكذا بإمكاني القول أن الذهب توسعت مجالات استخدامه، فمن المجوهرات إلى العملة و من الزخرفة إلى الطب إلى علم الطيران و الفضاء . غير أن أهم شيء يمكن أن أضيفه والذي مازال يثير اهتمام العديد من رجال الكيمياء، الذين كانوا دائما يبحثون عن طرق استخراج الذهب بشكل اصطناعي، و الذي تحققت فيه أهدافهم عندما توصلوا إلى استخراج الذهب من ماء البحر، حيث تم الحصول من طن واحد من ماء البحر و بعملية كيميائية بسيطة على قمحة من الذهب، و يعتقد العلماء أن ما هو ذائب منه في البحر يزيد عما استخرجه الناس من الأرض[3].

---

1. أنظر: Le mystérieux éclat de l'Or », in Science & vie, n° 1001, p.15.
2. لم يترك أثرا أو بقعة في الموضع.
3. أبو الحسن (ابن على الحكيم)، المرجع السابق، ص.39.
4. الموسوعة العربية العامية، ص.650.
5. دائرة المعارف، الجزء الثامن، الذهب، ص.382.

إن عملية استخراج الذهب تضع المنقبين أمام سؤال يتوقف على الإجابة عليه ثراؤهم الفاحش أو ترديهم في أحضان الفقر المدقع.

هذا السؤال المهم، يتمثل في القدرة على تمييز الذهب الحقيقي من الذهب الوهمي. فكثير صدّقوا ما حسبوه ذهبا و لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن أحلامهم في الثروة قد تبخرت عندما تبين لهم أن ما اعتبروه ذهبا لم يكن في الحقيقة إلا معدنا أصفرا لا قيمة له. هذا المعدن الذي بات يعرف بالذهب الموهوم ما هو في حقيقة الأمر سوى معدن البيريت. و لما كان معدنا أصفر اللون و ذا بريق متألق فإن من السهل الانخداع به و ظنه عرقا من الذهب الفطري، أي الموجود في الطبيعة بحالة صافية و غير متحد بغيره.

وثمة سبب آخر يوقع المنقبين في الخطإ و هو أن الذهب الفطري نفسه غالبا ما يوجد حيث يوجد البيريت. و الذهب الفطري يوجد بصورة رئيسية في عروق الكوارتز و كتل البيريت و بعد أن تبلي المياه و الرياح الكوارتز و البيريت تتحرك كتل الذهب الخالص و ينحرف إلى أعمـــاق الأوديـــة و تمتـــزج بالرمل و الحصى و بهذا الشكل يعرف الذهب باسم الذهب الغرين أو الراسب. و كان هذا النوع أول ما عثر عليه البشر من هذا المعدن الثمين [1].

و من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن لمعدن الذهب قصة مع الحضارة. فلقد احتفظ التاريخ بأهميته كما احتفظ الزمن بلمعانه، و احتفظت النار بصفائه.

---

1. شيخاني (سمير)، "الموسوعة العالمية"، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر، 1994، ص.91.

ب. مواطـــــــن الذهـــــب

موضوع مواطن الذهب الإفريقي جاء ذكره في عدة كتابات سواء كانت عربية أم غربية، و ما يثير الانتباه حول هذا الموضوع تلك الصعوبات التي ميزت تحديد هذه المناطق التي كان يستخـــرج منها الذهب الذي كان ينقله العرب و البربر باتجاه الشمال، عابرين به الصحراء و متحدين به كل المخاطر. هذه الصعوبات تكمن في كون أن معدن الذهب ارتبط بطقوس وعادات المجتمع الإفريقي التي فصلت في أمره و منعت الاقتراب منه و معرفة مصدره.

و لقد استحال على الباحث الإطلاع على خبايا هذه المناطق و التدقيق فيها لولا بعض النتائج التي حققتها البحوث الأثرية المتعلقة بالدراسات الإفريقية من جانب، و نتائج الدراسات الجيولوجية من جانب آخر، و التي بينت منذ الوهلة الأولى أن الأفارقة قد عرفوا أن الرمل الذهبي يظهر في رمال الأنهار بعد تساقط الأمطار و هو ما تؤكده الدراســـات التي قام بها J. Baptiste KIÉTHEGA [1] حيث توصل إلى تحديد مناطـــق تواجد الذهب في غرب إفريقيا من خلال طابع التكوين الجيولوجي لطبقـــات الأرض، و التي يعود تاريخها إلى العصر الجيولوجي الأول، و هذا بعد أن تشكل الراسب الغريني الـــذي يحتـــوي على شذرات ذهب غرب إفريقيـــا، و من هذه المناطـــق التي دخلت ضمن هـــذا التكوين الجيولوجي غربا، كلا من غينيـــا وليبيريا، شمالا السينيغال و مالي و بوركينا فاســـو، أما شرقـــا فنجـــد كل من غانة والطـــوغو [2].

---

1. في كتابيه :
   1 - KIÉTHÉGA (J. B.), « L'Or de la Volta Noire », :
   2 - « Le Cycle de l'or au burkina ».- :
2. أنظر LAURE (M.), « Les métaux précieux dans l'art d'Afrique Noire », éd. Sékia, 1997, p.17.

و جرف المياه للتربة هو الذي تسبب في إظهار شذرات الذهب و لا توجد أية تقنية من شأنها أن تنبيء بوجود ذلك الراسب الغريني الذي يحتوي على الذهب إلا تلك الظواهر الطبيعية المتمثلة في الزوابع الرملية و هذا ما تحدثه الصدف، و هذا الأمر لا يخلو من الخرافات والأساطير، التي سيطرت سيطرةً كلية على مناطق تواجد الذهب، فلقد اعتقـد التجار العـرب و البربر و الأفارقة معا أن هناك نباتات تحمل معها الذهب، بل أكثر من ذلك أن الذهب ينبت في الأرض كأي نبتة ذات أوراق و جذور، و هذا ما لا تتقبله التحاليل و المنطق العلمي في وقتنا الحالي[1].

و إذا حاولت المقارنة بين ما هو مكتوب بالعربية نقلا عن مصادر الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة، ألاحظ أن الغموض يبدو واضحا منذ الوهلة الأولى حول هذه المصادر، لكن الدراسات الغربية الحديثة حاولت مقابلة هذه النصوص و ما هو موجود في الطبيعة لوضع تصور جديد للموضوع، و المسلك الوحيد الذي وجدته مجديا لهذه الدراسة، هو نتائج البحوث الجيولوجية التي سمحت لي بتتبـع الطريق الذي سلكه هذا المعدن الأصفر و الذي أعتبر العنصر الأساسي و الهام في حياة الأفارقة عموما.

و من أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات هو أنه غالبا ما يقترن اسم القارة الإفريقية بمعدن الذهب، و هذا ما أكد واقع احتياط القارة من معدن الذهب، و الذي حدد تواجده في ثلاث مناطق كبرى إفريقيا الغربية، النوبة و إثيوبيا، ثم إفريقيا الجنوبية و زمبابوي[2].

---

1. أنظر: LAURE (M.), op.cit, p.18.
2. Ibid, p.17.

أما بالنسبـــة للجزء الغربي الذي يهمني في هـــذه الدراســـة فقد وجـــدت أن تكوينـــه الجيولوجي يحتـــوي على أنهار قديمـــة، خاصـــة في جـــزء كبير من الســـودان وغينيـــا الغربيـــة، و الذي يـــحدد أكثر في المناطق الواقعـــة في أعالي السنغـــال التي كانت تشكل بمجاريهـــا المائيـــة في العصـــور الوسطى، ما كان يسمـــى بجزيـــرة الذهب* ، والتي كانت تحتـــوي على المناطـــق المعروفـــة حاليا ببمبـــوك، أو الونقـــارة عند الرحالـــة و التجار العرب، و هي التي تقع بين " Le Bafing " و " Falémé " وهي من أهم روافد نهر السنغـــال. أما المنطقـــة الثانيـــة و هي التي تدعـــى بـــوري، وهي في أعالي نهـــر النيجر (1).

و هذا الأمر يؤكد مرة أخـــرى ما أشارت إليه الدراسات الحديثة من أن الذهب الإفريقي ذو تكوين جيولوجي قديم، أي على شكل الغـــرين الذهبي الذي يميز المناطـــق السالفة الذكر، والذهب الموجـــود في هذه المناطـــق لا يعثر عليه على شكل عروق معدنية حقيقية، بل في شكل الغرين الناعـــم الذي يحمل الذهب، و الذي يعرف بوجود صخـــر الكوارتز، الناجم عن انحلال الأصلي الحاوي على الذهب(2)، و هذا بعد أن تساهم الطبيعـــة بعمليتها الكيماويـــة و الميكانيكية في تحرير تلك الحبيبات التي تترل إلى غاية مستـــوى الصخـــور غير المتحولـــة، مشكلا بذلك الغريـــن الذهبي الذي بدوره يتعرض إلى عامل النقـــل من خلال السيول الجارفـــة التي تحط به في قـــاع الأنهار مشكـــلا بذلك الراسب الغريني و هذه الطريقـــة تشكل عبر العصـــور ما يسمى بمناجـــم ذهب إفريقيـــا السـوداء عامة (3).

---

* ذكرها الإدريسي، و في الواقع ما هي إلا المنطقة الواقعة بين روافد نهر النيجر و السينيغال.
1. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », Paris, Karthala, 1994, pp.87-89.
2. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.226.
3. انظر KIÉTHÉGA (J. B.), « L'Or de la Volta Noire », p.33.

حاول الرحالة العرب تحديد مواطن الذهب، لكنهم انساقوا وراء تلك الروايات التي كان يمليها عليهم الأفارقة، و التي كانت بمثابة اللغز الثاني الذي أضفى على معدن الذهب طابع السرية التامة حيث لا يستطيع أي أحد في الفترة المحددة لهذه الدراسة و حسب آراء كل الدارسين للموضوع المكان الذي كان يستخرج منه معدن الذهب، و ما ذكره العرب ماهو سوى روايات و أساطير من نسج خيال تلك القبائل، التي أرادت إبعاد أنظار العرب و البربر عن مواطن الذهب الحقيقية، خوفا من الاستحواذ عليه، و لهذا كان الأفارقة حريصين على ألا يقرب أي أجنبي مصدر ثروتهم [1].

و من بين أهم الرحالة العرب الذين أشاروا إلى بعض هذه المواطن، البكري الذي يعتبر من أهم الرحالة الذين أشاروا و بدقة إلى هذه المواطن، و لكن سرعان ما تنتقده العديد من الدراسات الغربية الحديثة، و التي اكتشفت أن البكري و غيره كانوا بعيدين كل البعد عن مواطن الذهب و لا يعرفون شيئا عن طرق استغلاله، و ربما هذا ما دفع البكري إلى أن يكتفي بذكر تلك المناطق دون إعطاء التفاصيل الدقيقة عنها، إن كانت منجما للذهب أو مستودعا يعاد تسويقه منه. و أهم ما ذكره البكري قوله : " إن أفضل الذهب ما كان بمدينة غياروا" كما يضيف قائلا :" إن حوالي مدينة كوغة معادن التبر كثير و هي أكثر بلاد السودان ذهبا" [2].
أما الإدريسي فبالرغم من ابتعاد فترته عن فترة البكري فإنه بشير إلى منطقة أكثر أهمية من غيرها و التي كانت محل ذكر العديد من الدراسات الغربية و الإفريقية و هي منطقة ونقارة و التكرور. و يقول في هذا الصدد : " و بلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة و الكثرة، و فيها بلاد معمورة و معاقل مشهورة و أهلها أغنياء و التبر عندهم و بأيديهم كثير" [3].

---

1. انظر GIRI (J.) « Histoire économique du Sahel », p.87.
2. البكري، " المغرب ..."، ص.176-179.
3. الإدريسي، "نزهة المشتاق..."، ص.ص.24-25.

و حسب رأيي فإن هذا الوصف الذي وجهت له عدة انتقادات من طرف الدارسين الغربيين لم يقابلها التبرير العلمي الدقيق و هذا ليس تمجيدا للدراسات الغربية و ليس مدحا للكتابات العربية التي كانت بعيدة عن الواقع العلمي لهذا المعدن.

و لذا أصبحت الدراسات الحديثة سواء الجيولوجية أو الأثرية تؤكد عكس ذلك، فقد عرفنا أن الرحالة العرب كان منطلقهم الوصف الظاهري للأحداث دون معرفة باطنها، كما أن نقلهم للعديد من الروايات كان ساذجا، دون البحث عن مقارنة ذلك بواقع الأحداث و أمثلة ذلك عديدة عند كل من البكري و الإدريسي و ابن بطوطة. لأقول أنه حان الوقت لكي تخضع مثل هذه الروايات و الدراسات للتمحيص العلمي بشكل دقيق، ليستخدم النافع منها وترك ما هو أسطوري، و الذي كانت عقول العصور الوسطى تصدقه و تقدسه، بل شكل نمطا من حياتها، وهذا من أجل إعادة الاعتبار لمثل هذه النصوص العربية الثمينة التي أصبحت في غالب الأحيان المصدر الوحيد لكتابة تاريخ هذه المنطقة.

كما توصلت الدراسات الحديثة إلى فك لغز مواطن الذهب، الذي ذكر من طرف الرحالة العرب، خاصة فيما يتعلق بمنطقة ونقارة في إفريقيا الغربية و التي تعني أرض الذهب وتعني أيضا كل الناس القادمون من أرض الذهب. و هذا ما يفسر أن ونقارة كانت خزانا للذهب الذي كان يجلب من الجنوب و أن ونقارة لم تنتج الذهب بل كانت توزعه، حتى أن تجار الديولا كانوا ينقلون إليها الذهب من المقاطعات الجنوبية (1).

---

1. أنظر GIRI (J.), op.cit, p.89.

و بعد مقارنـــة هذه النصوص تبين لي أن البكري لم يشر إلى جالام و لا بامبوك ولا ونقارة، بل أشار إلى غياروا و كوغا، و أن الإدريسي لم يصف غياروا بل وصف ونقارة. و بالتالي استنتجت الدراسات الحديثة أن بامبوك هي ونقارة عند الإدريسي، و أن بامبوك أو غلام هي غياروا عند البكري. من هنا يمكن القول أن ونقارة التي ذكرها الإدريسي و التي هي غياروا عند البكري، تعني منطقة أعالي نهر السنيغال. كما يمكن القول أن الرحالة العرب كانوا ينقلون تلك الروايات دون إخضاعها إلى أية معاينة وتصحيح، و دفعت بهم إلى عدم معرفة هذه المواطـــن الحقيقية للذهب السوداني، بل أبعد من ذلك، حيث لم يذكر الرحلة العرب المناطق الجنوبيـــة للذهب التي كانت تزود و بشكل كبير أسواق المغرب. و كما أشير إلى أن التجار العرب و البربر لم يتوغلوا في منطقة النيجر، بدليل عدم وجود أية وثيقـــة أو وصف يثبـــت ذلك. و من أهم هذه المناطق نجد" Louby "و" Poura " [1].

و نتيجة لما سبـــق عرضه، هو أن الرحالة العـــرب لم يصفوا كل الغـــرب الإفريقي و لا حتى كل السودان الغـــربي فيما يتعلـــق بمواطن الذهب، بل إن ما أشاروا إليه، هو تلك المناطق التي كانت تلعـــب دور المحتكـــر و المخزن لهذا المعدن، و أن الإمبراطوريات التي تقوت شوكتها بفضل معدن الذهب، لم تكن فعلا هي المنتجة له، بل الموزعة و المحتكرة له، و أن تحديد هذه المناطق لم يحدث إلا بعد أن استطاعت الدراسات الحديثة الغربية و الإفريقية أن تعيد الإعتبـــار لهذ القارة و دراسة تاريخهـــا. وهذا حينما أدرجت هذه المواضيع ضمن الأبحاث الأثرية و الدراسات الجيولوجية.

---

1. أنظر KIÉTHÉGA (J.B), « L'Or de la Volta Noire », p.41.

في اعتقادي، و تبريرا لما سبق ذكره حول الروايات التي نقلها العرب، هو أن الونقارة أو رجال أرض الذهب حرصوا كل الحرص على حماية هذا المعدن من الغزو العربي البربري والأوروبي فيما بعـد، و هذا لأسبـاب عقائدية و اجتماعية و حتى اقتصادية، لأنه لا يمكن استبعاد واقـع مقايضـة الأفارقـة للبضائـع بتربة الذهب في أسواقهم المحلية قبل دخول العرب. كما يمكن القول أن العرب لم يكونـوا سببا في اهتمـام الأفارقـة بمعـدن الذهب بل كـان موجـودا قبل دخولهم. إلا أن ما ظهر جديدا هو الرفع من إنتاج هذا المعـدن، بعد أن زادت أهميتـه الاقتصاديـة في نظر الأفارقة، الذين قاموا بصفقات تجاريـة بينهم و بين المسلميـن، لتسمح هذه الظاهرة في نهاية الأمر لبعض التجار الوصول إلى أرض الذهب ومشاهدة الأفارقة العراة الذين كانوا يستخرجون الذهب من الحفر و الآبار التي تحفر في الأرض. لكن المسلم به هو أنني لم أعثر على أية رواية نقلها الرحالة العرب أو غيرهم تصف الطريقة التي كان يستخرج بها الذهب بشكل حقيقي و المقبولة علميا، لا الطريقة التي كان يباع بها، ما عدا التي رواها الإدريسي [1].

---

1. الإدريسي، "نزهة المشتاق ..."، ص ص.24-25.

ت. طرق استخراج الذهـــب السوداني

إن الدارس لتاريخ القارة الإفريقية يجد نفسه أثناء الإشارة إلى موضوع طرق استخراج الذهب أمام عدة إشكاليات، منها ما لها علاقة بعادات و تقاليد الأفارقة و منها ما هو مرتبط بالتجار العرب و البربر الذين كثيرا ما حاولوا الحصول على معدن الذهب بشكل سهل. ومن الأسئلة التي راودتني في هذا الموضوع، ماهي الطرق التي اعتمد عليها الأفارقة لاستخراج الذهب من معدنه ؟ إنه ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال، لأن الشكل الأسطوري الذي أحاط بهذا المعدن في بعض الروايات، يفتح مجالا للاعتقاد بأن العرب كانوا بعيدين عن مواطن الذهب الإفريقي و جاهلين بطرق استغلاله، و اقتصر علمهم على تلك الروايات التي ترددت على ألسنة الأفارقة الذين كانت رواياتهم هادفة و مقصودة. إلا أنه و من باب الطابع الجيولوجي لتكوين سطح السودان الغربي خاصة، و في إفريقيا الغربية عامة، أعتقد أن وصف الإدريسي لعملية استغلال الذهب مقبول مقارنة بما ذكر من طرف الرحالة العرب الآخرين.

و أظن أن هذه المناطق التي أشار إليها الإدريسي هي، حسب كييتقا : منطقة "Bambuk" الواقعة بين السنغال شمالا و "Tinkisso" جنوبا و "Faleme" غربا و النيجـــر شرقـــا[1]. و يقول الإدريسي في هذا الصدد : "فإذا كان في شهر أغشت و حمى القيظ و فاض النيل و غطى هذه الجزيرة [...] رجع كل من في بلاد السودان منحضريـــن إلى تلك الجزيرة بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل [...] هناك من أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر..." [2].

هذه الطريقة، حسب التحاليل الحديثة تتعلق بعملية استخراج الذهب من ترسبات الأنهار أو التي تجرفها السيول.

---

1. أنظر KIETHÉGA (J.B), « L'or de la Volta Noire », p.42.
2. الادريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ص.ص24-25.

و العملية الثانية تتمثل فيما ذكره كتاب الاستبصار عن بلاد السودان، حين يقول : "و في هذه البلاد معادن الذهب، ترابه أحمر يستخرج كما يستخرج الحديد و الرصاص و النحاس والفضة ببلادنا"[1]. و هذا يتطابق مع ما ذكره موريس لومبارد " Maurice LOMBARD" حينما يصف عملية استغلال الأهالي للذهب في كل من أعالي السنغال و غينيا و سيراليون و في ساحل الذهب، يتم تحت طبقة من تربة حمراء اللون، التي تغطي معظم البلاد [2].

كما يقودني ابن الفقيه إلى أسطورة ذهب إفريقيا حين يقول : " وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر و يقطف عند بزوغ الشمس" [3]. و في هذه الرواية يذكر ابن الفقيه بلاد غانة دون تحديد مواقع الذهب فيها، إن كانت داخل الإمبراطورية أم في المناطق التابعة لها. و لقد تبين لي من خلال البحث أن غانة ليست المنتجة للذهب الذي كان يستخرج في المناطق المجاورة لها، بل الموزعة له. أما النقطة الثانية التي أخالف فيها قول ابن الفقيه، تشبيه معدن الذهب بنبات ينبت في الأرض، لا أدري إن كان يقصد منها التشبيه فقط للدلالة على الوفرة، أم رددها كما نقلتها الألسنة الإفريقية. وحسب ما توصلت إليه الدراسات الحديثة فإن معدن الذهب و عملية تواجده واستغلاله و استخراجه من الأرض بعيدة كل البعد عن هذا التصور، فهي تخضع إلى مقاييس علمية متعامل بها على المستوى العالمي، و في غالب الأحيان لا تختلف في العديد من هذه المناطق أو غيرها عن الطرق المتبعة اليوم.

---

1. الاستبصار، المصدر السابق، ص219.
2. أنظر. LOMBARD (M.), « Les Métaux Précieux Dans L'ancien Monde », p.53.
أنظر شكل استخراج الذهب في الملحق.
3. ابن الفقيه، "مختصر كتاب البلدان"، ص87.

إن هذا الوصف العام لوجود الذهب و استغلاله في المنطقة لم يقتصر فقط على ابن الفقيه بل حتى النصوص الغربية أشارت إلى أن ملتقطي الذهب خلال العصور الوسطى يتعرفون على وجود الذهب من خلال بعض النباتات التي تظهر على السطح، و من المعقول أن يكون هذا صائبا لأن التبر بعد انحسار المياه يبقى عالقا ببعض النباتات المائية و هي تلمع ليلا و بها يستدل على وجود الذهب. كما أن هذا الاعتقاد مازال سائدا إلى يومنا هذا. هذه النباتات التي أشير إليها هي : (La Bauhinia – Ebénacée - La Berliana) [1].

كما ذكرت بعض الروايات الإفريقية الأخرى أن هناك نوعين من النباتات تظهر في الفترة الممطرة، و التي تغوص في الأرض بجذورها السميكة التي تشبه الصخور، و التي هي في الواقع من الذهب الخالص و إذا قارنت بين هذا الاعتقاد و ما سبق ذكره أجد فيه تشابها كبيرا. و هذا ما يدل على أن العرب و البربر نقلوا عن الروايات التي رددها الأفارقة طرق استخراج الذهب سواء كان هذا الاعتقاد صحيحا أم خاطئا، لاستحالة وصولهم إلى مصادر الذهب الحقيقة.

و أستخلص مما ذكر أن الذهب السوداني يستخرج بطريقتين :

1. فالأولى تتمثل في الحصول عليه من ضفاف الأنهار، و هذا ما اعتاد عليه الإفريقي الذي تعلم، ومن خلال التجربة، أن الذهب الأسهل استغلالا هو ذلك الممزوج ببعض الصخور و الترسبات القديمة و المغطاة بالترسبات الحديثة الجارية في الأنهار و يقصد هنا انجراف أسرة الأنهار القديمة.

---

1. انظر LAC OURT (G.), « L'histoire du Commerce… », T3, p 55.

و حتى هذا التكوين الجيولوجي لم يخل من الوصف الأسطوري لدى الأفارقة، حيث ربطته الأسر الإفريقية بذلك الثعبان الذهبي الذي تسرب إلى أعماق الأرض تاركا و راءه جلدته التي تشكل الذهب المعثور عليه، و التعرجات التي يشكلها الوادي هي نفس إلتواءات الثعبان أثناء حركته.

1. الشكل الثاني الذي وجد عليه الذهب طبيعيا، يتمثل في العروق المعدنية (عروق الذهب) و هي أكثر انتشارا في كل من جالام و بامبوك (Galam et Bambuk) وهي تقنية قديمة لدى الأفارقة و وسائلها بسيطة و هي على مسار طول العام [1].

هذا ربما ما سهل للأفارقة الاهتمام بهذه الحرفة بشكل كبير جدا، مما أدى إلى طغيان الطابع الحرفي على طرق و مواطن معدن الذهب، و لذا قبل التحدث مباشرة عن عملية استخراج الذهب علي بالعودة إلى الطقوس المتحكمة في هذه العملية كما سبق ذكره، كون معدن الذهب كما هو شائع في إفريقيا تسيره معتقدات هذا المجتمع، و من أهم هذه الطقوس تلك التي تشير إلى أنه قبل الانطلاق في عملية حفر الآبار أو المناجم يجب إحضار ما يسمى عند الأفارقة بـــ : " Jabalalon " أو ما يسمى بالساحر الذي يقوم بتأدية التعزيم لتطهير المكان المراد استغلاله من الأرواح الشريرة، لأنهم يعتقدون أن الذهب الموجود في أعماق الأرض ملك للجن، و لتفادي كل خطورة أو التعرض إلى أي أذى تقول العادة أنه لا يجب على أي فرد أن يقبل و هو في لباس فاخر، أي أن عملية استخراج الذهب تلزم العمال القدوم بلباس متواضع لكي لا يستفز الجن الذين هم أغنى من الإنس. بعد هذه المرحلة يقدم العمال على تناول الطعام الذي باركه الساحر، وبعده يعطي هذا الأخير إشارة الانطلاق في حفر الآبار التي يستخرج منها الذهب [2].

---

1. انظر LACOURT (G.), « L'histoire du Commerce… », T3, p.56.
2. انظر BATHILY (A.), « Les Portes de l'Or… », p76.

لوحظ من خلال الدراسات الغربية و الإفريقية أن الذهب كان يستخرج بأبسط الوسائل، دون اللجوء إلى أية تقنية تتطلب الدقة في الوصف أو التحليل [1]. و يذكر موريس لومبارد "أن استخراج الذهب من الأرض يتطلب حفر آبار دائرية الشكل في الأرض ودهاليز منجميـــة مدعمة بأخشاب" [2] يصل عمقها أحيانا ثمانية أمتار. و هناك من أشار إلى أن قطر هذه الآبار يصل إلى 0,80، هذا ما يسمح للعامل بالصعود و النزول واضعا رجليه في الثقوب المحفورة على جدران البئر، التي تؤكد عدم استخدام السلالم [3].

كما أجمعت الدراسات التي تطرقت إلى هذا الموضوع أن عملية الحفر هذه، قد شكلت خطورة كبيرة على ملتقطي الذهب، بسبب انهيار أسقف الآبار في العديد من المرات وهذا ما يشير إلى أن هذه المناطق كانت تستغل بشكل كبير، دون الأخذ المخاطر بعين الاعتبار. مما دفع ببعض العائلات إلى انتظار فترة الجفاف للبدء في عملية حفر الآبار، لتفادي اللاإنهيار و المياه الصاعدة.

و لكون هذه الآبار المنجمية ذات الدهاليز العميقة و ذات الإستخدام التقليـــدي كانت تتطلب يدا عاملة مكثفة، فقد تم اللجوء إلى النشاط التعاوني أو ما يسمى اليوم في بعض المناطق بـــ"التويزة"، حيث يتم جمع أفراد العائلة، أو القبيلة رجالا و نســـاءً تحت إدارة رئيس وحدة الإنتاج [4].

---

1. أنظر GIRI (J.), « L'Histoire économique du Sahel », p.97.
2. أنظر LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien Monde du 9 au 10 siécle », Paris mouton et Cie,1974, p208.
3. Ibid , p18.
4. أنظر : BATHILY (A.), op.cit, p.175.

كما يتم أيضا في شكل جمعية من الرجال و النساء قررت أن تسخر جهودها في التنقيب عن الذهب مشتركة. أو يتم عن طريق مؤسسة صغيرة تجارية " Jula " التي تستخدم العبيد برئاسة السيد. هذا العمل يتم عموما بالفرق الجنسي بين الرجال الذين يحفرون الآبار ويستخرجون التربة و الصخور التي تحتوي على حبيبات الذهب و النساء اللاتي تحملها في إناء خاص Calebasse * لغسلها بمياه النهر [1].

و لقد أشار هيرودوت منـــذ القرن الخامس قبل الميــلاد إلى مثــل هذه العمليات وقال أنه يوجد في حوض من هـــذه الجزيرة و الفتيات يخرجن شذرات الذهب بواسطة ريش الطيور، ونجد هنا أن الروايـــة ينقصهـــا نوع من الدقـــة، لأن حبيبـــات الذهب توضـــع على ريش "Calao " ** بعد استخراجها و لا تستخرج بها. و يشير العمري إلى أن الفتيات يفتخرن بما وجدن من ذهب بوضع ريش هذا الطائر و ما حمله من ذهب على رؤوسهن و الملاحظ هو ابتعاد هذه الرواية عما ذكر من طرف العديد من الدارسين، و هو أن حبيبات الذهب توضع على ريش طائر الكالاو و لا يستخرج به، و هذا ما أكده GAYET نقلا عن العمري، أن الفتيات يفتخرن بوضع ما وجدن من ريش الطائر لتزيين رؤوسهن [2].

---

* Calebasse : هو الإناء الذي تستخدمه المرأة في إفريقيا لغسل الطمي الذهبي. هذا الإناء مصنوع من نبات الكرنيب المجفف.

1. BATHILY (A.), op.cit, p.175.
2. GAYET (L.), op.cit, p.35.

** Calao : طائر يدعى أبو قرين.

كان استغلال العروق المعدنية يتطلب مجهودا أكبر و يشكل صعوبات كثيرة منها قلة الماء و الأمن. ففي بعض المناطق الصلبة في فترات الجفاف، يتطلب الأمر أحيانا قطع مسافات طويلة لبلوغ مجرى " Falèm " أين توجد المياه لغسل التربة، و التي هي من مهام المرأة بالرغم من صعوبتها. و في بلاد "Malinké" نجد أن المرأة هي التي كانت تقوم بإحضار الماء إلى مكان الاستخراج، لكن مع (Les Julas) الأثرياء يقومون بنقل الماء على الدواب[1]. أما الصعوبة الثانيـــــة فتتمثل في انتشار الأمراض الطفيلية " Trypanosomiase" الموجودة في أعالي بمبوك " Bambouk "[2].

و بالرغم من صعوبة الاستخراج التي تتمثل في حفر الآبار، تفريغ الماء المتسرب إلى الآبار المحفورة، والحاجة إلى الماء لغسل التربة الغرينية ثم انهيار أسقف الآبار، إلا أن الرغبة في الاستمرار في البحث تبدو أنها بسيطة، من أجل تحقيق هدف واحد وهو العثور على كتلة ذهبية من شأنها أن تغني الفرد طوال حياته [3].

وبمجرد العثور علي الكتلة الذهبية , يصيح العامل وبصوت عالي :"وجدت!" وكل العمال يرددون من وراءه نفس العبارة ثم يسرعون إليه لمشاهدة ذلك , لتبدأ مباشرة الطقوس بإحضار الحيوان بحجم التبرة, تقول الرواية بحجم البقرة أو الخروف أو الماعز ولكي لا أكون مبالغة في ذكر هذه الرواية أظن أن الحجم يتناسب و القيمة ذهبا وليس الوزن. وما توصلت إلية خلال البحث هو أن مثل هذه الروايات هي التي حالت دون توصل المؤرخين إلى التقدير الصحيح لكميات الذهب المستخرجة من مناجم السودان. وبعد نحر الحيوان تصبح تلك الكتلة الذهبية ملكية تابعة لصاحبها بدون أي منازع، و هذا ما لا يتماشى مثلا و رأي البكري، الذي يحصر ملكية التبرات في ملك غانة [4].

---

1. أنظر BATHILY(A.), op.cit, p.175.
2. أنظر كذلك Ibid, p.175.
3. أنظر MAUNY (R.), « Tableau Géographique... », p.296.
4. البكري، " المغرب..."، ص. 81.

أما ما ميز طريقة استخراج الذهب في السودان الغربي, هي العملية الأخيرة و التي تتمثل في .غسل تربة الذهب في أوان مقعرة مصنوعة من اليقطينة و تسمى باللغة الفرنسية " Calebasse" و التي تغمر بالماء على طول الدهليز في قعر المدخل أين يقوم العامل بالغسل الأولي ثم ينقل التراب الغني بشذرات الذهب إلى طاسة العامل المقابل ليرفع إلى السطح أين تقوم النساء بعد الظهر بالغسل الأخير في الأحواض المائية القريبة من المنجم و بهذه العملية يتم استخراج الذهب [1] .و ذلك بتحريك الطاسة بشكل دائري بسرعة و خفة و مهارة و هذه الطريقة هي التي يطلق عليها بالفرنسية " La Battie " و تحتفظ بالذهب المستخرج في قطع من القماش أو على ريش طائر أبو قرين "Calao". و هناك من الروايات من أشارت إلى أنه عندما يتعلق الأمر بصخور الكوارتز، يلجأ العامل إلى تسخين الصخور و رمي الماء عليها لكي تتشقق. و بعد تفتيتها و تحويلها إلى تربة تتعرض إلى الغسل بنفس الطريقة المذكورة سابقا، مساءً أثناء عودة العمال إلى البيت[2]، و هذا ربما لكي لا يكشف عن الطريقة المستخدمة.

و هكذا تتم عملية الاستخراج التي نستنتج منها أنها كانت محاطة بالعديد من الطقوس التي تميز طابع المجتمع الإفريقي في وثنيته إضافة إلى أن هذه العملية تتم بشكل فردي وجماعي دون تسجيل حضور أي كيان يمثل الدولة أو سلطتها، ما عدا في بعض الإشارات البسيطة التي سبق ذكرها. و هذا ما يؤكد، حسب رأيي، احترام الأفارقة لسلطة دينهم أكثر من سلطة ملكهم، الذي استجاب لرغبة المجتمع و معتقداته دون فرض سلطته عليه في هذا المجال.

---

1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.226 .
2. أنظر MAYER(L.), « Les Métaux Précieux dans L'art de l'Afrique Noire », p18.

2. التنافس المغـربي على مسـالك الذهـب

إن جميع البحوث و الكتابات التي تخصصت في دراسات التاريخ السياسي للمغرب الاسلامي الوسيط ,تعرضت بشكل أو بآخر إلى قضية الصراع السياسي و التنافس الحاد الذي قادته قوى عربية و بربرية خلال القرن 9 و 10م على وجه الخصوص. و حاولت هذه الدراسات تحديـد الأهداف التي من أجلها تصارعت و تنافست هذه القوى فيما بينها. و إذا كان الهدف اقتصاديـا كما هو الحال في هذه الدراسـة، ينبغي البحث عن السبل التي انتهجها هذه الإمارات من أجل بلوغ الأهداف الاقتصاديـة والتي كانت تخفي من ورائهـا أغـراض تكون لا محالة سياسيـة. حيث لا يمكن لأي مهتـم بموضوع تجـارة الذهب أن يتجاهـل الأهمية الكبرى التي أولتها إيـاه كل القوى السياسية التي شهدهـا المغرب الإسلامي انطلاقا من بني الأغلب إلى الرستميـين و الفاطميين ثم إلى الأدارسـة و المرابطيـن. ولقد شهدت هذه الأسـر صراعا حادا فيما بينها من أجـل الاستحـواذ و التحكم في كل المسالك التي عرفت هذا النوع من التجارة المتوجهة جنوبا.

أ. الاغالبة :

أن اهتمام دولة بني الأغلب* بشبكة الطرقات[2]، و الحياة الاقتصادية عامة، لا يدع مجالا للشك بأنها اهتمت اهتماما كبيرا بالذهب السوداني قبل اشتداد التنافس السياسي بين العباسيين و الإمارات الأخرى.

---

* دولة بنو الأغلب تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمي، و التي حكمت من سنة 184هـ/800 م إلى 296 هـ/908 م.

1. حساني (مختار)، "الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن 4 هـ/10م "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية و الآثار، السنة 1978/77، ص.102.

حيث نشطت الحركة الاقتصادية في مـــدن الأغالبة بإقامة الأسواق وتوسيع الآبار وتطوير مراكز التجارة و كانت ترسل القوافـــل إلى بلاد الســـودان جنوبا، عبر الطرق الصحراويـــة. و ما يلفت النظـــر إلى الأغالبـــة هو بناؤهم لمدينـــة العباسيـــة *، و التي أرادوا لها بدون شك أن تضاهي مدينة تاهرت، التي كانت قبلـــة التجار الوافديـــن من الســـودان.هذا ما يفسر رد فعل الرستميـــين اللذين رفضـــوا منافسة بني الأغلب لهم في المنطقـــة، و بالتالي إقدام افلـــح ابن عبد الوهـــاب على هدم العباسية عام 239 هـــ (1)، أي في نفس السنـــة التي بنيـــت فيها.إن دولة الأغالبة لم تكن تسع للبروز و التوسع فحسب ،بل حاولت فرض الإستقرار و الأمن الذين كان يفتقر إليهما المغـــرب قبل مجيء إبراهيم ابن الأغلـــب.و لقد نجحوا في ذلك بشكل كبير ،فازدحمت الطرق بالقوافل التجارية ، وتحولـــت القيـــروان إلى مركـــز تجاري رئيسي في العالـــم الإسلامي.

لم يقتصـــر نشـــاط القوافل على الذهـــاب من الشـــرق إلى الغـــرب و بالعكـــس، بل في ازدهار المدن و كانت القيـــروان طريـــقا يمر نـــحو غدامـــس، ثـــم إلى غـــات و يختـــرق الصحـــراء الكبـــرى نحو إفريقيـــا المداريـــة (2).

---

* العباسية : بناها أبو العباسي بن الأغلب عام 239 هـ/853 م ، و هي بالقرب من مدينة تاهرت.

1. مقلد الغنيمي (عبد الفتاح)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الثاني، مكتبة مدبولي، ط 1، 1414هـ/1994م، ص 236.
2. مؤنس (حسن)، "تاريخ المغرب و حضارته"، المجلد الأول، ج.1، ط1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1412ه/1990م، ص. 268.

ب - الرستميون :

إذا كانت الدولة الأغلبية لم تعش الصراع الذي عاشته الدول الفاطمية والرستمية على المحطات التجارية ، فإني ألاحظ أن الرستميين كانوا أحرص على توطيد علاقات جيدة مع جيرانهم من أجل خلق جو مناسب لتجارة القوافل خاصة منها، العابرة للصحراء. و أكثر ما يثير انتباهي هنا هو ربط علاقات تاهرت بدولة بني مدرار بسجلماسة بعد أن زوج اليسع بن إلياس * ابنه مدرار من أروى، ابنة عبد الرحمان بن رستم وضمان طريق سجلماسة من خلال هذه الروابط [1].هذا الطريق الذي استفادت منه الدولة الرستمية بشكل كبير ،حيث أصبحت بفضله تاهرت أهم محطة تجارية في المغرب الأوسط والإسلامي عموما [2].

ويبرز مدى حرص الدولة الرستمية على حماية أهم الثروات التي جعلت منها قبلة التجار من خلال توسعها و محاولة الحفاظ على حدودها ،هذه الحدود التي تمتد من دولة الأغالبة شرقا ، إلى الأدارسة شمالا و غربا. أما جنوبا فكانت تمتد على الطريق الصحراوي الذي يصل بين جبل نفوسة جنوبي طرابلس و المغرب الأوسط.إن اتساع الحدود يدل على القوة الاقتصادية و السياسية لهذه الدولة [3]. لم يكتف الرستميون بإقامة علاقات وطيدة مع بعض الجيران بل دخلوا في صراع من أجل رسم الحدود السالفة الذكر . و لو أن هذه الفترة بعيدة عن المرحلة الزمنية التي يتناولها البحث، فإني أرى من الضروري تسجيل هذا الصراع في تاريخ دولة الأغالبة و الرستميين الذي تميز دائما بعمقه الاستراتيجي ؛بعده الاقتصادي و النفوذ السياسي.

---

* حاكم دولة بني راسول و هي صفرية معتدلة، سجلماسة.

1. سالم (عبد العزيز)، "المغرب الكبير"، ج.2، بيروت، دار النهضة العربية، 1981 م، ص.572.

2. حساني (مختار)، "الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي"، ص.12،

3. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ص. 52.

و ما يثير الانتباه عند التطرق إلى الدولة الرستميـــة هو الدور الذي لعبه التجار الإباضيون في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط ، خاصة بعد أن أبدت هذه الجماعة تسامحا مع الجماعة الصفرية في المبادئ المذهبية، لأن الذي يهم هو متاجرهم ،و بالتالي توثقت العلاقات بينهم، و لم تستثن في هذا المجال الخوارج الآخرين في الصحراء [1]. ليبرز دورهم أكثر بعد ما حققته تاهرت من توسع داخلي، حيث أصبحوا خلال القرن 10م سادة كل المسالك المؤدية إلى القصور من جنوب المغرب إلى غاية خليج قابس كما استحوذوا على محطات قوافل الذهب التي تعتبر محطات لالتجارة الصحراوية كجبل نفوسة، سجلماسة مرورا بورقلة [2].

و أهم ما يمكن الإشارة إليه هنا هو منافسة الرستميين للأغالبة في أملاكهم في نفوسة التي تمكنوا من محاصرتها ، و دفعوا الأغالبة في النهاية إلى المهادنة، احتفظ هؤلاء بمدينة طرابلس والساحل بينما وضع الرستميين أيديهم على ضواحي طرابلس و الصحراء [3]. وسيطرة الرستميين على الطريق الصحراوي كان ضمن الأهداف الكبرى لاحتكار التجارة السودانية و كسر طوق المنافسة على الطرق نحو السودان الغربي. و كانت أبرز آلياتهم لتحقيق هذه الأهداف هي : اصلاح الطرق وحفر الآبار و تعميرها و تنظيم الشرطة لحفظ الأمن خدمة للحركة الاقتصادية و التجارية. و بلغ من حرصهم على أمن تجارتهم أن الحاميات كانت تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بتوديعها عند اجتياز حدود إمارتهم [4].

---

1. مؤنس (حسن)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، القاهرة، دار مطابع المستقبل، ط.1، 1980، ص.106.
2. LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », P.230.
3. عبد العزيز سالم : نفسه، ص.568.
4. غنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م.1، ص ص.55-57.

و ما يثير الانتباه عند التطرق إلى الدولة الرستمية هو الدور الذي لعبه التجار الإباضيون في إنعاش التجارة في المغرب الأوسط ، خاصة بعد أن أبدت هذه الجماعة تسامحا مع الجماعة الصفرية في المبادئ المذهبية، لأن الذي يهم هو متاجرهم ،و بالتالي توثقت العلاقات بينهم، و لم تستثن في هذا المجال الخوارج الآخرين في الصحراء [1]. ليبرز دورهم أكثر بعد ما حققته تاهرت من توسع داخلي، حيث أصبحوا خلال القرن 10م سادة كل المسالك المؤدية إلى القصور من جنوب المغرب إلى غاية خليج قابس كما استحوذوا على محطات قوافل الذهب التي تعتبر محطات لالتجارة الصحراوية كجبل نفوسة، سجلماسة مرورا بورقلة [2].

و أهم ما يمكن الإشارة إليه هنا هو منافسة الرستميين للأغالبة في أملاكهم في نفوسة التي تمكنوا من محاصرتها ، و دفعوا الأغالبة في النهاية إلى المهادنة، احتفظ هؤلاء بمدينة طرابلس والساحل بينما وضع الرستميين أيديهم على ضواحي طرابلس و الصحراء [3]. وسيطرة الرستميين على الطريق الصحراوي كان ضمن الأهداف الكبرى لاحتكار التجارة السودانية و كسر طوق المنافسة على الطرق نحو السودان الغربي. و كانت أبرز آلياتهم لتحقيق هذه الأهداف هي : اصلاح الطرق وحفر الآبار و تعميرها و تنظيم الشرطة لحفظ الأمن خدمة للحركة الاقتصادية و التجارية. و بلغ من حرصهم على أمن تجارتهم أن الحاميات كانت تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بتوديعها عند اجتياز حدود إمارتهم [4].

---

1. مؤنس (حسن)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، القاهرة، دار مطابع المستقبل، ط.1، 1980، ص.106.
2. LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », P.230.
3. عبد العزيز سالم : نفسه، ص.568.
4. غنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م.1، ص ص.55-57.

و هذا ما حدا بهم إلى النظر إلى أبعد من طرابلس، جبل نفوسة و جلماسة، أي إلى كيفية الوصول إلى عقر دار هذه التجارة أي السودان الغربي. و كان هذا الإتصال الرستمي– السوداني تجاريا، و ذلك عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان القاعدة الرستمية التجارية في الصحراء و التي كان أهلها يقودونها إلى غاية السودان [1].

تقول فريدة بن عزوز نقلا عن ليفتسكي : "أنه كان لتأسيس الدولة الرستمية بتاهرت و الصفرية بسجلماسة أثر بالغ في تطور العلاقات التجارية بين المغرب و السودان الغربي والأوسط [2]. خاصة بعد أن أظهر الطرفان اللذان ربطت فيهما تاهرت علاقاتها مع السودان الغربي و هم الطريق الغربي الذي يمر على سجلماسة، و الشرقي الذي يمر عبر ورقلة [3].

و مما يؤكد هذا الاهتمام الرستمي بالسودان و ضبط العلاقات التجارية معه، هو رغبة أفلح ابن عبد الوهاب في مرافقة قوافل أبيه التجارية إلى جاو، و التي أعادها ليفتسكي إلى أسباب جيو–اقتصادية و جيو–سياسية محددة، و ليس لفضول زيارة بلاد بعيدة بل من أجل عقد اتفاقيات لحماية المصالح التجارية، و ضمان استمرارية المسالك الرابطة بين جاو و تاهرت [4]. و لا يمكن لي أن أتصور مصلحة أهم من ضمان ورود المعدن الأصفر إلى المغرب.

---

1. سالم (عبد العزيز)، نفسه، ص.573.
2. بن عزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش ليفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد السودان"، ص. 457.
3. جودت (عبد الكريم يوسف)، "العلاقات الخارجية للدولة الرستمية"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص.248.
4. بن عزوز (فريدة)، نفسه، ص 458.

ت . الفاطميون :

و تدعم هذه العلاقات عندما أصبح الإمام أفلح حاكما على الرستميين، حيث عقد مع ملك كوكو في السودان الشمالي الغربي علاقات وديـــة حيث أهدى إليه هديـــة نفيسة ليوثق الصداقة بينهما، و يشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملته لهم. و كان محمـــد ابن عرفة [1]، الذي مثل رسوله إلى هذه البلاد، و لقد قضى ابن عرفة مدة غير قصيرة بجاو، ويعتبر من كبار الشخصيات الإباضية [2]، و إن لم تقتصـــر هذه العلاقـــات على الذهب فإنه يمكن لي أن أقول أنه شكل حجر الأســـاس للعلاقات التجارية بين البلدين. ولا يختلف شأن الفاطميين عن بقيـــة الدول الإسلاميـــة الأخرى التي لعبت دورا لا يستهان به في توسيع نفوذها داخل المغـــرب الإسلامي من الشـــرق إلى الغـــرب و من الشـــرق إلى الجنوب.

كما أنها حاولت منذ أن وطـــأت أقدامهـــا أرض المغرب السيطرة على طرق الذهب و التحكم في تجارته. و ذلك ما يبدو بوضـــوح بعد أن أحكمت الدولة الفاطميـــة السيطـــرة على كل من سجلماسة، باب السودان، و تاهرت الطريق التجـــاري نحو تلمسان [3]. و كانت سياستهم قائمـــة على جمع المال بكل الطرق و الوسائل، و لم تكـــن إفريقيـــا بالنسبـــة لهم ســـوى مستقرا مؤقتـــا و مصدرا للثـــروة، حيث لم يعمـــروا القيروان و تونس وسوسة و الحمامات والمنتـــزه، و لم يخلفوا فيها أثرا ما عدا مدينـــة المهديـــة التي تشهد على أهمية الأموال التي كانت بحوزتهم [4]. لقد ساعـــد احتلال تاهرت وسجلماســـة، الفاطميين على بســـط سيطرتهـــم على التجـــارة المغربيـــة، و جمع الثروة لغـــزو مصر، لما لهاتين المدينتين من شهرة كبيرة اكتسبتها أسواقهما لموقعها على طريق القوافل التجارية القادمـــة من الصحراء المغربيـــة و الشـــرق [5].

---

1. سالم (عبد العزيز)، المرجع السابق، ص.571.
2. بن عزوز (فريدة) المرجع السابق، ص.460.
3. مختار (حساني)، المرجع السابق، ص.102.
4. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، م.2، ص.86.
5. زبيب (نجيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، تقديم أحمد بن سودة، ط1، دار الأمير للثقافة و العلوم، بيروت، لبنان، 1995، ص.197.

إن هدف الفاطميين من الاستيلاء على سجلماســـة لا يقتصر على تحطيم المعارضة الصفرية ، و محو الكيان السياسي لبني مدرار،بل تجاوز ذلك إلى اعتبار هذه المدينة مصدرا للثروة نظرا للدور البارز الذي لعبته في بعث حركة النشاط التجاري بين بلاد المغرب والســـودان الغربي حيث منابع التبر و مراكز الرقيق. كما أصبحت سوقا تجارية عالمية، في دار الإسلام و محطة صحراوية هامة في طريق القوافل، وكانت هذه الحركة التجارية تدر أرباحـــا طائلة على سجلماسة، التي قدرت رسوم عبورها بأربعمائة ألف دينار. و مما يشير إلى التنافـــس الشديـــد الذي كان بين الفاطميين و الإباضيين على مسالك الذهب و محطاته، ثورة أبي يزيد الملقـــب بصاحب الحمار عام 333 هـ/944 م، و هو خارجي من الجريد، و كان من الممارسين لحرفة تجارة الذهب مع والده، إضافة إلى علمه بكل الطرق و التجار. و القضاء على هذا التمرد الخارجي دليل على أن الفاطميين لم يكونوا مستعدين للتخلي بسهولة على مناطق تجارة الذهب و إيراداتها خاصة المتعلقة بسجلماسة [1].

و لقد أثرى الفاطميون من ذهب السودان عن طريق تمثيل دور الوسيط و ضمان الأمن و الإرشاد إلى المسالك و الدروب و الرفق بالتجار. و لم يكن هذا النجاح ممكنا إلا بالسيطرة الكلية على تاهرت، أي بالقضاء على الكيان السياسي لطائفة الإباضيين و مكتسبين بذلك مركزا هاما على طريق القوافل التجارية يضمن لهم الإشراف على حركة التجارة من الشرق و الغرب والصحراء [2]. وكـــان ذلك على يد أبي عبد الله الشعبـــي في طريق عودته من سجلماسة.

---

1. أنظر LOMBARD (M.), « Les métaux précieux dans l'ancien monde », p.230.
2. لقبال (موسى)، "دور كتامة..."، ص ص 343 - 373 .

لم تكن سجلماسة مدينة و محطـــة تجاريـــة فقط بل مركزا أو دار لضرب العملة الفاطمية كما سبق و أن ذكرت سالفا [1]. و هذا هو السبـــب الرئيســـي في نظـــري الذي جعل هذه المنطقة محط أنظار الفاطميين و كل الإمارات المستقلـــة التي شهدهـــا المغرب الإســـلامي. وكما كانـــت للرستميين علاقـــات وطيـــدة مع بلاد السودان، هنـــاك إشارات لوجـــود مثل تلك العلاقات بين الفاطميين و بـــلاد السودان، و قد سجلت بين أبي الفتـــح المنصور أثنـــاء الحكم الزيري و بعض ملوك السودان و تمثت بهدايا نادرة أرسلت إلى المنصور سنة 382 هـ/993 م [2].

و في هذا الصدد يمكن لي أن أطرح سؤالا عن الأسبـــاب التي دفعـــت المعز لدين الله أن يلجأ إلى تعلم اللغـــة السودانية [3]. يمكن احتمـــال دوافع عديـــدة من سياسيـــة و اقتصاديـــة واجتماعيـــة يمكن للباحـــث التعمـــق فيها. و من جهتـــي، أعتقـــد أن ذلك دليـــل على وجـــود تبادل الوفـــود و الزيـــارات بين المعـــز وحكـــام الســـودان من أجل ضمـــان ورود الذهـــب.

و إذا كان ذهب الســـودان قد عرف طريقـــه نحو سجلماســـة و دور ضرب العملة ونحو تاهـــرت و غيرها من المناطـــق في عهد الدولـــة الفاطميـــة، بشكـــل كبير، فســـوف يظهر بشكل أوضـــح في الأمـــوال التي حملهـــا الفاطميـــون معهـــم عنـــد رحيلهـــم إلى مصـــر و التي أسهم تجـــار المغرب الأوســـط في جلبـــها إلى جانـــب تجـــار ولايـــة إفريقيـــة [4].

---

1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية و العالم الإسلامي"، ص88.
2. لقبال (موسى)، المرجع، ص 372.
3. حسن (إبراهيم حسن)، "تاريخ الإسلام"، ط 4، بيروت، لبنان، دار الجيل و القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية، 1996م، ص 154.
4. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 هـ/9 و 10 م"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص ص 224، 225.

و لقد ظهرت هذه الثروة التي استفادت منها مصر في شكلين :

الأول : تمثـــل في الحملـــة العسكرية التي جهزها المعز لدين الله الفاطمي على مصر، من خلال النفقـــات الكبـــرى التي استلزمتها الحملة، و التي كان مصدرها جباية الضرائب، و حفر الآبار في طريـــق مصـــر و صناعـــة السفن و تجهيزها وخاصة الحربيـــة منها، وكميـــات كبيرة من المعدات والتمويـــن، و وضع صنادل من القارب الكبير، كما جلب المعز من المهدية سنـــة 357هـ/967م، حملا من الذهـــب، وبلغ عدد الأموال التي كانت في متناول مراقبة جوهر 24 ألفَ ألفِ دينار (أي 24 مليـــون دينار). وكان عند خروجه إلى مصر على رأس 100 ألف فارس، وبين يديه ألف صندوق من المال [1]. هذا ما يؤكد من جهـــة الثـــروة التي حولت إلى مصر، و من جهـــة ثانيـــة يؤكد أيضا أن جوهـــر قد احتـــاط للأزمة الاقتصادية الطاحنة التي داهمت مصر في السنـــوات الأخيرة من حكم الدولة الإخشيديـــة [2]. والصورة الثانية لكثرة الأموال التي نقلها جوهر الصقلـــي معه إلى مصر تمثلـــت أيضـــا في إعلانـــه في اليـــوم التالي لدخولـــه الفســـطاط أن الأموال ستوزع على من يحتاجها، فاجتمع خلق كبـــير في جامع عمر ابن العاص و طرقت المدقـــات. و ما يدل عن كثرة الأموال هذه، استغراب المعز لما أنفقـــه (جوهر الصقلي) في سنوات تواجده في مصر على توفير المؤن و تلبية مطالب الجيش الفاطمي. و تذكر رواية أخرى : أنه عندما عزم المعز على الرحيل إلى مصر، أتاه بلكين ابن زيري بألفي جمل من إبل زناتة و حمل ماله بالقصور من الذخائر و سبائك الدنانير على شكل الطواحين، فاستعظمت الرعية، و صارت تقف في الطرقات لرؤية بيت المال المحمول [3].

---

1. الدشرواي (فرحات)، "الخلافة الفاطمية بالمغرب"، (ت: حماد الساحلي)، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت، لبنان، 1994، ص 380.
2. عبد المنعم (سلطان)، 'الأسواق في العصر الفاطمي"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 5.
3. نفسه، ص 59.

أما خروج المعز فيدل مرة أخرى على أن ما بقي من الثروات قد استكمل، حيث لم يتم هذا الرحيل إلا بعد أن جمع من الأموال ما لم يسبق بأن جمع مثله، و سار في هيئة عظيمة و جيوش جمة و جنود مستعدة. و أمر بالدنانير من الذهب فسبكت سبائك و طبع اسمه عليها و جعل حمل كل جمل سبيكتين [1].

يقول جودت عبد الكريم نقلا عن أبي الفدا : " أن المعز اصطحب معه أهله سنة 361هـ/971م، و خزانته و فيها أموالا عظيمة، حتى سبك الدنانير و عملها مثل الطواحين و شالها على الجمال [2].

هذا ما يؤكد حقيقتين، أولاهما وجود الدولة الفاطمية في أرض المغرب كان مؤقتا، وطبعت حياتها بسياسة جمع المال. وثانيهما هي حقيقة ثراء المغرب و المغاربة، و هو ما يدل على أن خزينة المغرب لم تخل قط من الذهب و الدنانير الذهبية طيلة ورود الذهب السوداني عليه والاحتفاظ بالمسالك الكبرى التي يعبرها نحوه.

ث - المرابطون :

و لن يختلف الأمر بالنسبة لدولة المرابطين التي تركت هي الأخرى بصماتها في هذا الحدث بالصراع الذي احتدم بينهما و بين الزناتيين، الذين شاركوا صنهاجة في تحصيل الضرائب من التجارة التي تعبر أراضيها، من السودان إلى صنهاجة في الجنوب، ثم إلى زناتة في المغرب الأقصى، قبل التوجه إلى البحر الأبيض المتوسط. و أدى هذا الأمر إلى إثارة حقد صنهاجة الملثمة، و زحفوا على زناتة في المغرب الأقصى و بسطوا نفوذهم عليها. وبإبعادهم لزناتة عن هذا الطريـــق التجاري العام، الذي امتلكوه ، استحوذوا على أرباح العبور لوحدهم حتى عظمت ثروتهم [3].

---

1. إدريس (عماد الدين): "تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب"، (ت: محمد يعلاوي)، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت لبنان، 1985، ص 717.
2. جودت (عبد الكريم يوسف)، المرجع السابق، ص.215.
3. محمود (السيد)، "تاريخ دولة المرابطين و الموحدين"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999، ص ص 109-110.

إضافــة إلى هــذا الصراع،لا بد من ذكر الصراع الذي نشب بين المرابطين وملــك السودان قبل ظهور عمال أبي بكر* ابن عمــر، أشيــر إلى شخصية يحي ابن عمر** الذي كان هدف خروجه من الرباط النيل من أودغشت، التي هي مفتــاح طرق القوافل السودانية، كما كانت محل الصراع بين الممالــك السودانيــة و ممالك الصحراء اللمتونيــة، والتي تعود ملكيتها إلى المنتصــر في الحرب[1].

بين لي هذا التحليل الصــراع الذي خاضته الدولــة المرابطيــة للسيطرة على مسالك تجارة الذهب من جهة،كما كشف لي من جهــة ثانيــة،أنه لم يطبع حياة الدولة بشكــل عام، حيث ظهر فيها ما لم يظهر في الدويــلات التي عرفها المغــرب الإسلامي. حيث شهدت الدولــة المرابطية انقسام قواها إلى قسمين : قسم في مراكــش، نشاطه المغرب والأندلس، تحت قيادة يوســف ابن تاشفين، و قسم آخر في إفريقيــا المداريــة الغربيــة تحت قيادة أبي بكر ابن عمر [2]. من خلال هذا التقسيم يتضح أن ذهب السودان لم يكــن الغــرض الوحيد الذي من أجله ظهرت الدولة المرابطيــة، خاصــة بعد أن رضي أبو بكر بالتوجــه نحو السودان حاملا راية الجهاد، تاركا وراءه كل ثرواتــه و ممتلكاتــه بين يدي ابن عمــه يوســف بن تاشفين [3].

---

* من القادة المرابطين الذين ساهموا في ادخال الإسلام إلى السودان، و هو ابن عم يوسف بن تاشفين.

**يحي ابن عمر : استشهد عام 427هـ/ 1035 م في معــارك ضد ممالك السودان (غانة، مالي و التكرور).

1. محمد عبد الهادي (شعيرة)، "المرابطون -تاريخهم السياسي-"، ط.1، مكتبة القاهرة، 1969، ص.49.
2. مؤنس (حسين)، "تاريخ المغرب و حضارته"، م.2، ج.2، ط.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1992، ص.21.
3. نفسه، ص 22.

و أهم هذه الثروات، و التي تثير الانتبـــاه زوجتـــه زينت النفزاوية * التي امتازت بالمال و الجمال. لقد أشـــارت إليها بعض المصادر قائلة : " بعد أن خطبهـــا أبو بكر وتزوجهـــا و عدته بمال كبير تخرجـــه له، ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب عينيه، فأزالـــت العصابـــة ففتـــح عينه فرأى بيوتا فيها ذهب كثيرا و جواهر، و فضة و يواقيت، فعجب لذلك أبو بكر كل العجـــب لما عاين من الذخائر و الذهب و الفضة، فقالت له زوجته : هذا كله ملك لك و متاع أعطـــاك الله أياه على يديـــا، فصرفتـــه الآن عليك" [1].

و ما استنتجتـــه من خلال هذه الروايـــة أن كنوزا كبيـــرة كانت في حـــوزة من ملكوا القبائـــل الصحراويـــة من الرؤســـاء قبل مجيء المرابطيـــن. والســـؤال المطروح هو هل بالإمكان اعتبار مصادر هذه الثروة من ذهب السودان و لا يمكن لي أن أتوقف في هذه الدراســـة عند الإشـــارة إلى هذه الروايـــة فقط بل هناك من آشار إلى ثروة المرابطين بشكل آخر من خـــلال عدة روايات، وأهمهـــا الهديـــة التي قدمهـــا يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبو بكر بن عمر، من أجل كسب وده ورضائـــه، و تتمثل في عشرين ألف دينار من الذهب، و سبعين فرسًا منها عشرون محلى بالذهب، و عشرون زوجا من المهامـــز المحلاة بالذهب [2].

من خلال ما سبق ذكره حول الصراع من أجل الاستحـــواذ على الذهب، يصدق المثل المغربي القائل : " إن السودان يشفي الناس من الفقر كما يشفي القطران الإبل من الجرب".

---

* هي زينت بنت إسحاق النفزاوية، أبوها تاجر و أهله من القيروان.

1. ابن عذارى (المراكشي)، نفس المصدر، ج1، ص18.
2. حسن (على حسن)، "الحضارة الإسلاميـــة في المغـــرب و الأندلس، عصر المرابطيـــن و الموحدين"، ط 1، القاهرة، مكتبة الخانجـــي، 1990، ص 62.

3. معـــدن الذهـــب و ســـك النقـــود

أ. ذهـــب الســـودان و العملـــة المغربيـــة

مازالت دراسة المسكوكات العربيـــة الإسلاميـــة تشكل إحدى المواضيع التي تلفت اهتمام جل الدارسين للتاريـــخ على الخصوص، و هذا انطلاقـــا مما تحملـــه من تفسير لأحداث كانت تهدف إلى إبراز العظمة و ترسيخ الانتماء الديني أو إظهـــار قوة الخليفـــة أو السلطـــان [1].

و لذا أجدهـــا قد ضربت في كل عواصم الإســـلام و في أشهـــر مدنهـــا باختـــلاف رسمها وسعتها ونصهـــا، و التي كانـــت تتماشى و اختلاف الدول و العصـــور [2]. واستطاعت الدراسات الحديثـــة من خلال معاينتهـــا لعدد من العملات التي ضربت في المغرب الإسلامي، أن تضـــع حـــدا للغموض الذي ســـاد بعض الكتابـــات التاريخيـــة للمنطقـــة [3]. إضافـــة إلى إدراج بعـــض التساؤلات ضمـــن هذه الدراســـات كالبحـــث مثلا عن موضوع تحقيـــق الوحدة السياسيـــة من خـــلال ضرب العملـــة[4]، و الذي أراه موضـــوعا لا يستهـــان به خاصـــة إذا تعلـــق الأمر بدولـــة المرابطيـــن و الموحديـــن.

---

1. ابن قربة (صالح)، "المسكوكات المغربية من الفتح إلى سقوط دولة بني حماد"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص. 13.
2. زيدان (جرجي)، " تاريخ التمدن الإسلامي"، ج.1، ص.145.
3. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص.13.
4. أنظر BENHSAIN (M.), « Approche quantitative de l'Or monnayé en occident musulman (450/1058 à 830/1416) », T.1, p.11.

إن الدراسات الحديثة أصبحت تثري المسكوكات ببحوث أكثر دقة من سابقاتها رغم الصعوبات التي واجهتها في بداية الأمر. و لقد استطاعت أن تعطي ثمارها بعد تظافر جهود العديد من الدراسات التاريخية منها و الاقتصادية و الأثرية. و من أمثلة هذه الإنجازات التي حققتها هذه الدراسات، تقدير كمية الذهب التي نقلت من السودان الغربي إلى المغرب الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى، انطلاقا من دراسة بعض العينات من النقود التي ضربت في مختلف مراكز ضرب العملة التي عرفها المغرب الإسلامي، كسجلماسة واغمات و مراكش الخ...[1].

و أهمية هذه الدراسات لا تتوقف عند تقدير كمية الذهب فحسب، بل توصلت إلى تحديد عيار الذهب الذي ضربت منه العملة و درجة تفاوته التي كانت في مستوى أدهش كل الدارسين له، و هو ما دفع بالعديد من الدارسين، حسب رأيي، إلى الحسم في أمر جودة ذهب السودان الغربي على أنه كان الأحسن و الأنقى.

إن البحث في هذا الموضوع، و بالتحديد في عملة المغرب الإسلامي الذهبية وعلاقتها بالسودان الغربي، يدفعني للعودة إلى العلاقات الأولى بين المغرب و السودان الغربي، و على الأخص بداية ورود هذا الذهب إلى المغرب الإسلامي. ووجدت أن أغلبيتها لم تذهب بعيدا عندما فصلت في أمر العملة المغربية و الأوروبية التي كان مصدرها ذهب السودان الغربي و فضة و نحاس أوروبا الوسطى إلى غاية اكتشاف أمريكا. هذا الذهب الذي تعود بداية استغلاله إلى الألف الأولى ق.م، عرف مراكز التوزيع له في كل من جني، كومبي صالح و أخيرا تومبكتو[2].

---

1. أنظر: BENHSAIN (M.), op.cit, p.12.
2. أنظر CISSÉ (D.A.), « Histoire économique de l'Afrique Noire », T.3, L'Harmattan, Paris, 1988, p.15.

إن كيفيــة السيطرة على الذهب و استغلاله لم تبد واضحــة من خلال هذه الدراسات خاصــة الفتــرة الرومانيــة و القرطاجيــة، و السبب يعود إلى عــدم رسم مسالك لهذه الفتــرة التجاريــة، و بالتالي تبتعد هذه الدراســات عن فكرة وجود ما يسمى بتجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي بشكل واضح و دقيق. لهذا اقتضت الإشــارة إلى وجــود تبادل بسيط حســب إشارات هيرودوت الذي يؤكد أن الفرطاجييــن كانوا يمارسون خــلال القرن الخامــس ق.م " تجــارة الذهب الصامتــة " في موضع غير محدد على ساحــل بحر الظلمات، و يعتقــد أن يكــون في منطقة الجنوب الغربي للمغرب الأقصى.

و من خلال بعض الدراسات الأثرية تم اكتشاف ثلاث طرق ربطت بين عالم البحر المتوسط و السودان الغربي :

1. الطريق الذي كان يربط منعطف نهر النيجر مع فزان و جنوب المغــرب ؛
2. الطريق الثاني، الذي كان يربط موريطانيا بجنوب المغرب مرورا بالصحراء ؛
3. الطريــق الثالــث ساحلــي، و كــان يربــط بين المرافــئ الصحراويــة والغينييــن [1].

لكن هذا لا يكفي للتأكد من أن هذه التجارة فعلا اجتازت هذه الطرقات، و بالتالي ستبقى هذه الدراســات، حسب رأيي، رهن التحليل و اعتمــادا على الحفريات من أجــل معرفــة ما إذا كان ذهب السودان كان يورد بنفس الشكل الذي عرفته فترة دخول المسلمين إلى المغرب أم بشكل آخر.

---

1. Ibid, p.15.

و سمح اكتشاف " les chars rupestres " في" Essounk " بالاعتقـــاد أن منطقـــة أدرار إفوغـــاس كانـــت المعبر الرئيسي باتجـــاه جاو " Gao ". و هذا منذ فترة ما قبـــل الميـــلاد، و موني يرجع قـــدم تادمكـــة إلى التاريخ القديم، و الدليل كان معتمدا على العلاقـــات التي كانت بين العاصمـــة البربريـــة العتيقـــة و "Abelessa " و " Essouk " حسب روايـــات الطوارق [1].

استطاع لومبارد موريس " LOMBARD M. " أن يشيـــر إلى هذا الموضوع قائلا : " أن دخـــول الجمل إلى شمال إفريقيا خلال القرن 2 ق.م، سمح للقبائـــل البربريـــة بالزحـــف جنوبا عبر الصحـــراء. و مع دخول الإسلام و بعد السيطـــرة على هذه القبائل ساهم في ربط إقتصـــاد الصحراء بالبحر و المتوسط و بالتالي سهل على الذهب أن يتوجه نحو الشمال من خلال المسالك التي حاول هو الآخر أن يحددهـــا بعد الإشارة إلى سجلماسة وأهميتها كمحطـــة تجاريـــة للقوافل و ميناء لواردات السودان من الذهـــب، في المسلك الذي ينطلق من ورقلـــة باتجـــاه النيجـــر عبر تيدكيلـــت و الطريـــق الشرقي الذي يربط الجريـــد و طرابلس بغدامـــس نحـــو آيير و الســـودان [2].

و إذا حاولت المقارنـــة بين هذه المسالك و ما ذكره هيرودوت أجد أن الذهب كان يعبر مفـــاوز الصحراء للوصول إلى المغرب، و لذا كما أشرت إليه سابقا للتأكـــد من وجود هذه العلاقات من ما قبل الإسلام، لا بد من الاعتماد على الحفريات.

---

1. أنظر DEVISSE (J.), « Histoire du Sahara et de ses relations transsahariennes.. », p.112.
2. أنظر LOMBARD (M.), « Espaces et réseaux du haut moyen âge », Paris,1972, p.16.

لذا فإن الاتصال الحقيقي لهتيـــن الرقعتيـــن الجغرافيتيـــن بتجارة الذهب لم يكتب لها النجاح إلا بعد ظهـــور الإسلام، و العرب الذيـــن كانوا على علم بوجود أجود ذهب في السودان الغربي، الذي كان المصدر الذي ضرب منه الدينار المغربي خلال القرن 10 و 11 م[1]. وكان بناء سجلماســـة عام 140هـــ/757 م عاملا أساسيا لحمايـــة التجـــار و تجـــارة الذهـــب الواردة من الســـودان، و اهتمام عبد الرحمن بن الحبيب بحفـــر الآبار على طول المسلك القديم الرابط بين تادمكة و أودغشت عام 128 هـــ/745م، بمثابة اهتمـــام العرب بذهـــب الســـودان منذ أن وطأت أقدامهـــم أرض المغـــرب، حيث سمح لهم نجاح الفتوحات إلى وضع تنظيم سياسي و إداري أدى إلى التوسع الاقتصادي و الثقافي جنوب الصحراء [2]. خاصة إذا عرفنا أن التجارة تعتبر أهم نشاط في الحياة الاقتصادية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، و أن الزراعة و الصناعة ثانوية. ولتحقيق ذلك كان على اقتصـــاد العالم الإسلامي أن يوسع الشبكة التجاريـــة التي وجدت في الموقـــع الجغرافي للعالم الإسلامي عاملا من عوامل الازدهار و النمو بانفتاحـــه على القارة الأوروبيـــة و الأسيوية والإفريقية [3].

لقد اثبتت الفتوحات الإسلامية أنها لم تقتصـــر على إنشاء إمبراطوريات واسعة تمتد من الشرق إلى الغرب بل إمبراطورية اقتصادية تميزت بإمتلاك المسلمين للذهب و النقود ذات قيمة عالية اعترف بها العالم أجمع. و يظهر هذا جليا قبل تفكك الدولة الإسلامية حيث ضرب كل حكام الدول الإسلامية المختلفة النقود الذهبية [4].

---

1. أنظر BENHSAIN (M.), op.cit, p.13.
2. أنظر MAUNY (R.), « Les siècles obscurs e l'Afrique Noire », Librairie Arthème Fayard, 1970, pp.141-142.
3. اسكندر (توفيق)، " بحوث في التاريخ الاقتصادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961، ص ص 51-64.
4. أنظر PEYRONNET (G.), « L'islam et la civilisation islamique VII-XII ^{e} siècle », Paris, Armand Colin, 1991, p.251.

و مما سهل من هذه العمليــة هو نجاح التجار المسلمين في السيطرة على تجارة الذهب داخل الأسواق الإفريقيــة، و تحديهم لظاهرة انخفاض إنتــاج الذهب في هذه القارة كلما اعتنقت إحدى قبائلها للإسلام. وكان وصولهم إلى أودغشت و غانا و المناطق الأخرى انطلاقا من القرن 8 م دافعا أساسيا لرفع إنتاج الذهب، والذي كان مخصصا للسوق المحلي، بكل ما يشمل من حلي، مجوهرات و كنوز الملك، حيث كانت هناك كمية قليلة تعبر الصحراء مقابل بضائع بحر الروم [1]. و كان الإنتاج يختلف حيث كان مرتبطا بإمكانيات التبادل مقابل البضائع المطلوبة، أين كان الملح في الصف الأول، و النحاس الذي كان من أهم البضائع المستبدلة مقابل الذهب [2].

و كان المرابطون هم السباقون لمثل هذا التحدي بعــد أن عرفوا كيف يحــددون المقابل التجاري لمعدن الذهب وفق ما تقتضيــه بيئــة إفريقيــا الإستوائيــة. ليصبح ملح تغازة وتاوديني بضاعة ذات أولوية لا نظير لها في الســوق الإفريقيــة ضعفت أمامه قيمة الذهب و ما سواه [3]. و أصبحت الفترة الممتدة من ق 8 إلى ق 11م للعالم الإسلامي عصر الدينار و التفوق الإقتصادي الإسلامي [4]. و بالتالي استنتج أن هذه الفترة بالنسبة لإفريقيا الغربية تسمى بفترة العصر الذهبي بسبب، ارتفاع إنتاج المعدن الأصفر و الذي امتد إلى غاية القرن 15م [5]. و مما سهل ضرب العملة الذهبية المغربية هو أنه من القرن 9 إلى غاية القرن 11 م لاحظ العديد من علماء الاقتصاد أن هناك ما يسمى بأزمة الذهب قبل ظهور المرابطين، و هذا ما قلل من ضرب هذه العملة في الغرب الأوربي[6].

---

1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique… », pp.300-301.
2. Ibid, p.301.
3. أنظر. CISSÉ (D.A.), « Histoire économique… », pp.16-17.
4. اسكندر (توفيق)، "بحوث في التاريخ الاقتصادي"، ص.77.
5. أنظر. CISSÉ (D.A.), op.cit, p.17.
6. Ibid, p.25.

و منذ القرن 8 م تنتقل الحياة الاقتصادية من ضرب العملة الذهبية ذات الطابع التقليدي "الروماني البيزنطي" إلى العملة الحديثة ذات الطابع الإسلامي أي الدينار و الذي يظهر بشكل واسع منذ النصف الثامن من القرن 8م (1).

و لا يمكن ملاحظة هذا الانخفاض المسجل في ضرب العملة و كمية الذهب المتداولة بين دويلات المغرب الإسلامي، إلا بعد ظهور العملة المرابطية التي اجتاحت السوق الداخلية و الخارجية للمغرب الإسلامي و عدد من دور الغرب الجديدة التي فتحوها بعدما كانت عملة مركزية في سجلماسة. و قد يكون هذا هو الأمر الذي دفع بالعديد من الباحثين الغربيين في الفترة الحديثة إلى الاعتقاد أن سبب فتح المرابطين للسودان الغربي يكمن في رغبتهم في الاستحواذ على ذهب المنطقة من أجل سك عملة بإمكانها أن ترفع راية إمبراطوريتهم و عقيدتهم، كونهم كانوا على علم بهذه الأزمة و ما كان يعانيه الغرب من نقص في هذا المعدن الأصفر. أي أن الغرب توقف منذ القرن 8 م في ضرب العملة الذهبية.

مهما كان الأمر أقول أن العملة المغربية ظهرت و ضربت في مختلف دور المغرب الإسلامي و استطاعت أن تؤكد من خلال هذا الضرب رغبة الحكام في إبراز سيطرتهم و نفوذهم في المنطقة خاصة أذا تعلق الأمر بالعملة الذهبية، و ما ورد في سياق هذا التحليل لدليل على أن أهمية ضرب العملة الذهبية لدى الدويلات المغربية و مدى مساهمة ذهب السودان في تحقيق هذه الرغبة السياسية و الاقتصادية، كونه سلعة ثمينة يمكن أن تفي تسديد البضائع المستوردة من بلاد المشرق الإسلامي و الأندلس و ما وراء البحر (2).

---

1. انظر FEVBRE (L.), « Mahomet et Charlemagne », A.H.E.S, avril, Librairie Armand Colin, 1948, p.189.
2. جودت (عبد الكريم)، "الأوضاع الاقتصادية"، ص.226.

ب. الدينـــار الذهبـــي المغـــربي

كان لورود ذهب السودان الغربي عبر الصحـــراء الكبرى دور في تفـــوق العملة المغربية، وظهور الدنانـــير الذهبيـــة المنقوشـــة. كما سبق و أن ذكرت اختيـــر معدن الـــذهب لضرب العملة المغربية لتوفره، و لأنـــه أبقى جواهـــر الأرض و الذي لا يفســـد أبدا، فكلما بقي تحت الأرض صلـــح و طاب، وكلما دخل النار تخلص و حسن [1].

إن توفر معدن الذهب دفع بالعديد من مراكز ضـــرب العملة إلى فتح أبوابها، كسجلماســـة و نـــول التي تعتبر من أهم الأسواق التجاريـــة التي عرفتهـــا الصحراء، و كذلك عرفت وفرة التبر الذي تجلبـــه القوافل من بلاد الســـودان [2]. و يذكر في هذا الصدد الونشـــريسي قائلا : "الذهب و الفضة هما مـــادة الدنـــانير والدراهم المضروبة منهما المتواصـــل بها إلى الأغراض، و أثمـــن الأشياء و قيمتـــها تقوم بذاتهـــا، و يقوم غيرها بها بخـــلاف سائر المتمولات " [3].

و إن كان المنطلـــق هو الدينـــار الفضي، فإن سمعـــة الدينـــار شاعت بعد ظهور معدن الذهب، خاصـــة فتـــرة العصر الإسلامي حيـــث أجد أن أصل كلمة دينـــار، لفظ لاتيني والأصـــــل فيه الدلالة على قطعـــة من الفضـــة تساوي عشـــر آسات*، أي مشتـــق من كلمـــة دينـــي " Déni " ** التي تعـــني عشـــرة [4].

---

1. أبو الحسن (ابن علي الحكيم)، "الدوحة المشتبكة ..."، ص46.
2. حسن (أحمد محمود)، "قيام دولة المرابطين"، ص 350.
3. الونشريسي، "المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا و الأندلس و المغرب"، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401ه/1981م، ص337.

*الآس : من دراهم الروم.

** وزنه سبع أوقية رومانية أو جزء من مائة من الرطل.

4. جرجي (زيدان)، "تاريخ التمدن الإسلامي"، ج1، دار الهلال، ص141.

و هذا ليس معناه أن الإمبراطوريات التي كانت قبل الإمبراطورية الإسلامية لم تضرب الدينار الذهبي أو العملة الذهبية، و لكن من حيث الاستفادة من معدن ذهب السودان الغربي، لاحظت أن العديد من الدراسات الغربية أكدت أن الرومان لم يستفيدوا من ذهب السودان الغربي، و لم تضرب عملتهم منه كما ضربت العملة المغربية أو الإسلامية عامة، و لتوضيح ذلك تشير الفترة التاريخية الممتدة ما بين سنة 346 إلى 388 بعد الميلاد أن حجم العملة المضروبة تضاعف عشرين مرة، ليستمر الوضع على حاله خلال القرن الخامس و السادس و السابع، بالرغم من ظهور بعض الأزمات، حيث تميزت هذه الفترة بإصدار الأباطرة للصلدي الذهبي " Solidus "* ثم تريمسيس " Trémssis" في عام 383م، و بعدها ظهور ما يسمى بـ "Centenaria"** من أجل قياس قيمة العملات المتداولة في الأسواق.

طرحت أسئلة عديدة عن مصدر هذا الذهب و إن كان مرجعه من السودان الغربي أم لا، خاصة بعد أن استولى جنزريك في حملته ضد روما، عام 468م، على 42 طن من الذهب. واحتواء خزينة " Anastase" على حوالي 320 قطعة "Centenaria" أي ما يقارب 104 طن من الذهب. إلا أن الأهم في الأمر، هو أن هذا الذهب مصدره إذابة الأواني، و التماثيل و القطع القديمة. و أن روما لم تربط علاقاتها مع غانة القديمة، و أن العلاقات التي كانت تربط الرومان و الوندال و البيزنطيين مع سكان الصحراء كانت سيئة (1).

---

* Tremsis : نعني به ثلث الصلدي " Solidus "

** Centenaria : يزن 32,256 كلغ.

1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », p.82.

و عدم وجــود أي أثــر لأيــة قاعــدة تجاريــــة و عسكريــة في الصحراء [1]
لأكبر دليل على ذلك، ما دام التاريــخ ينفي استفــادة هؤلاء من ذهب السـودان الغـربي، أصبح في المقابــل يؤكد لنا استفـادة العالم الإسلامي منــه، بعد أن أصبح الدينـار هو العملـة الرئيسيـة خاصـة بعـد انتصار الذهـب خلال القرن التاسـع، و الذي يعود إلى عاملين أساسيــن هما : إعــادة الذهب المكنــوز إلى التــداول و ورود ذهــب الســودان [2].
لتضرب كل إمــارات المغرب الإسلامي الدينار الذهبي بــدون قيـد أو شـرط.

فالدينــار الذهبي الأغلبــي ضرب من ذهــب الســودان لا محالــة، إلا أن الاستفـــادة الرمزية كانت لبني العبــاس في البدايــة، حيث كانت خالية من لفــظ "غلــب" أي تضاريــس الأغلب، ليدخل الدينار الأغلبي بعد الفتــرة الممتدة من سنة 196 و 201 هــ مرحلة ثانية، أي التخلص من التبعيــة الاسميــة للخلافــة العباسيــة و ضربت هذه النقــود في كل من القيــروان و العباسيــة و رقــادة. و يتميز الدينار الأغلبــي بأنه يحمل اســم الأمير وتاريــخ الضرب علــى الظهــر، و يحمل شهادة التوحيــد و الرسالــة المحمدية على الوجــه. والدينار الأغلبــي عبارة عن قطعــة مستديــرة الشكل يختلــف قطرها من أمير إلى آخر، أي ما بين 17 إلى 20 ملم، أما وزنهــا فيتــراوح بين 4 إلى 4,30غ. إلا أن أبرز الخصائص المميزة التي تنفــرد بها عملة الأغالبــة هو حملهــا لشعــار "غلــب" في الجزء العلوي لكتابة مركز الظهــر و هذا تمييــزا لهم عن سكــة أمــراء المسلمــين المعاصــرين لهم في المغــرب، وتعبيــرا عن استقلالهــم السياســي [3].

---

1. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain de la préhistoire à 1600 », page 82.
2. لومبارد (موريس)، "الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية"، في "بحوث في التاريخ الإقتصادي"، (ت: توفيق اسكندر)، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961، ص 66.
3. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص ص.177-187

و ما يهمني أكثر في دراسة هذه العملة هو درجة نقاوة الذهب فيها، و التي وصلت دون جزم إلى 99 % [1]، بل 100 % في بعض الأحيان، هذا ما يؤكد حسب رأيي أن الذهب كان متوفرا في عهد الأغالبة و سمح لهم فعلا أن يصدروا الدينار الذي ميز عملتهم عن بقية العملات الأخرى. و لا غرابة في الأمر أن أتحدث عن نقاوة ذهب عملة بني الأغلب و الأمر يتعلق بذهب السودان، و ليس بالغريب أيضا، أن نتحدث عن وفرة هذا المعدن و هو يورد بكميات كبيرة على المغرب، حيث كان في متناول كل الحكام الذين عرفهم المغرب الإسلامي، والذين كانت لهم قوافل تُسيّر و تجهز لحسابهم، فأبو الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب استطاع أن يبني قصرا عند خروجه لصيد الغرانيق بثلاثين ألف مثقالا من الذهب، [2].

كما أن هذه الدنانير الجميلة هي التي غنم منها أبو عبيد الله الداعي و التي أرسل منها إلى عبد الله الشيعي و هو في سجلماسة يعلمه بالفتح، حيث وجه إليه بمال كثير. و يقول ابن عذارى في ذلك : " ذكر رجل من بني هاشم بن عبد المطلب، كان مع عبيد الله بسجلماسة قال : "و صل عبيد الله بمال كثير من دنانير لا توجد في ذلك البلد فكثر تعجبي منها" [3].

هذا ما يدفعني للاستنتاج أن إرسال هذه الأموال إلى عبيد الله الشيعي و هو بسجلماسة تأكيدا على أن الهدف الذي من أجله هاجر الشيعي و أصحابه إلى إفريقيا يبدو واضحا، و هو النيل من ثروة المغرب المتمثلة في ذهب السودان الغربي.

---

1. ابن قربة (صالح)، المرجع السابق، ص ص. 177-187.
2. ابن عذاري (المراكشي)، المصدر السابق، ص120.
3. نفسه، ص ص. 138-139.

أما في العهـــد الفاطمي، استطاع الدينـــار الذهبي الفاطمي أن يدشن الحرب الإيديولوجيـــة في الغرب الإسلامي، و هذا بإظهار قوة انتصـــار الحكم الجديد. خاصـــة بعد توسعهـــم و بدايـــة ضربهم للعملـــة الذهبيـــة في كل من سجلماســـة و المهديـــة، خاصة سنة 365 هـــ/975 م. هذا ما دفعهم إلى إبـــراز حرصهـــم الشديـــد في تنظيم تجارة الذهب عبر الصحـــراء، فاستطاعوا أن يجعلوا من طريـــق سجلماسة – غانة، الطريق الأساسي لذهب إفريقيـــا الســـوداء على الأقل لفتـــرة قرنيـــن، و الشريـــان الحيوي لعملتهـــم الذهبيـــة وجمع ثروهم الحربية.

و أكدت الدراســـات الأثريـــة التي عرفتها أودغشت على أن الموازين الزجاجيـــة التي عثر عليها كانت جلها فاطمية و بعد انتقالهـــم إلى مصر و بالتحديد بعد سنة 1070 أصبحـــت تستقبل الدينار المرابطي [1]، لأي أن استغـــلال الفاطميين لذهب السودان كان أثناء فتـــرة تواجدهم على أرض المغرب. و من مميـــزات السكـــة الذهبيـــة الفاطميـــة أنها لم تختلف عن سكة بن الأغلب، مع زيـــادة أقطـــار النقود أي من 20 إلى 23 ملم، و الأوزان تراوحت من 4 إلى 4,20 غ للقطعة الواحـــدة، أما بالنسبة لدرجـــة نقاوتها فكانت تتراوح ما بين 89 % إلى 100 % حســـب العينات التي أشار إليهـــا الأستاذ ابن قربة [2].

بغض النظر عن ذلك فلقد كان الفاطميـــون يبحثون عن ضمان العـــرض الكبيـــر للنقـــود الذهبيـــة، و قد تحقق لهـــم ذلك حتى أصبحـــت دنانيرهـــم مطلوبـــة من طرف كل التجـــار و حتى في المشـــرق [3].

---

1. أنظر : EL-FASI, « Histoire générale de l'Afrique » T. III, l'Afrique du VII[e] au XI[e] siècle, C.S.I.R.H.G.A , Paris, Edicef/UNESCO, 1997, pp. 297-299.
1. ابن قربة (صالح)، نفس المرجع، ص ص. 278 – 279.
2. EL-FASI, op.cit, 298.

و لم يختلــف الأمر كثيــرا في عهد بنـــي زيري، حيث استمـــرت مراكـــز القيروان و المهديـــة والمنصوريـــة في ضرب العملـــة بأسماء الخلفـــاء الفاطميين. و هي على شكل مستديـــر قطرهـــا يتراوح ما بيـــن 20 إلى 22 ملم، و وزنها بين 3,62 غ و 4,36 غ.

إلا أنه في فترة المعز بن باديـــس الصنهاجي يحدث عليها تعديلا طفيفـــا ليصبح قطرها يتراوح ما بين 21 ملم و 24 ملم، أي أكثـــر اتساعـــا من العملـــة الفاطميـــة، و وزنها بين 3,96 غ و 4,15 غ، أي أن عيـــارهـــا كان جيـــدا هي الأخرى. و ظهـــور دينار المعـــز بن باديـــس الصنهاجي، ما يثبت غـــوص السكـــة الذهبيـــة الزيريـــة في إفريقيـــا.

و أساس وزن الدينـــار المرابطي ينطلق من القاعدة التي وضعها عبد المالك بن مروان حيث كان وزن الدينار أو المثقـــال 22 قيراطا ناقص حبة، أي 72 حبة شعير، و هذا إما أن يعادل 4,25 غ من الوزن الكلـــي، أو الوزن الصافي له. بعد عـــدة دراســـات لعينـــات من العملة المرابطيـــة وصـــل إلى 4,063 غ من الذهـــب. إلا أنه بصفـــة عامة و كما سبـــق و أن ذكرت، فإن عيار الدينـــار المرابطـــي يسبـــق جيـــدا و يفـــوق معدلـــها 90 % [1].

وهذه ربما من الأسباب التي دفعت الدينـــار المرابطي أن تـــزداد الثقـــة به أكثر في كل من الأندلس و المغرب و الشرق، و ترتفع قيمته بعد كثـــرة المعامـــلات و التـــداول، وكـــاد أن يصبـــح عملـــة دولـــة و نـــال من الشهرة ما نالتـــه عملة فلورين* الإيطاليـــة فيما بعـــد [2].

---

1. أنظر BENHSAIN (M.R), op.cit, p.20.

* و هي عملة الفلورين.

1. حسن محمود (أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ص 352.

هناك عاملان أساسيان لعبـــا دورا في توسيع شهرة عملة المرابطين وسرعـــة انتشـــارها وكثرة الطلب عليها. فالعامـــل الأول تمثل فيمـــا سبق ذكره، أي سمعـــة تبـــر السودان، الـــذي يعتبـــر المـــادة الخـــام لهذه العملـــة، أما العامل الثاني تمثـــل في أن المرابطين قد تجاوزوا النسبة التي حددهـــا الدين الإسلامي في ختـــم العملـــة، والذي ينص على أن يكون وزن المعـــدن الثمين فيهـــا من الذهب و الفضة يســـاوي 2/3 من الـــوزن الكلي، هذا إذن عكـــس المقصوصـــة * التي يفوق فيها المـــعدن الممزوج (النحـــاس) المعـــدن الأصلي (الذهب و الفضة) بشكل كبير [2].

---

* القطعة المزورة أو المغشوشة.

1. أنظر : BENHSAIN (M.R.), op.cit, p.17.

2. Ibid, p.20.

4. المراكـــز المغربيـــة لســك النقـــود

كانت و لا زالت دور ضرب العملة إحدى المؤسسات الضرورية التي بواسطتها تستكمل سيـــادة الدولـــة، حيث لا تخلو دولة من دول الأرض المتمدنـــة من دار تضـــرب فيها النقـــود، و كان ذلك شـــأن الدول الإسلاميـــة [1] في كل أدوارها خاصة المغرب الإسلامي.

و إذا حاولت الربط بين ضرب العملة و المراكـــز المغربيـــة لسك النقود وعلاقتهـــا بذهـــب الســـودان الغربي أجد نفسي أمام أهم المراكـــز الصحراويـــة التي أشارت إليها جل الدِراســـات العربيـــة و الغربيـــة التي اهتمت بالعملة الإسلاميـــة. فمن بين أهم هذه المراكـــز سجلماســـة، التي تعتبر دولـــة بني مدرار أول من ســـك نقـــود الذهب فيها [2]، كون هذه المدينـــة المحطـــة الصحراويـــة الكبرى التي تستـــورد ذهب السودان الغربي مباشـــرة من المدن الساحليـــة و بمختلف أشكالـــه. فهناك من الذهب ما كان يستـــورد على شكل مادة خام أي تبـــر، أو على شكل سبائـــك و فتائل و حلي ثم نقـــود. و للعلم فقد كانت مراكز ضرب النقود تستورد الذهب على نوعيـــن : تبر أو حلي[3]. هذا ما دفع بتجـــار الساحل إلى تحويـــل التبر إلى سبائك و فتائـــل، لكي تسهل عليهم عمليـــة نقله عند اجتياز الصحراء بدلا من نقلـــه على شكل تبـــر.

---

1. جودت (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط ..."، ص.172.
2. جرجي (زيدان)، " تاريخ التمدن الإسلامي"، ج.1، بيروت، دار الهلال، بدون سنة الطبع، ص.145.
3. أبو الحسن (بن علي الحكيم)، المرجع السابق ، ص.68.

لقد أشار البكري أن أودغشت تعتبر أكبر مركز لتحويل الذهب، كما أشار أيضا إلى أن تادمكة تعتبر مركزا آخر لضرب "الصلع" أي الدينار غير المنقوش "Chauve" [1]. و هذه الإشارة تعتبر الوحيدة التي بإمكانها أن تقودنا إلى مكان وجود مراكز لضرب العملة في مدن الساحل أو حتى إفريقيا، و في رأيي كما سبق و أن أشرت، فإن المناطق الاستوائية لم تحقق من التطور والازدهار و النمو الاقتصادي ما عرفته مدن الساحل من جهة، و من جهة ثانية كون هذه المدن الساحلية لم تعط عملية ضرب العملة نفس الأهمية التي أولتها إياها إمارات المغرب الإسلامي التي كانت بواسطة هذا المعدن الأصفر في احتكاك مباشر مع الحركة النقدية التي عرفها بحر الروم. خاصة بعد أن أضحى الدينار عملة رئيسية في العالم الإسلامي، و عملة حقيقية تستخدمها كبريات المدن والعواصم التجارية الكبرى، إضافة إلى استعمالها في العمليات الحسابية لتقدير الضرائب [2].

وهذا راجع إلى استخدام بعض المواد التي كانت تمثل قيمة البضائع التي تباع في السوق. فبعد أن استخدم الذهب أي "التبر" كعملة، والتي فرضت نقل الميزان الخاص به، و في المناطق الأخرى من إفريقيا نجد اللجوء إلى استخدام الأقمشة كعملة مقابل شراء المستحقات، كما نجد أيضا اللجوء أيضا إلى الجلد، أو الملح و النحاس و الحديد، و انطلاقا من القرن 11 م، أشار المؤرخون إلى وجود الصدف* التي تعوض العملة النقدية المعدنية عند الأفارقة. و أشار البكري إلى أهميتها في إمبراطورية غانة. لكن العمري يشير فيما بعد أن الصفقات التجارية كانت تتم بواسطة الصدف [3]. و لقد شاع استخدامها إلى غاية القرن 19 م، في كل الغرب الإفريقي خاصة في الحوض الأوسط لنهر النيجر، الساحل الموريطاني و البنين [4].

---

1. البكري، نفس المصدر، ص 179.
2. لومبارد (موريس)، "الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية"، في "بحوث في التاريخ الإقتصادي"، ص 66.

* الصدف : تدعى بالعامية الجزائرية "الودع"، كان العرب يجلبونها من جزر المالديف في المحيط الهندي، لتستخدم في إفريقيا كحلية ونقود.

3. أنظر GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », pp .71-72.
4. أنظر MEUNIÉ (J.), « Le Maroc saharien des origines au XVI siècle », p 243.

و قيمة هذه الصدف تحدد مقارنة مع الذهب حسب فترات مختلفة، مثلا نجد 3000 صدفة "Coquilles" مقابل مثقال من الذهب و الذي يناسب (4,5 غ من الذهب)، و هذا الرقم بإمكانه أن يرتفع أو ينخفض حسب الأوضاع خاصة كفترة الجفاف أين نجد 500 صدفة مقابل مثقال من ذهب. إذن، فالملاحظ هنا اللجوء إلى عدة استخدامات تفرضها الحياة اليومية للإنسان الإفريقي دون العودة إلى عملة رسمية تمثل ختم الدولة و سيادتها [1].

إن ارتفاع عدد مراكز ضرب العملة الذهبية في المغرب و إسبانيا قد أذهل علماء الاقتصاد، حيث وصل عدد هذه المراكز التي ضربت العملة لحكام المغرب فقط عشرين دارا، إلا أن الملاحظ أنها لم تنشأ في فترة واحدة [2]. هذه المراكز التي عرفت ضرب العملة كانت عبارة عن مدن أو مراكز سياسية-إدراية، أو تجارية لأنظمة الحكم التي عرفها المغرب الإسلامي حيث كان معروفا أن اختيار مركز ضرب السكة كان يتماشى والأوضاع السياسية و الاقتصادية للدولة [3].

و من بين أهم هذه المراكز التي يقتضي البحث عنها، مركز "سجلماسة" المحطة الصحراوية، الذي بدأ ضرب العملة الذهبية بها سنة 311 ه/923م و استمرت إلى سنة 823 ه/1420-1421 م. لقد سكت فيها العملة الذهبية لصالح بني مدرار و للأمويين والفاطميين. وبعد سنة 446ه/1054-1055 م يبدأ بضرب العملة الذهبية لصالح المرابطين إلى غاية 483 هـ/1090-1091م، كانت سجلماسة المركز الوحيد الذي كان يسك عملة ذهبية لصالحهم في المغرب الإسلامي إلى غاية ظهور المركز الثاني، و هو مركز أغمات سنة 486هـ/1093م أي بعد حوالي 30 سنة. و السنة الوحيدة التي توقف فيها الضرب، في هذا المركز كانت 459هـ/1066-1067م [4].

---

1 أنظر .GIRI (J.), op.cit, pp 71-72

2 أنظر .BENHSAIN (M.R.), op.cit, p .57

3 Ibid., pp 60-61.

4 Ibid., p.62.

و تدخـــل سجلماســـة تحـــت سيطـــرة المرابطـــين سنـــة 446 هـــ/1054 م، وضربت بها العملة الذهبية لأول مرة لصالحهم سنـــة 450 هـــ/1058 م، و استمـــر ذلك إلى غايـــة 541 هـــ/1146 م. و بعد هـــذا التاريـــخ تبدأ سجلماســـة بالتخفيـــض من نسبـــة ضربها للعملـــة الذهبيـــة لصالـــح المرابطـــين [1].

المركز الثاني بعد سجلماسة هو مركز أغمـــات*، هذا المركز الذي يبدأ في ضـــرب العملة سنة 486 هـــ/1093 م، أي بعد حـــوالي 35 سنة بعد استقـــرار كل من أبي بكر ويوســـف بن تاشفيـــن في هذه المدينـــة و بعدها بثلاث سنوات يبدأ الضرب في مركز مراكش أي في عام 490 هـــ/ 1096-1097 م [2]. و ازدهـــر مركزها من 486 هـــ/ 1093-1094 م إلى غايـــة منتصـــف القرن الثاني عشر، و يعود انخفاض ضرب العملة في مركز سجلماسة السالـــف الذكر، إلى زيادة الضرب في مركز أغمات، فهو بذلك يعد من أهم مراكز ضرب العملـــة الذهبيـــة المرابطيـــة [3].

مركـــــز تادلـــــة " Tadla ":

ساهمت هذه المدينـــة في ضرب العملـــة الذهبيـــة عام 493 هـــ/1099-1100 م، لصالـــح المرابطيـــن. و تادلـــة كانت ضمن حكم أســـرة بني يغـــران خلال القرن 10 و 11 الميلاديين. و لم تذكـــر المصادر الموقـــع الحقيقي لهذه المدينـــة، و الـــتي لا تعني بكل تأكيـــد قصبـــة تادلـــة الحاليـــة، التي تقـــع بالقـــرب من مدينـــة فـــاس. إضافـــة إلى هـــذا كانـــت

---

1. أنظر. BENHSAIN (M.R), op.cit, p .63.

* أغمات : تقع في قبيلة مراكش، و هي مدينة قديمة البنيان، قيل أنها من بنيان الحواريين، و هي حاضرة المصامدة و دار الملك قبل أن تبنى مراكش. أنظر مخطوط الأربع كراسات، المكتبة الوطنية الجديدة، تحت رقم 2321.

2. BENHSAIN (M.R), op.cit, p .63.

3. أنظر. MEUNIÉ (J.), op.cit, p. 244.

تادلـــة مركـــز ضرب الدينـــار " الصلـــع "، الذي هو نفـــس العملـــة التي أشـــار إليها البكـــري في تادمكـــة، بالرغم من عدم أهميـــة هذا المركـــز ، إلا أنـــه ساهم بشكـــل جيـــد في ضرب العملة الذهبيـــة المرابطيـــة(1).

مركـــــز تلمســـــــان :

لم يكن مركز تلمسان الذي بدأ مساهمتـــه في ضرب العملة الذهبيـــة المرابطيـــــة عام 494 هـــ/ 1100-1101 م، يقل أهـــمية عن بقيـــة المراكـــز الأخرى التي ساهمـــت في بروز عملـــة المرابطيـــن داخل و خارج المغـــرب الإسلامي، فبالرغـــم من أن إصداراها كانت ضعيفـــة مقارنـــة بالمراكـــز المذكورة سابقـــا، إلا أها كانت توحـــي إلى مدى بســـط المرابطيـــن لسيادهـــم في مختلـــف أجـــزاء المغـــرب الإسلامـــي، كـــون هذه المراكـــز تشكـــل إحدى المؤسســـات الحكوميـــة التي تبـــرز مدى ثبات سلطـــة الدولـــة وتوســـع نفوذهـــا.

مركــــــز سبتـــــــة :

سبتة، هذه المدينـــة التي تطل على واجهتـــين بحريتـــين، تعتـــبر أغنى و أجمل المدن و تحتوي على مركز لضرب النقـــود، يقـــع في المنطقـــة التي تدعى القصبـــة على جبل مينا. ويعتـــبر من بين المراكـــز المغربيـــة النـــادرة الـــتي ضربت بها العملة دون انقطـــاع طوال فترة العصـــور الوسطى، إلى جانـــب مركـــز فـــاس و مراكـــش. بـــدأ العمـــل بها عام 403 هـــ/1012 م. و يعتبر من أهم مراكـــز إصـــدار النقـــود الذهبيـــة في المغـــرب. إلا أن هذا لا يعني أنـــه كان يلبـــي كل مطالـــب الضرب الذهـــبي لبحر الـــروم، و هذا ردا على كل الدراســـات التي كانـــت تؤكد على أن إصدارات هذا المركـــز كان يفوق كل التصورات (2).

---

1. أنظر .BENHSAIN (M.R), op.cit, p .82
2. Ibid, p 88.

و كان يوسف ابن تاشفين الوحيد الذي ضرب العملة الذهبية سنة 484 ه/1091-1092 م، في هذا المركز و عدد القطع التي تم تعيينها هو 8 دنانير، أي ما يعادل 0,0066 % من مجموع القطع المغربية المفروضة في عهد المرابطين. و منذ القرن 10 م أصبح هذا المركز يصدر دنانير حسنة السمعة و كانت مساهمته من عملية الضرب الذهبي تقدر بـ 0,028 ، انطلاقا من سنة 450 ه/1058- 1059م.

بدأ مركز سبتة في ضرب العملة الذهبية في عهد الحموديين عام 403 هـ /1012-1013م، و كان الإصدار باسم علي بن حمود ما بين 400 هـ/1009-1010م و 408 هـ/1017-1018 م.

مركز مراكش :

بدأت دار مراكش في ضرب العملة الذهبية عام 485 هـ/1092-1093 م، وعرفت المدينة في عهد المرابطين ازدهارا و نموا سريعا لم يسبق أن عرفته أية منطقة قبلها. و كانت هذه المدينة حلقة و صل بين مشارف الصحراء و فاس – عاصمة الأدارسة-. و الملاحظ أن سكها للعملة الذهبية لم يكن في مستوى مركز سجماسة و فاس، إلا أنه كان لها دور سياسي جعل كل دول المغرب تنافس عليها فيما بعد [1].

---

1 أنظر Ibid, p. 92

و الخلاصـــة هي أن المراكـــز المذكـــورة لم تكن الوحيـــدة التي ضربت بها العملة الذهبية في المغرب الإسلامي، ما بين القرنيـــن 3 و 5 هــ/9 و 11 م، بل كانت هنـــاك مراكز أخرى عرفها الشمال كالقيـــروان و المهدية و المنصوريـــة، إلا أن ذكـــر المؤرخيـــن لها دون دراسة دقيقـــة، صعّب علي مهمـــة تعريفها و إدراجهـــا ضمن سلسلـــة هـــذه المراكز التي اشتهرت على الخصوص في عهد المرابطيـــن و الفاطميـــن و الأمويـــن أيضا.

الفصل الثالث

معدن الذهب و التبادل التجاري
بين المغرب و السودان

1. – الذهـــب و المجتمـــع الإفريقـــــي

أ. أهمية الذهب في المجتمع السوداني و الإفريقي عامة
ب. تسويق الذهب داخل بلاد السودان

2. – المبـــادلات التجاريـــة بين المغـــرب و الســـــودان

أ الذهب يتصدر واردات المغرب
ب السلع الأخرى

3. – مســـــالك تجـــارة الذهـــــب

أ. المسلك الغربي
ب. المسلك الأوسط
ت. المسلك الشرقي

4. – محطـــــات تجـــارة الذهـــــب

أ. المــــدن
ب. القصور

1. الذهـــب و المجتمـــع الإفريقـــي

أ. أهمية معدن الذهب في المجتمع الأفريقي و السوداني عامة

بعد دراستي للموضوع و تحليلي له، اكتشفـــت أن لمعدن الذهـــب ثلاث توجهـــات أو نظرات داخل المجتمـــع الأفريقي. فالنظـــرة الأولى تنطلـــق من العـــادات والتقاليـــد، و ما فرضتـــه من طقوس لاستغلال هذا المعـــدن الثميـــن. و النظرة الثانيـــة تنطلق من الديـــن الإسلامي وما أحدثـــه من تغييـــر في أوســـاط هذا المجتمـــع الأفريقي بعد توسع الفتوحات الإسلاميـــة، أما النظرة الثالثـــة فتتمثـــل فـــي النظرة الاقتصاديـــة، و ما أحدثتـــه من تغيير وجهة النظر في هذا المعدن الثميـــن.

فالنظرة الأولى، المتمثلة في المعتقدات الاجتماعية لإفريقيا، تنطلق من أن للمعـــادن طابـــعا مقـــدسا، فمن خلال النظـــر إلى النحـــاس و البرنـــز و الحديـــد، وجدت ان لها أثـــرا في التصـــور الاجتماعـــي، حيث يرتبـــط كل معـــدن بقوي حاميـــة. فمعدن " Laiton " أو الشبـــه المعروف بالنحـــاس الأصفـــر، تُبعد به المجتمعات الأفريقيـــة الآلام والخطـــر الخارجي[1]، أمـــا الحديـــد فهو رمـــز القـــوة الحربيـــة والسحر الديـــني، أما النحـــاس فهو أكثر أهميـــة من معدن الذهب، لأن الأفراد يستخدمون في حياتهم اليومية كأوان وحلـــي. ولقد استبـــدل معدن الذهـــب بالنحـــاس لقرون عدة .و هذا ما جعـــل المجتمـــع الإفريقي- في نظري_ يبتعـــد عن استعمـــال المعـــادن المذكورة و يهتـــم اكثـــر بمعـــدن النحاس.

---

1. أنظر MEYER (L.), « Les Métaux précieux dans l'Art de l'Afrique Noire », Ed. Sépia, 1997, p.12.

أما بالنسبة لمعدن الذهب فالأمر يختلف تماما، فمن خلاله اكتشفت مدى توسع الفكر الأسطوري والخيالي في المعتقدات الإفريقية و العمق الحضاري في مجال الوثنية و ارتباطاته بهذا المعدن، فلا يعتبر معدن الذهب عنصرا من عناصر الثروة أو معدن نصنع منه حلية أو تحفة فحسب، بل تعدى هذا التصور في فكر هذه المجتمعات، إلى اعتباره مادة مقدسة. فالجوهرات والتحف المصنوعة منه، لا يهدف من ورائها التجميل و الزينة بقدر ما كانت تعني الوساطة التي تلعبها مع الآلهة وعالم الجن التي تنتمي إلى العالم الخفي [1].

فالمرأة التي تتزين بحلية الذهب تهدف من وراء ذلك إلى وضع الحجاب الواقي الذي يبعد عنها كل مكروه بل ربما أكثر من ذلك فهو القادر على منح الحياة لأنه أنبل معدن لونه بنفس لون لهيب الشمس، يخفي قوى غير طبيعية، ليصنف فيما بعد بالمعدن الذي يمنح القوة والسعادة والنجاح كما يمنح الصحة والثراء و الحياة الأبدية لأولئك الذين يستعينون به ويعتمدون عليه في نشاطاتهم السياسية والاجتماعية و الدينية ليس كعملة و لكن كإله يهتم بمصير أوفيائه [2].

هذا ما يدفع إلى الاستنتاج أن معدن الذهب استطاع فعلا أن يوجه عادات وتقاليد المجتمع الإفريقي بل صانعها. فمن باب اعتبار أن الذهب عامل من عوامل الثروة بشكل مقدس لدى هذه القبائل، وجدت أن الفرد يجب عليه أن يسير وفق القانون الذي فرضته القبيلة، كما لا يجب عليه التقرب من هذا المعدن دون استشارة رئيس القبيلة أو رب الأسرة.

---

1. انظر Ibid, p.12.
2. Ibidem، أنظر أيضا : KIÉTHÉGA (J.B.), « L'Or de la Volta Noire », p.185.

فالبحث عن منجم الذهب يتطلب التقرب من رئيس القبيلة الذي يوجه بدوره الفرد إلى سيد الأرض، وهذا الأخير يصدر بدوره التعليمات التي تتماشى والقوانين التي وضعتها القبيلة من أجل البحث عن هذا المعدن. فإذا عثر على منجم الذهب في المناطق المسموح بها يجب على الفرد أن يُعلم كل أفراد العائلة لأداء الطقوس التي تميز هذا الحدث العائلي، حيث تشرع العائلة بعد ذلك في إخراج كل الممتلكات* التي يحتويها البيت وإخلاء هذا الأخير ليدخل الذهب، لأن الاعتقاد يجعل من الذهب ثروة أساسية، بينما الممتلكات الأخرى ثانوية [1].

و بعد إدخال الذهب إلى البيت تعاد تلك الممتلكات التي أخرجت منه، دون أن ننسى القرابين التي تقدمها العائلة بهذه المناسبة لإبعاد كل الأرواح الشريرة عنها أثناء استخراج الكميات الأولى من الذهب و منح جزء منها إلى سيد الأرض.

أثناء البحث عن معدن الذهب، لا يمكن للإنسان المختل عقليا أو الذي لا يوثق فيه أن يشارك أو تسند إليه هذه المهمة النبيلة و المقدسة في آن واحد. فلا بد أن يكون الرجل في كامل قواه العقلية لكي تفوض إليه هذه المهمة، لأنه إذا تجرأ فرد من أفراد العائلة أن يبوح بسر مكان تواجد منجم الذهب، أو بيعه دون إخبار أو استشارة رئيس الأسرة، فإن هذا الأخير يتعرض إلى عقوبة الموت داخل إحدى هذه المناجم، لان الذهب إذا دخل العائلة فهو بمثابة الجن الذي حضر ليعيش معها [2].

---

* الممتلكات : يقصد بها رؤوس الأغنام و بعض الأواني الثمينة.

1. أنظر KIÉTHÉGA (J.B.), op.cit, p.187.
2. MEYER (L.), « Les métaux précieux… », p.10.

ولتمييز أفراد المجتمـــع، وجـــدت أن بعض الروايـــات قد أشارت إلى ذلك بشكل طريف، وتذكـــر بعض هذه الروايات أنـــه إذا أراد أي فـــرد من أفراد القبيلة أن ينظـــم إلى إحـــدى القبائـــل النبيلـــة أو الشريفـــة، لابد له أن يستعـــد للاحتفال الذي يقام سنويـــا ولمدة أسبوع، و يتميـــز هذا الاحتفـــال بأن يضع كل فرد يرغب في الانضمـــام لإحدى العائلات الشريفـــة ما يملكـــه من ذهب أمام أعيـــان القبيلـــة، التي تقبل انضمامـــه أو ترفضـــه [1].

كما ميز هذا المعدن العلاقة بين الحاكم و المحكوم في الرواية التي أشار إليها البكري عند وصفـــه لملـــك غانـــة قائلا : "وتنكاميـــن هذا شديـــد الشوكـــة عظيم المملكـــة مهيـــب السلطان [...] " [2]، وهذه القوة التي ميزت سلطـــة وملوك غانـــة عن بقية ملـــوك إفريقيا فيمـــا بعد أرجعها العديـــد من المحلليـــن إلى معدن الذهـــب الذي استولـــت عليه هذه الإمبراطوريـــات و احتكرت تجارتـــه.

وبروز الملك أمام العامـــة بتلك الألبســـة الفاخرة والحلي المذهبـــة والسيـــوف المحلاة بالذهـــب، ما هو إلا رمـــز من رموز القـــوة والسلطـــة والثـــراء، حيث يتفاخر بها الملك أمام الملـــوك الآخرين. ويقول الإدريسي في هذا الشـــأن : " إن لملـــك غانـــة لبنـــة من ذهب (أي تبـــرة من ذهـــب) تـــزن ثلاثيـــن رطـــلا فهي تبـــرة واحـــدة خلقهـــا الله من غير أن تسبـــك في نـــار أو تطـــرق بآلة وقد نقر فيهـــا ثقب وهي مربـــط لفرس الملك وهو يفخر بها على سائر ملوك الســـودان" [3].

---

1. Ibidem
2. البكري، المصدر السابق، ص.175.
3. الإدريسي، المصدر السابق، ص.7.

و ما يمكن الإشارة إليه هو ذلك المعتقد الذي يعني أن المملكة تبقى مستمرة بعد وفاة الملك. و ما زال الذهب إلى حد اليـــوم يمثل أحد رموز السلطة و القوة لدى العديـــد من القبائل الإفريقيـــة، بفضل المقعـــد الذهـــبي* الذي يرمـــز إلى خلـــود سلطـــة الأســـرة الحاكمـــة والملك الذي يمثلهـــا، ما دام هـــذا الملك محافـــظا عليه ولا يدنس قدسيتـــه [1]. وهكذا يمكنني أن أستنتـــج من جهة أخرى أن العـــادات الأفريقيـــة والمعتقدات الوثنيـــة قد وجهت فعلا معدن الذهب بجعله معـــدنا ذي طابـــع إلهـــي وروحـــي في آن واحد.

غير أنه سرعان ما تتغير هذه النظـــرة بعد دخول المسلمين إلى المنطقة وتوسع الفتوحـــات الإسلاميـــة، فيبرز توجـــه ثان يبين دخول الذهب في المرحلة الثانيـــة من التسلسل التاريخـــي لعلاقـــة المجتمـــع الإفـــريقي بمعـــدن الذهب.

إضافـــة إلى ما سبق ذكره، تجدر الإشارة إلى أنه قبل دخول الإســـلام إلى إفريقيـــا، وُجّـــه معـــدن الذهب للحيـــاة اليوميـــة، خاصة في السوق الداخليـــة و كذلك صناعـــة الحلي، بالإضافـــة إلى الاكتنـــاز العائلـــي [2]. غير أنـــه بعـــد دخول التجـــار العـــرب والبربـــر اصبح معـــدن الذهـــب يكتسي طابعـــا جديـــدا حيث أصبـــح من ماديات الحيـــاة، لا علاقـــة له بالأرواح المقدســـة و لا الآلهـــة المعبـــودة، ما دام الإســـلام الذي انتشر في المنطقـــة يفـــرض عبـــادة الإلـــه الواحـــد الذي لا يشرك به أحد.

---

* المقعد الذهبي : رمز من رموز معتقدات شعب "Akan"، غانة الحالية، و الذي يرمز إلى سلطة الملك الذي يحافظ على ملكه ما دام محافظا على هذا المقعد الذهبي. و مدى احترام الرعية له، يعود إلى مدى تقديسه و إكرامه لهذا المتعد، حيث شكل القوة الإقتصادية والسلطة الروحية و الإخلاصية التي يمتلكها الملك. (أنظر الصورة في الملحق).

1. أنظر MEYER (L.), op.cit, p.8.

2. أنظر ASHBY (M.J.), « Black Gold Smiths Jewelry and women in Senegal » The requirement for the degree of doctor of philosophy in African art », volume 1, studies of Stanford university, March, 1980, p.3.

هذا ما يفسر ابتعاد العديد من هذه المجتمعات عن تقديس هذا المعدن في كل من موريتانيا وشمال غانا والتشاد، بالإضافة إلى إقبال هذه المجتمعات على استعمال معدن الفضة و النحاس أكثر [1]. و أهم ما أستدل به هو قول الرسول صلى الله عليه و سلم أن : " الذهب محرم على الذكور من أمتي". وفي حديث آخر و هذا معناه : أن من يشرب في آنية من ذهب كمن يجرجر النار في بطنه. و هو ما نص عليه الإسلام في الابتعاد عن اكتناز الذهب والفضة التي هي من أكبر سمات المجتمع الإفريقي في التعامل بمعدن الذهب. و هذا ما يؤكد أيضا مدى تقدير الإسلام لهذا المعدن الذي يجب أن ينفق من أجل قضاء حاجيات الإنسان الدنيوية وان اختل التوازن في هذا المجال فإنه يعود بطبيعة الحال بالخسارة على الأفراد و الجماعة معا.

أما التوجه الثالث الذي هو محور هذه الدراسة، فيتمثل في الجانب الاقتصادي والدور الذي لعبه معدن الذهب في الحياة الاقتصادية لإفريقيا قبل دخول الإسلام وبعده، ليتطور أكثر بعد الدخول الأوروبي. وعلاقة هذا المعدن بالحياة المالية للعالم الغربي خاصة بعد أن اكتشفت التقنيات الكبرى و إدخالها في استغلال هذا المعدن و معالجته، الشيء الذي أثر بشكل كبير في الحركة التجارية التي عاشها الغرب والشرق المسيحيين والعالم الإسلامي معا[2]. و بهذا يصبح هذا الموضوع من أهم الدراسات التي يجب أن تلقى عناية، لمعرفة مدى الدور الذي لعبه معدن الذهب في تنظيم الحياة الاقتصادية في إفريقيا الغربية و تأثيراته الاجتماعية و التجارية.

---

1. أنظر MEYER (L.), « Les métaux précieux... », p.10.
2. عن هذا الموضوع، انظر لومبار موريس " الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي" و مقالات كل من لومبار موريس و برودل في "بحوث في التاريخ الاقتصادي" و بوفيل "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير".

ب. تسويق الذهب داخل بلاد السودان

لقد استطاع معدن الذهب و لعدة قرون أن يجعل من إمبراطوريات السودان رمزا للحضارة الأفريقية في جزئها الغربي، خاصة بعد توسع الفتوحات الإسلامية واجتيازها للساحل. إلا أن الكتمان الذي كان يحيط بهذا المعدن الثمين، و العادات الإفريقية التي جعلت منه وجودا مقدسا، حال دون معرفة العديد من الأسرار التي من شأنها أن توضح النمط الذي اتخذ في حياة المجتمع الإفريقي سواء من الجانب السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

و السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذه النقطة، هو كيف كان الأفارقة يتعاملون مع هذا المعدن في المجال الاقتصادي، أو بالأحرى، ما هي المكانة التي احتلها معدن الذهب في تجارة السودان الغربي، و ما هي المراحل التي كان يمر بها قبل أن يسوق شمالا باتجاه مدن المغرب الإسلامي و بحر الروم.

أكدت العديد من الدراسات الحديثة و القديمة، إن لم أقل معظمها عن صعوبة تحديد النمط الذي كان يميز هذه التجارة، و السيادة التي كانت تشرف عليها، و لم أجد سوى تلك الإشارات البسيطة في الروايات التي نقلت على ألسنة الرحالة العرب و غيرهم واتي أزالت الغبار عن العديد من حقائق تاريخ هذه المنطقة. كما اكتشفت أن معظم الدراسات التي أنجزت في هذا المجال انطلاقا من السبعينات، اعتمدت غالبيتها على روايات كل من المسعودى، البكري و الادريسي و ابن بطوطة ...

لقد عرفنـــا كم كان صعبا على التجـــار العرب و البربـــر بعد فتحهـــم للسودان انطلاقـــا من القرن الثامن للميلاد، معرفـــة مناطـــق هذه المناجـــم و مواطنـــه الأصليـــة إضافـــة إلى طرق استغلالـــه، ليكون الأمر كذلك بالنسبـــة لهذه التجارة التي سيطرت عليها تقاليـــد هذا المجتمع و طقوســـه الدينيـــة.

لقد حاولـــت على ضوء ما تحصلـــت عليه من معلومـــات حول هذا الموضـــوع أن أضع تصـــورا بإمكانـــه أن يشمـــل مراحـــل هذه التجـــارة و الطـــرق التي كانـــت تتم بها، وهذا انطلاقـــا مما كتبـــه البكري [1] حول كيفيـــة استغـــلال الملك لمعـــدن الذهب، عند احتفاظـــه بالكتل الذهبيـــة و ترك التبـــر للناس، إلى الدراسات الغربيـــة و الإفريقيـــة التي تعمقت في دراســـة التجمعات السكانيـــة و نشاطاتها الاقتصاديـــة، مصنفة البعض منها على أنها قبائـــل تجارية احتكـــرت هذا النمـــط من التجـــارة، واضعة بذلك الشكل الذي ميز النشاط التجـــاري بين الشمـــال و الجنـــوب.

و قسمـــت هذا التصـــور إلى خمسة مراحل :

المرحلـــة الأولـــى، و هي التي تتضمـــن تسويق الذهـــب أو نقلـــه من المناجم إلى غايـــة المدن التي لعبـــت دور المستودعـــات :

لقد سبق و أن أشـــرت إلى جـــزء من هذه الدراســـة حينما تطرقـــت إلى عمليات استخراج الذهب من منجمـــه، إلا أن ما يهمني أكثـــر هو الإشـــراف على هذه العمليات من خلال ســـؤال أبحث له عن إجابـــة، و الذي يدور حـــول تلك العناصـــر التي استحـــوذت على معـــدن الذهب مباشـــرة بعد استخراجـــه من المنجـــم.

---

1. البكري، المصدر السابق، ص. 77.

انطلاقـــا مما ذكر في العديـــد من الروايات، توصلت إلى الاستنتـــاج أن الذهب بعد خروجه من المنجـــم يتخـــذ ثلاث اتجاهـــات : الأول نحو مالكيـــه، مشكلا مكتنـــزات الذهب الذي تمتلكـــه العائلـــة [1]. أما الاتجـــاه الثـــاني، ففيه يستحوذ المشرفـــون على هذه التجارة، على جزء من هذا المعدن، و هؤلاء هم "Les Julas" [2]، وهي عبـــارة عن مؤسســـات تجاريـــة صغيرة تستخـــدم العبيـــد بإدارة السيـــد. أما التوجه الثالث، فهو الذي يذهب على شكل ضريبـــة أو غرامة مقابل تقديم خدمات، كحراسة المنقبين من المعتدين أو الهمجيين، و ربما هؤلاء ينتمون إلى الملك.

في هذه المرحلة يمكنني الإشارة أيضا إلى تلك التجارة الصامتـــة، التي طالما حيرت الكتاب و الدارسين للموضوع، بالرغم من أنهـــا وردت في العديد من النصوص التاريخيـــة انطلاقا من هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى غاية المسعودى و المؤلفات الأوربيـــة في العصر الحديث، غير أنها صنفت من بين الروايات الأسطوريـــة التي ميزت معدن الذهب الإفريقي، بل و راح البعض من المؤلفين الغربيين إلى تكذيبهـــا و عدم التسليم بها، لأنه لا يوجد أي دليل يثبت هذه الروايـــة من طرف العرب و الأوربيين. لكن ما توصلت إليه هو أن هذه الرواية يمكن ربطها برواية "رجـــال الذهـــب" الذين يسكنون الكهوف المحفـــورة في الأرض، وهم الوثنيـــون آكلي لحوم البشـــر [3].

---

1. MEYER (L.), op.cit, p.10.
2. BATHILY (A.), « Les portes de l'Or », Paris, L'harmattan, 1989, p.175.
3. HEYD (W.), « L'histoire du commerce – du levant au moyen âge – », 3e éd. Leipzig, 1986. p 55.

لا توجد أية وثيقـــة تؤكد أن الونقارة ، أسلاف الديـــولا قد مارسوا تجـــارة واضحة مع أي فئـــة من سكان إفريقيا، خاصة تلك الفئة التي تقطن المناطـــق البعيدة عن المراكز التجارية المعروفـــة عند العرب أو الأفارقـــة، هـــذا ربما ما يفســـر و بشكل كبير تلك الروايـــات المتعلقة بالتجارة الصامتـــة التي ذكرها العديد من العـــرب و غيرهم في هذا الشأن. لذا لا يمكن لي تكذيـــب هذه الروايـــة كما كذبتها الدراسات الغربيـــة التي أصبحت تخضـــع كل حادثة تاريخيـــة إلى أدق التحاليل العلميـــة، ملغية بذلك أهم الروايـــات التي لعبت دورا أساسيا في نقل و تحليـــل واقـــع أفريقيـــا البعيد و الغامض.

لقد أشـــار كل من ابن بطوطـــة و العمـــري، إلى هذه الفئة من الأفارقة الذين أستطيع من خلالهم أن أقول انـــه من المعقول جـــدا أن تكون هذه التجارة موجـــودة بين الونقارة و الهمجيين هـــؤلاء. و بالنسبة لرواية ابن بطوطة أين يقول : " أن منسي سليمان * الذي قدمـــت عليه جماعة من هؤلاء الســـودان الذيـــن يأكلون بني آدم، و معهم أميرهم [...] في بلادهم يكون معـــدن الذهـــب، فأكرمهم السلطان و أعطاهم في الضيافـــة خادما، فذبحـــوها و أكلوها، ولطخـــوا وجوههم و أيديهـــم و أتوا السلطـــان شاكرين" [1].

أما هايد فيشير إلى هذه الرواية نقلا عن العمري قائلا : " أن سكان بلاد الذهب متوحشـــون و وثنيـــون. و هذا يعني أنهم ليســـوا كالذين عرفهم العرب و البربـــر، أي لا يدينـــون بالإسلام و هم من آكلي لحـــوم البشـــر" [2].

---

* منسي سليمان : هو أعظم ملوك مالي، حكم ما بين 742 هـ/1341 م و 761 هـ/1360 م.

1. ابن بطوطة، "الرحلة – تحفة النظار في غرائب الأمصار- "، بيروت لبنان، دار الكتاب العلمية، ص.700.

2. HEYD (W.), op.cit, p 53.

و بما أن هذه الرواية مازالت موجودة و أن الدراسات الغربية الحديثة تلقى الطريقة التي كان يباع بها الذهب في هذه الفترة يمكن لي أن استنتج أن التجارة الصامتة * كانت ربما الوسيلة الوحيدة التي جلب بها تجار الونقارة الذهب من هذه المناطق البعيدة، ليس من المناطق التي ذكرها العرب فقط، بل حتى التي لم تتم الإشارة إليها في مصادرهم. و تجار الونقارة ** هؤلاء هم الفئة الوحيدة التي كانت تتصل بالزنوج اهمجيين، لأنهم كانوا يثقون فيهم اكثر من أي فئة أخرى. ومن بين الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بذلك، أهمية معدن الملح عند هؤلاء، حيث لم تتوقف عند حاجة الجسم لهذه المادة للحفاظ على توازنه، بل أضحى هو الآخر يغذي بعض المعتقدات التي أصبحت رمزا للقبائل الإفريقية و التي كثيرا ما تدعو للغرابة و الدهشة.

و يقول بوفيل، نقلا عن كادا موستو في وصفه لبعض القبائل الإفريقية : " أن لونهم شديد السواد، لهم أجسام حسنة التكوين و هم أكبر منا بشبر واحد، و شفتهم السفلى يزيد عرضها على شبر متدلية إلى الأسفل نحو الصدر، و من شدة الحرارة تتعرض إلى التعفن و لا يجدون سبيلا لصيانة أنفسهم إلا برش الملح عليها بصورة مستمرة. و ترددت هذه الرواية على لسان أوروبي أخر يدعى ريشارد جوبسون و الذي قال انهم يولدون بشفاه طويلة [1].

يمكن لي أن استنتج من خلال الروايتين السابقتين أن تدلي الشفاه السفلية، يعود إلى أن بعض القبائل عند استعمالها للحلي تلجا إلى إحداث عدة تشوهات في الجسم كالتي تستدعي نقر الشفتين أو إحداهما لوضع أسنان الفهد، أو "حلقات من المعدن تتعدى في بعض الأحيان عرض قطعة خمسة فرنك فرنسي" [2]، و مع استمرار الوقت تطول هذه الشفة لتصل إلى غاية الصدر. هذا ما يفسر حسب رأيي العلاقات الوثيقة التي كانت بين رجال الذهب المحتاجين للملح و تجار الونقارة أو الديولا المحتكرين لتجارة الذهب، انطلاقا من مضمون الروايتين السابقتين، إضافة إلى كون الملح مادة أساسية لنمو جسم الإنسان.

---

* التجارة الصامتة : أشار إليها هيرودوت في القرن 5 ق.م، و المسعودي عام 950 م في كتابه مروج الذهب.

** تجار الونقارة : هم الذين ينقلون الذهب.

1. بوفيل، "تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ترجمة الهادي أبو لقمة و محمد عزيز، ط.2، بنغازي، ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، 1988، ص.217.
2. أنظر DELAFOSSE (M.), « Les Civilisations Negro-Africaines », Paris, Librairie Stock, 1925, p.116.

لكن أقول أنه لو سلمت بأمر رفــض هذه الروايــات لعدم التأكد من صحتها، يمكن لي أن احتفظ بالاستنتاج الذي يقول : أن تسويق الذهب في إفريقيـا قيدته عادات وتقاليـد القبائل الإفريقــة، مع احترام قدسيــة وألوهية هذا المعــدن.

المرحلــة الثانيــة و التي ينتقــل فيها الذهب من هذه المــدن إلى المراكــز التجاريــة الكبــرى :

في هذه المرحلــة يتم نقل الذهب من المنجم أو مناطــق البيع إلى المستــودع. وتبــدو هذه الكلمة غريبــة، لكن الدراســات الحديثــة التي أعتمدت على التنقيبــات الأثريــة و الدراسات الجيولوجيــة استطاعت أن تفصل بين المناطق التي كانت تنتج الذهب والمناطــق التي كانت تسوقــه. نجــد خلال هذه المرحلة بــروز الدور الكبير لسكــان الونقارة أو الديولا * الذين احتكروا هذه التجــارة، و ربما هذا الاحتكار هو الذي دفع بالأوروبيين إلى القول أن نمط التجارة الصامتــة التي ذكرت في العديد من المؤلفات، هي من نسج خيــال الونقارة أو الديــولا، من أجل احتكار هذه التجــارة و إبعاد كل أجنبي عنها وحتى الأفارقــة.

ففي هذه المرحلة يوجه الذهب إلى المدن التي ذكرت خلال العصــور الوسطى على أنها مناجم للذهب كونقــارة التي لم تكن مقاطعــة لمناجم الذهب، لكــن مركزا تجاريا ينقل إليها الذهب من " Lobi " و" Gourounsi " ساحــل العاج و ساحل الذهب [1]، و على هذا الأساس قيل أن الإمبراطوريات الساحلية التي ظهرت في العصــور الوسطى لم تكن مؤسسات إنتاجية بقدر ما كانت مؤسسات تجاريــة.

---

* الديولا : هم الونقارة سابقا.

1. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel... », p.87.

أما بالنسبة لذهب منطقة " Lobi " و "Pourra " التي لم توجـد أية إشـارة إليها في المصادر العربيـة أو غيرها، فهي تعتبـر دليلا على الاحتكار التام الذي مارسه الديـولا، مادامت المناطق المعروفة هي : "Bambuk" و "Galam" و "Bure" و "Sankara" بحكم أن هذه المناطـق قريبة من محيط مملكة غانـة، أما الأخرى فهي بعيدة عن مركز نفوذها [1].

وما اكتشفتـه الدراسات الأثريـة حول منطقة " Lobi " هو وجود أسـوار تتراوح أطوالها ما بين 40 و 50 مترا، تحيـط بمواضـع الذهـب، و أغلب الاعتقاد أنها كانت من بين الأسباب التي جعلت المنطقة غير معروفـة عنـد العرب و حتى الأفارقـة [2].

و يؤكد هذا لومبارد موريـس : " أن المسلميـن لم يعرفـوا طرق استخراج الذهـب إلا من خلال سماع روايـات الوسطـاء المتمركزيـن بين حقـول الذهـب وأسواق التبـادل [... ... ...] و أن المناطـق الأخرى البعيـدة عن أسواق نهر النيجـر ومنخفـض نهر السنغـال، لم يقـدم العرب عنها أية معلومـة، حيث كان الذهـب يحملـه الرجـال على ظهورهـم إلى غايـة مناطـق التبـادل، خاصـة منها " Sierra Leone " و " Gold Coast " [3].

أما المصدر الحقيقي الذي يشير إلى الفئـة التي احتكرت تجـارة الذهب، يتثل في رواية البكـري الذي يقول : " و مِن يـرسني يجلـب السـودان العجـم المعروفـون (بنو نغمارتـة) و هم تجـار، التبـرَ إلى البلاد " [4]. و من خلال ما سبق يمكن القول أن التجار الونقارة كانوا السباقين إلى احتكار هذا النوع من التجارة.

---

1. أنظر : KIÉTHÉGA (J.B.), op.cit, p.41.
2. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p.97.
3. أنظر : LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », pp.209-210.
4. البكري، المصدر السابق، ص ص.177-178.

هذه الطبقة من التجـــار التي استطاعت أن تبـــرز دورها في تاريـــخ تجـــارة إفريقيـــا عامة و الذهب خاصة، كانت من بين التشكيلات التي وجدت منذ التأسيـــس الأول للإمبراطوريات الكبرى، هذا ما سمـــح لها لكي تحتل مكانـــة ذات أهميـــة في المجتمـــع الإفريقـــي، ليتطور مركزها فيما بعد حيث تقوم بالإشراف على التجارة ذات المسافات الكبرى. و هـــؤلاء التجـــار لقبوا بالتجـــار المحترفيـــن، أو الونقـــارة "Wangaras" أو الماندينـــق "Mandings" و هم أسلاف الديـــولا " Dioulas " * [1].

بهذا الشكل يمكن القول أن الذهـــب في هـــذه المرحلـــة يـــخرج مـــن "Falème" و"Bambuk" وونقـــارة التي كانت تابعـــة لغانـــة [2]. و ذكر هذه المناطـــق ما هو إلا تأكيد أولا على عدم معرفـــة الأماكن الحقيقـــة لاستخراج الذهب بالتدقيـــق [3]، و أيضا تأكيـــد على أن هذه التجـــارة فعـــلا تمر بمرحلـــة المنجم ثم الســـوق الأولى و هي المناطـــق السالفـــة الذكـــر.

وأشير فيما بعد إلى محطـــات هذه المرحلـــة و هي وصول هذا الذهـــب إلى المستودعات الكبرى في الساحل و التي تتمثل في كل من غانـــة " Ghana" و تيشيت "Tichit" وولاتة "Walata" جاو -كاوكاو- "Gao" ثم تومبوكتو "Tambouktou" و أودغوشت "Aoudaghust" [4] التي كانت مركزا لاستقبال الذهب و انطـــلاق القوافل باتجاه جنوب المغرب الأقصى [5].

---

* الديولا : و هم العنصر الأساسي في المجتمع الإفريقي و عليه كان يعتمد في توزيع مواد الاستهلاك لأغلب السكان.

1. MAUNY (R.), « Tableau géographique.. », p 387.
2. DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale Française », 2e éd. Paris, Librairie Delagrave , 1937, p.76.
3. ASHBY (M.J), op.cit, p 2.
4. LEWICKI (T.), «Le role du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud», in « Histoire Générale de l'Afrique » T. III, l'Afrique du VIIe au XIe siècle, sous la direction de M. El-Fasi et I.HRBEK, Paris, Edicef/Unesco, 1997, pp.225.246.
5. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel... », p.87.

المرحلـــة الثالثـــة و التي ينتقل فيها الذهب من المراكـــز التجارية إلى المحطـــات الصحراويـــة :

و هي مرحلة فاصلـــة، و تتمثل في المحطـــات الصحراويـــة الواقعـــة في شمال الصحراء و هي المشكلـــة للمدن المغربيـــة التي نشـــأت على حدود بلاد السودان و التي كونت محطات تجارية حقيقية و التي تتمثل في كل من سجلماسة، و نول لمطة، و تامدلت، و ورقلة، وغدامس و زويلـــة، و التي تتشابه كثيرا بالمدن الساحلية [1]. و تعتبر هذه المدن أول انطلاقة لمعدن الذهب داخل أراضي المغرب، لتتم بذلك المرحلة الأولى لرحلة ذهب السودان نحو الشمال في انتظار المرحلة الثانية الكبرى، و التي يجتاز فيها المدن المغربية الشمالية الكبرى موجها أهدافه شرقا نحو القيروان و القاهرة ثم بغداد أو مجتازا البحر باتجاه الأندلس و جنوة. و عند اجتياز معدن الذهب لهذه المدن، كان يتعرض جزء منه إلى عملية التحويل كما سبق ذكره، أي ليتحول إلى عملة أو حلية. أما الجزء الآخر يواصل رحلته على شكل تبر إلى غاية الإلتحاق بمراكز التحويل بكل من فاس، مراكش، تاهرتن تلمسان...

و قبل إنهاء هذه النقطة لاحظت أنه من الظروري العودة إلى القوانين التي كانت تسير تجارة الذهب داخل السودان الغربي، و أعني بهذا العودة إلى النقطة الحساسة التي تطرقت إليها تقريبا كل الدراسات و المتمثلة في تدخل الملك و الإشراف عليها، ليكون السؤال كيف كان يشرف الملك على هذه التجارة، و هل كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر؟

لقد أفاضت المصادر الغربية في هذه المسألة، معتمدة في ذلك على نص البكـــري والتي بالغت في تأويله دون الأخذ بعين الاعتبار واقع معدن الذهب داخل المجتمع الإفريقي.

---

1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique... », p.387.

و يقول البكري : "و إذا وجد في جميـــع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك و إنما يتـــرك منها للناس هذا التبر الدقيق و لو لا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون"[1]. هذا ما تفسره العديد من الدراسات، و التي ترجع ثروة غانـــة إلى الاتجار بهذا المعدن و الذي كان على جانب كبير من الوفرة، و مراقبة الملك له تؤدي إلى الحفاظ على أسعاره، و هذا ما دفعه إلى أن يلعب دورا في احتكار الذهب أمام التجار العرب و البربر [2]. إذا سلمت بهذا الأمر أي أن ملك غانة، فعلا هو المحتكر لتجارة الذهب في السودان الغربي، ثم بعده يأتي كافة الملوك، فيجب عليا تكذيب كل الروايات التي وردت، بشأن تقديس الأفارقة لمعدن الذهب و التي تقول" أن الذي له الحق في امتلاك الذهب هو مستخرجه" [3] و الكتل التي كان يعثر عليها تذهب لصاحبها و ليس للملك والواجب الوحيد الذي يلزم القيام به هو احترام القوانين و الطقوس الدينية أي أن يحتفل بها أثناء العثور عليها [4]. هذا ما يفسر إحترام السكان لعاداتهم الاجتماعيـــة والدينيـــة قبل عاداتهـــم السياسيـــة.

و استبعاد الافتراض الأول الذي لجأ إليه العديد من المحللين، يعود إلى استحالة مراقبة الملك لكل هذه التجـــارة، التي كانت مناطقها بعيدة و مخاطرها أكثر. لأنه لاشيء يؤكد على أن البكري شاهـــد الملـــك أو عيونه و هي تراقب هذه التجارة داخـــل الأسواق أو خارجها.

حتى و لو افترض أن حدث هذا بعد توسع غانـــة على حساب أراضي السنغال والتي تم للملك فيها السيطرة على تراب الإمبراطوريـــة، يبقى هناك فرق بين الجانب النظـــري والتطبيقي [1] من جهة، و من جهة أخرى، يمكن إلغاء هذا الوضع بعد دخول المرابطين إلى المنطقة و استغلالهم لكمية كبيرة من هذا المعدن.

---

1. البكري، المصدر السابق ، ص. 177.
2. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ص.150.
3. أنظر : GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.91.
4. أنظر : MAYER (L.), « Les métaux précieux...», p.22.

لكن هناك ما يلفت الانتباه في رواية البكري السالفة الذكر و التي تتمثل في طبيعة تعامل الملك و معدن الذهب. لقد لاحظت أن كل الدراسات التي تطرقت إلى هذه الرواية خاصة الغربية منها انساقت وراء التصور الذي يجعل الملك دائما هو المحتكر و المراقب لهذه التجارة، تفاديا لانخفاض اسعار الذهب، هذا ما يمكن أن يحدث دون أدنى شك. لكن هناك شيء خفي في هذه الرواية، و يتمثل في أن الملك لا يتدخل دائما لمراقبة تجارة الذهب، بل عند انخفاظ انتاج الذهب فقط، و حتى في هذه الحالة يبقى الرمل الذهبي أي التبر في متناول الجميع. و بالتالي يمكن لي أن أستنتج أن تدخل الملك يحدث من أجل الحصول على تبرات الذهب الكبيرة التي كان يتفاخر بها بين ملوك السودان و التي كانت تشكل ثروته التي ميزت امبراطورية غانة طيلة أيام مجدها. و في هذا السياق أكون قد أجبت على السؤال الذي طرحته كل الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع و هو ماهي مصادر ثروة ملك غانة التي من خلالها كانت تسدد نفقات جيشه القوي؟ و لتدعيم هذا الجواب يجب العودة مرة أخرى لمعرفة المصادر الأخرى التي شكلت ثروة ملك غانة.

و يقول البكري في إحدى هذه الروايات :" و لملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد و ديناران في إخراجه، و له على حمل النحاس خمسة مثاقيل و على حمل المتاع عشرة مثاقيل" [2]. هنا يظهر الدور الوسيط الذي لعبته غانة في إعادة توزيع الملح نحو الجنوب [3]، والذي ربما لعبت فيه دورا كبيرا في رفــع أسعاره لصالحها، بسبب حاجة سكان الجنوب لهذه المادة. نظرا لأهمية و حاجة القبائل الإفريقية لهذه المادة. وهذه هي الطريقة الثانية التي كان يتبعها الملك للحصول على معدن الذهب. أما الطريقة الثالثة، فتتمثل فيما أشار إليه "KIÉTHÉGA" نقلا عن العمري : " أن الملك يكتفي بالغرامة التي تقدم إليه سنويا" [4]. والمقصود هنا الغرامة التي يقدمها رجال الذهب أو رجال الكهوف والونقارة، هذه الرواية التي أشارت إلى ان عدم معرفة العرب لمصادر الذهب يعود إلى رغبة الملك الذي لاحظ أنه في حالة اعتناق هؤلاء للإسلام يؤدي ذلك إلى خفض الإنتاج مقارنة بالمناطق المجاورة، و هذا بتأديتهم لواجب الصلاة [5].

---

1. أنظر : BATHILY (A.), « Les portes de l'Or », p.177.
2. البكري، المصدر السابق، ص.176.
3. أنظر : DEVISSE (J.), « Les Routes du commerce … », p.58.
4. أنظر : KIÉTHÉGA (J.B.), « L'Or de la Volta Noire », p.43.
5. Ibidem.

هناك من افترض أن الملك كان يأخذ حصتـــه من الذهـــب قبل توزيعها على التجار العرب و البربر، و هذا ما كان مستبعدا جدا خاصة أنه يحدث هـــذا في المدن الساحلية، بدليل عدم وجود أي أثر لذلك.

و الطريقة الثالثـــة، هي التي تقودنا إلى روايـــة ابن بطوطة السالفة الذكـــر، والتي تقدم لنـــا صورة تعامل ملك مالي و رجال الذهب، و لما لا يكون الشأن كذلك بالنسبـــة لملك غانة أيضا ؟ إلا أنه في خلاصة قولي حول هذه النقطة هو أن الواقـــع لم يؤكـــد وجـــود أية سلطة ناجحة في التاريخ، و التي نظمت عمليـــة التقاط الذهب لصالحهـــا، و أن التنظيـــم الاقتصادي داخل السودان الغربي في هذه الفترة لم يؤكد التدخل المباشر للسلطـــة في التنقيب عن الذهب و نقله من مكان إلى آخر بأي شكل من الأشـــكال [1]. و هذا ما يفسر أيضا عند البعض عدم وجود عملة نقديـــة تسير تجارة هذه الإمبراطورية بالرغم من توفر المعدن، إلا بعد تطور التجارة الصحراويـــة [2].

أما أخـــر مرحلـــة في هذه النقطة, وهي التي تتمثل في الشكل الذي كان يسوق به معدن الذهب نحو الشمال. و لم تشر المصادر العربية و لا حتى الدراسات الحديثة إلى أي شيء بإمكانه تفسير هذا الوضع، أي احتمال وجود ورشـــة بإمكانها أن تكـــون موضـــع تحويل الذهـــب الإفريقي من حالتـــه الأصليـــة الطبيعيـــة، أي "الرمل الذهبي" إلى الأشكال العديدة التي عرفناها في السوق، إلا في تلك المدن الساحليـــة التي اعتبرت مستودعـــات و أسواق كبرى لتجـــارة التبر.

---

1. BATHILY (A.), op.cit, p.178.
2. Ibid, p.179.

من المعقول جدا أن يبتعد الأفارقة المتوحشين عن حرفة الصياغة و سك النقود في أدغالهـم و أوديتهـم، فقد ذكرت بعض المراجـع أن أودغشـت، و غانـة و تادمكـة مراكـز كان يحـول فيها التبر إلى سبائك و خيوط مفتولة و قطع نقديـة [1]، و هذا ما أشـار إليـه البكري في كتابـه أن تادمكـة كانت تضرب فيهـا الدنانير غير المنقوشـة [2]. كما أشـار أيضا إلى أن أودغشت كانت مركزا كبيرا لتجارة الذهب، تصدره إلى الشمال بعد تصفيتـه و تحويلـه إلى خيوط مفتولـة [3].

و إذا كان الذهب ينقل من المنجـم إلى الأسواق الكبرى على شكل تربة ليتحول فيما بعد من هذه المحطات السودانية قبل دخول الصحراء إلى قطع نقديـة و خيوط مفتولـة وسبائك، لدليل أولا على أن أهمية معـدن الذهب مقارنة بالمعادن الأخـرى، جعلته يدخل التبـادل و يقبل في السـوق في أي نوع من الحالات التي عـرض فيها، و هو عكس المعادن الأخرى التي تتطلـب التكرير و التصفيـة و الاستخـدام [4].

ثانيـا، فإن هذا التحول الذي حدث و هـو أن ينقـل الذهب شمالا و هو مكرر يعـود إلى ظروف اجتيازه للصحـراء ، لأنه من السهـل قطع الصحـراء بالذهب المكرر بدلا من التبر "الرمل الذهبي"، السهل للسرقـة و الصعب للاسترجـاع أثناء تبعثره في الأرض أو أثناء إخفائـه في الرمل[5]. لكن الأهم هو أن معدن الذهـب بمختلف أحجامه و أشكاله، اجتاز فعلا هذه المسافات الكبـرى و انتقل من السودان الغربي إلى المغرب الإسلامي وإلى مناطق أخرى من العالـم.

---

1. MAUNY (R.), « Tableau géographique… », p.365.
2. البكري، المصدر السابق، ص.181.
3. نفسه، ص.159.
4. BATHILY (A.), op.cit, p.175.
5. MAUNY (R.), op.cit, 376.

2. المبـــادلات التجاريـــة بين المغـــرب و الســـودان

أ.– الذهـــب يتصـــدر واردات المغـــرب

لقد فرضت عليّ كتابة التاريخ الاقتصادي للمغرب منهجية التركيز على أهم الصادرات و الواردات التي كانت تتم بين إقليم السودان و المغرب و التي يأتي في مقدمتها الذهب. و ما دامت النقاط المركزة على بالذهب و تجارته قد أدرجت ضمن كل فصول هذه الدراسة تقريبا، فإنه ينبغي الوقوف عند نقطة ذات أهمية كبرى في هذا التحليل، تتعلق بكميات الذهب التي استوردها المغرب الإسلامي من السودان الغربي.

و نظرا لصعوبة الوصول إلى مناجم الذهب في هذه الفترة، و لعدم وجود وثائق تشير إلى هذه النقطة، حاولت الدراسات الغربية أن تحـــدد رقما لهذه الكمية التي غـــادرت السودان الغربي خلال العصور الوسطى. و لتحديد ذلك قامت هذه الدراســـات بوضع مقارنـــة بين بعض الأرقام التي ذكرها التجار البرتغاليون أو الأوربيون بصفة عامـــة مع بعض الأرقام التي ذكرتها المؤسسات التجارية المختصة في بداية القرن 19م، و شملت هذه الدراسات إنتاج كل إفريقيا الغربيـــة كمناجم " Galam " و "Bambouk "، لوبي، "Gold Coast" و" Poura "، ثم مقارنة الكل بالكميات التي يمكن أن تكون قد أخرجت من السودان الغربي خلال العصور الوسطى نحو العالم الإسلامي.

و في إطار الإشارة إلى المبادلات التجارية بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي لاحظت أنه من الضروري التطرق إلى الصادرات و الواردات التي تميز هذا التبادل، و التي يأتي في مقدمتها معدن الذهب. و ما دامت هذه لنقطة شكلت محور هذه الدراسة ارتأيت إلى التطرق لهذا المعدن كبضاعة من زاوية أخرى، كمحاولة لتقدير كمية الذهب التي كان يستوردها المغرب من السودان.

كما حاولت هذه الدراسات تقدير هذا الذهب بطريقة ثانية، أي بدراسة كمية النقود التي ضربت في مراكز سك العملة المغربية من خلال معاينة عدد الإصدارات النقدية لكل بيت مال. و يعتبر هذا العمل آخر ما أنجز في هذا الميدان، ليكن الأستاذ "Jean Devisse" أول من ركز على موضوع دراسة النقود لتقدير كمية الذهب المنقولة من إفريقيا إلى المغرب.

و لاحظت أنه رغم القيام بهذا العمل إلا أن الأرقام مازالت لم تف هذه التجارة حقها، والتي تفوق كل التصورات، هذه الأرقام قللت من كمية الذهب التي غادرت السودان الغربي خلال العصور الوسطى بالرغم من أن إحصائيات منتوج الذهب في وقتنا الحالي تؤكد ذلك. و لا أدري ما هي الأسباب التي دفعت إلى عدم الإيمان بأن كميات كبيرة من ذهب السودان كانت فعلا تنقل نحو المغرب و العالم الإسلامي.

لقد حاول كل من "M. LOMBARD" و " R. MAUNY " و "D. A. CISSÉ" ذكر أرقاما عديدة لإنتاج الذهب في فترات مختلفة بعيدة عن الفترة المخصصة لدراسة موضوع هذه الرسالة، و هدفهم في ذلك وضع المقارنة أو وضع تصور بشأن كميات الذهب التي كان السودان الغربي يستخرجها من مناجمه و يستقبلها المغرب الإسلامي فيما بعد.

و أهم ما ذكر في هـــذا الموضوع أنـــه في سنة 1935م و ضعت إحصائيات تشير إلى أنه من بين 110.000 ساكن وجـــد 35.000 يعيشون من الزراعة و 40.000 يعيشون من عملية استخراج الذهب [1].

---

1. أنظر: LOMBARD (M.), « Les métaux précieux… », p.21.

و لوحظ أيضا أن ما يقارب 7000 أجنبي يحضرون إلى المنطقة أثناء الإنطلاق في عملية استخراج الذهب [1]. هذه الملاحظة تقودني إلى الاستنتاج أن التوافد على استخراج الذهب كان كبيرا، و بالتالي سيكون انتاجه لا محالة أكبر. و من بين أهم الأرقام التي أدرجت ضمن هذه الدراسة، تلك التي تشير إلى وزن كمية الذهب التي تستخرج سنويا من مناجم إفريقيا الغربية والتي قدرت بـــ 9 طن سنويا. هذه الكمية تنقسم فيما بعد إلى قسمين : قسم يصدر إلى المغرب، والقسم الذي يتراوح وزنه بين 5 إلى 6 طن يبقى في إفريقيا [2]. و هذا التحليل يعطي لنا فكرة على أن كمية الذهب التي كانت تغادر إفريقيا نحو شمالها تتراوح بين 3 إلى 4 طن سنويا. بينما خـــلال القرون 16، 17، 18 و 19، قدر الإنتاج الإجمالي لإفريقيا من الذهب بـــ 900 طن [3].

هذه الأرقام توصلت إليها بعد مقارنة إحصائيات عدة سنوات، منها إحصائيات سنة 1938 أين أنتجت المناجم الجديدة بالقرب من "بوري" حوالي 4000 كلغ من الذهب، و منطقة سيراليون ما يقارب واحد طن من الذهب، أما منطقة ساحل الذهب أي "Gold Coast" أنتجت خلال عام 1500م، 1000 كلغ، بينما في سنة 1700م 1750 كلغ [4] ليبلغ الإنتاج في الفترة الممتدة من ما بين 1500 و 1900م حوالي 3500 طن.

---

1. أنظر : LOMBARD (M.), op cit, p.21.
2. أنظر : MAUNY (R.), « Tableau géographique … », p.277.
3. Ibid, p. 300.
4. Ibid, p. 377.

و أشارت إحصائيات نفس الدراسات إلى وجود تقارب بين إنتاج كل مناجم إفريقيا الغربية في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والتاسع عشر ميلادي، حيث أنتجت منطقة بوري " Bouré " 4 طن سنويا، جالام 0.5 طن، بورا "Poura " و لوبي 0.2 طن، ساحل الذهب 4 طن [1].

هذا ما دفع هذه الدراسات إلى أن تحدد إنتاج الذهب خلال 6 قرون بما يقارب يقارب 9 طن من الذهب الخالص [2]. هذه الأرقام توحي إلى أن الإنتاج خلال الفترة ما بين القرن التاسع والحادي عشر، لم يختلف تماما عن الكمية المذكورة في القرون المتقدمة بسبب ما للجمل من دور في هذه المعاينة، حيث كان المرجع الوحيد الذي ساهم في تحديد؛ و لو بالتقريب، كمية الذهب التي كانت تنقل على ظهره. فحمولة الجمل بشكل عام لا تفوق 3 قناطير* أي ما يعادل 127,5 كلغ. فالقافلة التي تخرج من المغرب في تعداد يصل إلى 12 ألف جمل؛ بإمكانها أن تفسر هذا الوضع. والتاجر الواحد الذي يسافر بنحو سبعين إلى مائة جمل لايتعدى عدد جماله التي ترافقه عند العودة وهي محملة بالذهب ثلاثة جمال، أي ما يعادل 127,5 × 3 ويساوي 328,5 كلغ. وإذا حاولت ضرب هذه الكمية في عدد الجمال و التجار المشكلين للقافلة، أجدها تصل إلى أكثر من 3000 كلغ، ولا يبتعد هذا العدد كثيرا عن تلك الإحصائيات التي قدمتها سابقا دراسات كل من MAUNY و DEVISSE، و التي تشير إلى أن كمية الذهب التي كانت تغادر إفريقيا تتراوح بين 3 إلى 4 طن سنويا.

لكن نظرا لاختلاف الظروف السياسية و الاقتصادية للمنطقتين في الفترات الممتدة بين القرنين 15 و 19م و القرنين 9 إلى 12 م، فإنني أعتقد أن كمية الذهب تفوق بكثير الأعداد المذكورة، خاصة إذا أخذنت بعين الاعتبار إزدهار غانة و رفعها لإنتاج الذهب، بالإضافة إلى نمو تجارة المغرب الإسلامي مع ظهور التنافس الشديد لدوله من أجل السيطرة على مسالك الذهب.

---

1. MAUNY (R.), op.cit, pp.300-301.
2. GAUDIO (A.), « Les civilisations du Sahara... », p.202.

* القنطار يساوي 42,5 كلغ.

و من أهم الروايات القريبة من الفترة المخصصة لدراسة هذا الموضوع، تلك التي تشير إلى حملة القائد زرغون عام 1594، حيث أخذ معه 30 دابة محملة بالذهب و التي أخذها من عند تجار تمبوكتو. و هذه الكمية تقدر بـــ 100.000 قطعة * ذهبية و التي قدروها بـــ 425 كلغ. و من خلال هذا يمكن القول أنه كان يكفي 50 جملا لنقل كل منتوج لإفريقيا (1) سنويا.

رغم إشارة مصادر العصور الوسطى إلى هذه الكمية، و رغم محاولة كل من علماء الأرض و علماء الجغرافيا، مؤرخي، علماء الاقتصاد تحديد هذه الكمية، يبقى الأمر مشكوكا فيه لعدم تقديمها لتقييم معقول مبني على حجج محسوسة، 2 أو 3 طن كأقصى حد. هذا الأمر دفع " J. DEVISSE " إلى تخفيض الكمية إلى 1 طن سنويا كما دفعه إلى البحث في الموضوع بشكل آخر، و هو النظر في الموضوع من زاوية علم الآثار. أي بدراسة عدد الإصدارات النقدية لكل بيت مال، و لمراكز ضرب العملة، مع التركيز على العملة لتقدير كمية الذهب التي ضربت باستعمال سكة الوجه و سكة الظهر (2).

---

* دينار : وزنه 4,25 غ.
1. أنظر. MAUNY (R.), « Tableau géographique… », p.377.
2. أنظر. BENHSAIN (M.R.),op.cit, p.13.

و السؤال المطروح هو: كم يتطلب الأمر من سكة لعملية إصدار النقود ؟

إذا أخذت بعين الاعتبار أن سكة الوجه هي التي تتلقى ضربات المطرقة أكثر من سكة الظهر، فيمكن دراسة مدى صلاحيات السكة أثناء ضرب النقود، بعد اتمام التجربة، لوحظ أن مدة صلاحية السكة خلال عملية ضرب الدينار، أقل أهمية من سكة ضرب نصف الدينار مثلا، حيث يمكن اتلاف سكة الوجه بعد إصدار 40.000 مثقال، أي دينار. أما نصف الدينار، فبعد ضرب 60.000 قطعة تبدو هذه الأرقام مبالغ فيها لو لم يستشار فيها علماء الإحصاء، كما أنه يمكن إصدار 100.000 قطعة بظهر سكة واحدة [1]، و أخذ بعين الإعتبار وزن الدينار المغربي الذي كان يقدر بـــ 4,25 غ. هذه العملية تقودني إلى محاولة تقدير كمية الذهب المستهلكة في ضرب النقود خاصة لو حاولت تطبيق ذلك على وزن الدينار المرابطي الذي يزن 4,25 ذهبا.

و هذا الإنجاز تم من خلال معاينة بعض العملات التي عثر عليها و التي أخذت كمثال للدراسة، و من خلالها توصلت إلى استنتاج يخص فترة المرابطين انطلاقا من وزن الدينار السالف الذكر، أن العملية الواحدة لإصدار الدنانير الذهبية تحتاج إلى 163 كلغ من الذهب، أما عملية إصدار أنصاف الدنانير تحتاج إلى 122 كلغ من الذهب، و ربع الدينار إلى 84 كلغ، لترتفع هذه النسبة أكثر في عهد الموحدين التي تتطلب العملية الواحدة لإصدار الدنانير الذهبية إلى 180 كلغ من الذهب.

و الملاحظ هو أنه لا يمكن اعتبار أن كل الكمية المتواجدة و التي ساهمت في إصدار الدنانير جاءت من إفريقيا في نفس السنة و هذا بسبب وجود احتمال إعادة ذوبان القطع النقدية القديمة أو بعض الحلي.

---

1. أنظر : BENHSAIN (M.R.), op.cit, p.16.

و إذا حاولت الأخذ بعين الإعتبار عدد المراكز التي عرفها المغرب الإسلامي أيام الفاطميين و المرابطين، بالتحديد القيروان، المهدية، المنصورية و سجلماسة، وجب في فترة كل دولة أكثر من 400 كلغ من الذهب لإصدار 300 ألف قطعة ذهبية بوزن الدينار مرة واحدة في نفس السنة. وكلما ارتفع عدد الإصدارات، ارتفعت كمية الذهب المستعملة في ضرب العملة.

أما إذا حاولت ثانية، الأخذ بعين الإعتبار، كل مراكز ضرب العملة المرابطية إلى غاية سقوط إمبراطوريتهم، و التي بلغ عددها 11 مركزا في المغرب، و 16 مركزا في الأندلس، يمكن لي أن أتصور و بدون مبالغة الكميات الضخمة من الذهب التي كانت تستقبلها هذه المراكز سنويا.

و إذا حاولت إدراج بعض الروايات، في العديد من النقاط التي تناولتها في هذه الدراسة، و التي أشارت إلى عدد الدنانير التي كانت في متناول الحكام المغاربة، فذلك لأنني أردت من خلالها إظهار كميات الذهب التي كانت في متناول الحكام. وكميات الذهب التي كانت تتنقل داخل المغرب و خارجه، و التي تعطينا في الأخير، كميات الذهب التي كان التجار يستوردونها من السودان الغربي.

ليس من الغريب إذن أن أتصور أن ذهب السودان كان يدخل المغرب بشكل ضخم و عادي. و إحصائيات سنة 1948م قدرت إنتاج إفريقيا الجنوبية لوحدها، 350 طن من الذهب [1]. مع فارق الزمن طبعا، لتبقى هذه النقطة محل تساؤلات و فرضيات، نظرا لما تتطلبه من معلومات و روايات بإمكانها أن تزيل الغبار عن حقيقتها.

---

3. أنظر CISSÉ (D.A.), « Histoire économique de l'Ouest Africain... », p.17.

و إدا كانت هذه الأرقام قد أدهشت البعض، فإنها دفعت بالبعـــض الآخر إلى اتخاذ الحذر وعدم التصديق بها، وبإمكاني أن أشاطر قول " DEVISSE " الذي حـــدد كمية الذهب التي استقبلها المغرب ما بين 2 إلى 3 طن سنويا، كما أنه من خلال ما تطرقـــت إليه أن أرفع هذه النسبة إلى 5 طن سنويا، نظرا لارتفاع عدد الجمال في القافلـــة الواحدة و عـــدد الكنوز التي ذكرت في تاريخ المغرب الإسلامي والفاطمي على الخصوص. و خلاصـــة القول أن هذا العدد لا يساوي شيئا أمام فترة استغلال الذهب التي قدرت في تاريـــخ البشرية بـــ 6000 سنـــة، و التي لم تشهد استخراج سوى 100.000 طن تقريبا. هذا المقـــدار الذي لا يشكل سوى مكعب طول ضلعه 17 م [1].

---

1. عطوان (مروان)، "أزمات الذهب في العلاقات النقدية الدولية"، الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، ص.120.

السلع الأخرى

بالرغم من أهمية ذهب السودان الغربي، إلا أنه لا يمكن الاعتقاد أنه كان الواسطة الوحيدة التي ربطت العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي و أقطار السودان الغربي، بل رافقته عدة سلع أخرى زادت من أهمية هذا التبادل و جعلته يتوسع ليدخل ضمن شبكة التبادل التجاري التي عرفها العالم خلال الفترة الممتدة بين القرنين التاسع و الحادي عشر الميلادي، كمنطقة بحر الروم. و من أهم الأسئلة التي تبادرت إلى ذهني، و أنا أبحث في الموضوع، هي : هل بإمكاني وضع البضائع التي كان السودان الغربي يستوردها من أقطار المغرب و يصدرها إليها، في نفس مستوى القيمة الاقتصادية التي تميز بها معدن الذهب؟ أم لأن حاجة و افتقاد الأفارقة لبضائع بحر الروم والأندلس و المغرب هي التي دفعتهم إلى استبدالها بمعدن الذهب، دون العناية بالأهمية الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها الذهب داخل المجتمع الإفريقي؟ لقد تنوعت قائمة السلع التي رافقت القوافل التجارية التي توجهت إلى السودان لجلب الذهب كما تنوعت السلع التي رافقت هذا المعدن باتجاه الشمال. و ما يستحق الذكر، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر أذكر :

- العبيد :

لم تختف وضعية عبيد إفريقيا عن الوضعية التي عاشتها هذه العناصر البشرية لدى الشعوب القديمة كالسامية والإغريقية و الفرعونية حيث اعتبرت مظهرا من مظاهر الحياة البشرية التي نتجت عن الحروب والغارات و سلطة حكم القوي على الضعيف أو عن دافع اقتصادي وسياسي و اجتماعي. لقد كان الفقر المدقع يدفع ببعض العائلات إلى بيع أبنائها و بناتها للقبائل المجاورة و البعيدة، كما كانت بعض الحروب تنتهي إلى وقوع جماعات كبيرة في الأسر ثم تباع [1].

---

1. حركات (إبراهيم)، " النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط"، الدار البيضاء، المغرب، 1996، ص 163.

بل سقطت قبائل كاملة تحت سلطة هذا النظام الذي ميز حياة العديد من الأنظمة في السودان الغربي، كسلطة الوجادو التي بسطت نفوذها في منطقة الساحل والصحراء الغربية قبل القرن الثاني للميلاد. وأهم ما يمكن الإشارة إليه تلك الغارات التي وجهت ضد قبائل مسوفة وصنهاجة التي تعرضت لمثل هذه المعاملات أيام حكم ملوك غانة [1].

لتصبح بذلك تجارة الرقيق ظاهرة أفريقية داخلية قبل أن تتوسع وتأخذ طابعا خارجيا و عالميا. حيث أشارت العديد من الدراسات الاقتصادية إلى الدور الاقتصادي الذي لعبته هذه العناصر البشرية في الحياة الاقتصادية للصحراء بذكر المناطق التي استقرت فيها و استغلالها كيد عاملة في العديد من المناجم لاستخراج الملح والذهب و الأحجار الكريمة، لتبرز كعامل فعال في ازدهار الحياة الاقتصادية لمنطقة الصحراء الكبرى في العصور الوسطى [2]. ليفهم من خلال ما ورد أن ظاهرة الرق الأفريقي لم تكن وليدة فترة الفتح الإسلامي لأفريقيا، بل وجدها التجار البربر والعرب و قد استفحل أمرها داخل هذا المجتمع.

و استفاد المغرب الإسلامي من هذه التجارة بشكل جعل العبد الأفريقي، عنصرا أساسيا في العديد من الحروب التي خاضها أمراء المغرب داخل و خارج المغرب، حيث استخدمهم الزيريون و الصنهاجيون و المرابطون كرماة في حروبهم [3]. و استطاع المرابطون وحدهم شراء ما يقارب ألفي عبد عام 466هـ/1072م، و شارك ما يقارب أربعة آلاف من هؤلاء السود في معركة زلاقة الشهيرة، التي خاضها المرابطون ضد ألفونسو السادس المسيحي، لتحقق هذه التجارة بين المغرب و السودان الغربي مستوى لم تشهده الأنظمة السياسية التي عرفتها منطقة المغرب العربي في العهد الفينيقي و الروماني [4].

---

1. أنظر : BATHILY (A.), « Les portes de l'cr », p.180.
2. "الاستبصار"، ص.216.
3. حركات (إبراهيم)، نفس المرجع، ص.137.
4. أنظر : GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.25.

هذا ما يدفعني للاعتقاد أن تجارة الرقيق مع السودان الغربي ازدهرت بالموازاة مع تجارة الذهب. أما بالنسبة لكثرة عدد هؤلاء في المجتمع الإفريقي فقد لوحظ أن معظم العبيد المستخدم في هذه المنطقة كان من أصل سوداني, و يشير إلى ذلك الإصطخري قائلا : " و الذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان" [1]. ليدخل الرقيق في المجتمع المغربي والإسلامي بشكل لا يستدعي الغرابة نظرا لما حققه المغرب الإسلامي من رفاهية و تطور بعد أن أمطرت عليهم سماء السودان بالذهب الخالص, حيث تنافس التجار خاصة اليهود منهم على اقتناء أحسن العناصر البشرية التي كانت تمثل طبقة العبيد السود هذه, كمدينة اودغشت التي كان يجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بـ 100دينار أو أزيد على حد تعبير كتاب الاستبصار [2]. كما كان يباع أي عبد بمقدار ما تتركه قدمه من فراغ في الأرض ملحا [3].

و إذا حاولت البحث عن الأسباب التي أدت بهذه التجارة إلى الرواج و الازدهار أجدها لا تقتصر على انتشار هذه الظاهرة في أوساط إفريقيا، أو إلى الفتوحات الإسلامية التي وسعت من سبلها فقط، بل أيضا إلى انخفاظ ثمنها الذي كان يضاهي قيمة السلع التي كان تستبدل بها [4]. لتصبح سجلماسة و ورقلة أهم المراكز المغربية التي استقبلت خصي* العبيد قبل تسويقهم إلى داخل و خارج المغرب [5]، أما سوق مراكش فلقد ازدهرت فيها هذه التجارة إلى درجة أن أصبحت تضاهي أسواق بغداد و البصرة و الكوفة [6]. و هناك أسباب أخرى ساهمت في توسع هذه التجارة خاصة في فترة المرابطين منها سيطرة هؤلاء على بعض القبائل السودانية التي كانت سابقا تحت سيطرة ملوك غانة، قرب أراضي صنهاجة من بلاد السودان [7].

---

1. الإصطخري، " المسالك و الممالك"، ص.37.
2. " الاستبصار "، ص216.
3. شنايت (العيفة)، "دولة بني مدرار –سجلماسة-"ص ص.463-464.
4. الإصطخري، نفس المصدر، ص.37.

* خصي العبيد : في هذا الموضوع أنظر موريس لومبارد، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي".

5. جودت عبد الكريم (يوسف)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية..."، ص.228.
6. شنايت (العيفة)، " دولة بني مدرار –سجلماسة-"، ص.156.
7. بن ديب (عيسى)، المرجع السابق، ص 137.

أما السبب الثالث فيمكن إعادته إلى العنصر اليهردي الذي ساهم بشكل كبير جدا في رواج هذه التجارة التي مارستها لجماعات اليهودية الوظيفية المالية التي وجدت في بعض تعاليم الديانة اليهودية و المسيحية و الإسلام، دافعا ملائما للاهتمام بها. كانت الديانة اليهودية تحرم على اليهود استعباد اليهودي أزيد من ستة أعوام في آن واحد لاتحرم عليهم استعباد غير اليهود و الاتجار فيهم [1].

و لم يشهد التاريخ العبراني اشتغال اليهود بتجارة العبيد أو أنهم استعبدوا أعضاء من شعوب أخرى، ماعدا تلك الرواية التي أشارت إلى طبيعة التبادل التي حدثت بين مصر و المملكتين العبرانيتين، أي تم استبدال الأحصنة بالمقاتلين. لكن في فترة العصور الوسطى استغلت هذه العناصر اليهودية موقف كل من الإسلام و المسيحية في تحريم الاتجار بعناصرهما. و مما زاد من اهتمام اليهود بهذه التجارة منذ العصور الوسطى، إلى غاية القرن الخامس عشر كونها جزء من التجارة الدولية، وأن التجار اليهود منحوا مواثيق تحميهم و تحمي سلعهم [2].

و ما دام أن العناصر اليهودية قد اشتغلت في هذه التجارة التي تعتبر موردا سخيا للرزق و مادام التاريخ قد سجل مشاركة هته العناصر في تجارة الذهب السوداني فلا استبعد إطلاقا مشاركة هؤلاء العناصر في تجارة عبيد السودان، خاصة إن ذكرت سجلماسة التي عرفت استقرار اليهود بها كأكبر سوق راجت فيها تجارة الرقيق. و أن عاصمة غانة التي شهدت هي الأخرى استقرار العناصر اليهودية بها، راجت بها هذه التجارة [3].

---

1. المسيري (محمد عبد الوهاب)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"،ج.2، بيروت، دار الشروق، 1999. ص.277.
2. نفسه، ص.277.
3. شنايت (العيفة)، المرجع السابق، ص .156.

و في غضون هذه الأحداث و الظروف التي تمت فيها هذه التجارة يمكنني أن أستنتج أن تجارة الرقيق تختلف تماما عن معدن الذهب الذي استقطب تجار الكوفة و البصرة، حيث يستحيل المقارنة بين سلعة زالت و اندثرت بزوال عوامل ازدهارها، و سلعة مازال بريقها يثير الإعجاب و الدهشة.

كما يمكن لي أن أستنتج أن هذه التجارة كانت موجودة بشكل بارز وطبعت العلاقات بين أقطار المغرب و السودان الغربي لفترة زمنية طويلة. و أن كثرة عددها لا يؤكد بخس ثمنها بل قوة الأنظمة التي تداولت الحكم على المغرب في فترة العصور الوسطى، دون أن أنسى طبيعة الحياة في المجتمع الإسلامي التي تبناها الدين الإسلامي بشكل, جعل حياة العبد في وسطه مضمون الحقوق.

الملـــــــــح :

تعود أهمية الملح إلى كونه عنصرا أساسيا في نمو جسم الإنسان و الوقاية من بعض الأمراض. هذا ما يفسر بالفعل المكانـــة التي احتلها عند غالبيـــة سكان الممالك التي عرفتها منطقـــة غرب إفريقيا التي عانـــت من نقص مادة كلورور الصوديـــوم, حيث كانت قبائل إفريقيا تستخلص مدة الملـــح من مواد حيوانية ونباتية بعد حرقها و تحليلها, و استمر ذلك حتى اكتشاف و استغلال ملاحـــات الصحراء الكبرى و المتمثلة في أوليل, تغازا و إيجيل [1]. وكانت كمية الملح المستخرجة و المنقولـــة من هذه المناجم، توحي إلى الأهمية الكبرى التي احتلها هذا المعدن في حياة الأنارقـــة والمغاربـــة معا. و تزن قطع الملح المصدرة إلى السودان بين 85 و 90 كلغ [2]. وصف البكري ملاحة تنتنال قائلا : " تحفر عنه الأرض كما تحفر عن ساير المعادن [...] ويقطع كما تقطع الحجارة [...] و من هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة و غانـــة و ساير السودان [...] ولـــه غلـــة عظيمـــة " [3].

---

1. أنظر : LACOURT (J.), « Histoire du commerce... », T. 3, pp.43-45.
2. MAUNY (R.), Tableau géographique ...», p.359.
3. البكري، المصدر السابق، ص.171.

و الفائـــدة التي كان ملوك السودان يجنونها من تجارة هذا المعـــدن و وفرتـــه، جعلت المناجم المستخرجة له تسقط وفي وقت مبكـــر تحت حكم ملوك غانـــة ثم مالي والسنغـــاي. و يأتي هذا بشكل واضح في وصف البكـــري لذلك حين يقول : " و لملكهم (أي ملك غانة) على حـــمار الملح دينـــار ذهب في إدخالـــه البلد و دينـــاران في إخراجـــه " [1].

من خلال ما سبق ذكره يمكن لي أن استنتج أن قيمة معدن الملـــح استطاعـــت أن تضاهي قيمة معدن الذهب، لشدة حاجة السكان له. و لا غرابة في أن يتصارف به أهل السودان كما يتصارفون بالذهب و الفضة [2]. و يؤكد ذلك صاحب كتاب الاستبصار قائلا : "و ببلاد الفرويين يبدل الملح بالذهب لعدمه عندهم" [3].

فكان الذهب وسيلـــة للإبداع في طراز الفن المعماري، كما كان وسيلة للبحث عن ما ندر من السلع و البضائـــع التي تزين تلك القصور و البنايات الفاخرة، ليساهم السودان بدوره في تحقيق هذه الرغبة بوضع قائمة من البضاعة الكمالية التي أصبحت تميز هذا الإقليم عن بقية أسواق الأقاليم الأخرى التي عرفت سلطة العالم الإسلامي أو غيرها. و من أهم السلع التي تستحق الذكر العاج، هذه السلعة التي توفرت بكثرة و التي دخلت في قائمة الأواني المترلية مثل أواني الشرب أو لتزيين الخيول. أما العنبر، هذه المادة التي كثر عليها الطلب في أسواق المغـــرب، فكانت تستخرج من سواحل المحيط الاطلسي [4].

---

1. البكري، نفسه، ص.176.
2. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 141.
3. الاستبصار، ص.219.
4. أحمد الباي (حسين)، "سلع التجارة الصحراوية – الصحراء الكبرى"، (إ. عماد الدين غانم)، طرابلس، ليبيا، أوكتوبر 1979، ص.206.

أما أحسن الجلود المستوردة من السودان فهي جلد اللمط*، هذا الحيوان الذي تتخذ من جلده تروس و يؤتى به من لمطة، كما ورد في قول ابن حوقل : " ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوما " [1]، و التي يقول عنها الزهري : " هي من اعجب ما يكون، و ذلك أنه إذا ضرب فيها برمح أو سيف أو سهم و تبخش منها موضع بقيت من بعد ذلك يسيرا، فتفتش فلا يوجد فيها اثر إلا رجع صحيحا كما كان " [2]. و أهمية هذه السلعة تعود أولا إلى كثرة الحروب التي كانت تخوضها أقاليم المغرب و الأندلس. إضافة إلى أنه ذو جودة عالية حتى صار يهدى إلى ملوك المغرب والاندلس [3]. و في المقابل و بشكل عام، كان السودان يستورد من المغرب الإنتاج الفلاحي و بعض المصنوعات النحاسية هذا المعدن الذي كان يصدر على شكل قضبان أو على شكل سلاسل محلاة بماء الذهب [4]. و يحدد الزهري هذه البضائع في قوله : " كان يجلب من المغرب التمر والزبيب و الحرير و المتاع و الثياب، و الخز و الكتان، و من الاندلس و افريقية الزعفران و الثياب المرسية و الخز و الحرير" [5].

---

* اللمط : حيوان على قدر العجل، أو أقل منه، طويل العنق، له أذنان كأذني المعز، و في رأسه قرون طويلة.

1. ابن حوقل، "صورة الأرض"، منشورات دار مكتبة الحياة"، بيروت، لبنان، ص 45.
2. الزهري، " كتاب الجغرافيا"، (تحقيق محمد حاج صادق)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، 1990، ص 118.
3. نفسه، ص 118.
4. جودت عبد الكريم (يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية..."، ص. 218.
5. الزهري، المصدر السابق، ص 124.

هذا إضافة إلى ما توصلت إليه الحفريات التي تمت في كل من جاو وتمبكتو وكومبى و أودغشت و التي عثر فيها على بعض الأواني الزجاجية كالكؤوس و المزهريات و المصابيح الزيتية و التي صنفت ضمن قائمة البضائع الكمالية التي جلبها السودان من الشمال.

من خلال ما تم ذكره يمكن لي أن استخلص عدة نتائج أهمها أن التبادل بين المغرب و السودان الغربي تم على أساس التبادل بين الشمال و الجنوب، هذه النظرية التي ما زالت الحياة الاقتصادية العالمية تعاني منها و هي الاعتماد على استبدال المواد الخام مقابل المواد المصنعة. فالذهب الذي يتطلب عملية التحويل لا يماثلها الملح المصدر إلى السودان، و الذي لا يحتاج إلى عملية تحويل أخرى. و من جهة أخرى، أستنتج أن السودان بحكم افتقار الطبيعة فيها، عمد إلى استيراد المواد الغذائية الضرورية كالحبوب و الفواكه. كما كشف لي هذا التبادل عن نمط الحياة الاجتماعية السائدة في إفريقيا، خاصة عندما يفضلون خواتم وأساور من نحاس بدلا من الحلي المصنوعة من الذهب. هذا ما يدفعني للقول أن الذهب لم يكن في متناول كل الناس. و لو أن الدراسات كشفت لي عن وفرته و انتشاره في العديد من المناطق في يد بعض الجماعات التي عرفت كيف تستغله لصالحها و لصالح بعض الحكام الذين كانت لهم السيطرة على مناطق استخراجه. و آخر ما يمكن قوله هو أن الذهب كسلعة استطاع فعلا أن يحدث نوعا من التكامل الاقتصادي بين أقطار المغرب و السودان الغربي و هذا ما لم تستطع هذه الدول تحقيقه اليوم لا على المستوى المغاربي و لا على المستوى الإفريقي.

3. مســالك تجــارة الذهــب

استطاعت الفتوحات الإسلاميــة أن توسع شبكة طرق المواصلات التي كانت موجودة في المغرب قبل دخول العرب الفاتحيــن إليــه، خاصة تلك الطــرق التي كانت في اتجاه الجنوب، عبر الصحراء الكبرى، هذه الطرق التي مهدت لها قبائــل البربر الجمّالــة بعد أن اتخذت من الصحراء ملجأ لها، قبل و بعد دخول المسلميــن إلى المنطقة. لتزداد هذه الشبكــة اتساعا بعد ازدهار تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغــربي. و مما زاد من أهميــة هذه المسالك، ذلك الاهتمام الذي أولتــه أياه الحكومــات التي تعاقبت على السلطــة في المغرب الإسلامي بعد الفتــح، سواء من حيث الإشراف على أمن الطرقــات أو حفر الآبار أو بناء محطات التجــارة، التي أصبحت فيما بعد تشكل إحــدى المدن الرئيسيــة في الصحــراء الكبرى. و أهم سؤال تبادر إلى ذهني و أنا أبحث في هذا الموضوع هو : لو لم يكن هناك ما يسمى بمعدن ذهب السودان الغربي و لم تظهر تجارته، فهل بإمكان هذه المسالــك و الطرقات أن تشهد هذا الاهتمام في ظل تبادل تجاري عادي مثلــه مثل كل التبــادلات التي عرفها العالم و عرفتها الشبكــة التجاريــة ؟ و هل يستحق فعلا هذا التبــادل الذي اعتمد على نقــل ريــش النعــام والنحاس و القمح والفواكــه، المخاطرة بحيــاة التجار و العبيــد و الوكلاء في وسط مفازات الصحراء الكبرى من جهة، و نشوب حروب بين الدول التي عرفها المغــرب من جهة أخرى ؟

للإجابة على هذ السؤال يتوجب علي البحث عن أهم المسالك التي عرفت نقل معدن ذهب السودان باتجاه المغرب، للتأكد من أن العالم الإسلامي بما فيه المغرب كان بحاجة إلى معدن الذهب. هذه الحاجة اعتبرت عاملا من عوامل اهتمام هذه الدول بكافة المسالك التي انقسمت إلى ثلاثة أقســـام :

1. المسلـــك الغـــربي :

لم يكن التبادل التجاري بالنمط الذي عرف عليـــه في هذه المنطقـــة إلا بعد القرن العاشر للميلاد، فالمســـالك التي كانت أكثر استعمـــالا قبل هذه الفترة كانت تنطلـــق من واحات مصـــر و جنـــوب تونس باتـــجاه النيجـــر. لذا فأهميـــة و استراتيجية هذه الطـــرق الغربيـــة تظهر عنـــد اهتمام المسلمـــين بمعدن الذهب، خاصة بعد الاهتمام الذي أولاه أياه الأغالبـــة ثم الفاطميين بشكل أكثـــر.

و يقـــول "J. Devisse " أن أهم قاعدة أساسيـــة بني عليهـــا التبـــادل التجـــاري بين الشمـــال و الجنـــوب هي قاعـــدة الملـــح مقابـــل الذهب. و أن هذا التبـــادل لم يتم بشكل منظـــم إلا حوالي 339 هـــ/950 م. فظهور الفاطميـــن في الغرب و استيلاؤهم على سجلماسة سيفتح لأول مرة الطريق الغربي الرابـــط بين سجلماسة و أودغشت. ليظهر بذلك المسلك الغربي الذي ينقل الذهب باتجاه الشمـــال [1].

---

1. أنظر DEVISSE (J.), « Routes de commerce... », p.53.

هذا الطريق الذي يمتد من أودغشت، أي من موريطانيا الحالية إلى غاية درعة وسجلماسة، لذا كان تركيز الفاطميين و اهتمامهم بسجلماسة و فتح طريق نحو أودغشت لا يعود فقط إلى قوة الباحثين ومحافظتهم على الطريق الرابط بين و رقلة النيجر، بل يعود إلى عدة عوامل منها توفر سجلماسة على الماس، حيث تعتبر أغنى المناطق المجاورة جميعا بالمياه.(1). كما أن وصف البكري لمدينة سجلماسة و الطريق الرابط بينها و بين أودغشت، بما فيها من مياه و بساتين، (2) لأكبر دليل على تفضيل هذا الطريق. و رواية ابن حوقل تدل على أن الطريق الغربي للذهب عبر سجلماسة هي سأكثر الطرقات أمنا و أقل تعرضا للزوابع الرملية و يؤكد ذلك بقوله : " و فيها طريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم [...] فأهلكت غير قافلة [...] و قصدهم العدو فأهلكهم [...] فانتقلوا من ذلك الطريق فتروكه إلى سجلماسة * " (3).

هذا ما يدفعني لاستنتاج أن المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل في الطريق الشرقي و الأوسط، كانت أكثر شدة من المخاطر التي تتعرض لها القافلة في الطريق الغربي الذي سبق أن أشرت إلى العديد من مخاطره، حينما تطرقت إلى اجتياز القافلة لمفاوز الصحراء الكبرى.

---

1. مؤنس (حسين) ، "تاريخ المغرب و حضارته" المجلد 1، ج.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، ط.1، 1992، ص 361.
2. البكري، المصدر السابق، ص 148- 163.

* حدث هذا 249- 270هـ /863 – 883 م عندما قام حاكم مصر بتحويل الطريق التجاري الذي كان يمر بواحات خرقة للذهاب إلى المغرب والسودان الغربي، إضافة إلى الطريق الرابط بين مصر و غانة الذي هُجّر لصالح الطرق التي كانت تمر بسجلماسة. هذا ربما ما يفسر استقرار تجار الكوفة و البصرة و بعض مدن المشرق الأخرى في سجلماسة. أنظر : MEUNIÉ (J.) " Le Maroc saharien... ", p.239.

3. أبن حوقل، المصدر السابق، ص.65.

و يرى العديد مـــن المؤرخين أن سجلماســـة لا تشكل وحدها باب الطريـــق الغـــربي نحو السودان، فقـــد ذكر " M. Lombard " أن الطريـــق الغربي يشـــمل على محطتيـــن، هما : سجلماســـة ونـــول لمتـــة [1]. و هناك عامل آخر زاد من أهميـــة الطريق الغربي وتفضيـــل كافـــة التجار له، هذا العامـــل يتمثـــل في ظهـــور مفازة هذا المنجـــم الذي قلل من معاناة تـــجار الملح الذين كانوا يتجهـــون نحـــو مناجم أوليل * على ساحل المحيط الأطلسي. وتظهر هذه التجـــارة بشكل مكثف خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر [2].

و إذا اعتبـــرت سجلماسة بوابة المسلك الغربي، فهذا يعـــود للطـــرق التي ربطتهـــا بمختلـــف المدن المغربيـــة شمالا و السودان الغـــربي جنوبـــا. ففي الشمـــال فتحت سجلماســـة طريقهـــا باتجاه تلمســـان، و قد وصف الإدريســـي هذا الطريـــق قائـــلا : " وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة فالقوافل تسيـــر من تلمسان إلى فاس و من فـــاس إلى صفروى إلى تادلـــة إلى أغمـــات إلى بني درعـــة إلى سجلماسة " [3]. إضافـــة إلى طريق وجدة سجلماســـة، فاس سجلماسة، تيهرت سجلماســـة و أغمات سجلماســـة. أما باتجـــاه السودان فقد لاحظت أن سجلماســـة ربطت طريقهـــا بأهم محطات القوافل التجارية و مستودعات ذهب السودان الغربي، و التي تمثلت في أودغشـــت التي يربطها بها طريـــق تامدلت. وحســـب لوفيتسكي " Lewicki " فإن هذا الطريـــق ينطلـــق من سجلماســـة مرورا بتامدلـــت وإيجيـــل ثم أزوكي و أخيرا أود غشت. [4]

أما الطريق الثـــاني، فهـــو الذي يربـــط سجلماســـة بأودغشـــت مـــرورا بتاغـــازة، و من مميزاتـــه أنه يمر بسبخـــة الملح المشهورة بتاغـــازة، و التي يتـــزود منها التجار بالملـــح الذي يستبدلونـــه بذهب الســـودان الغـــربي [5].

---

1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص 85.

* أوليل : جزيرة في البحر، و على مقربة من الساحل و بها الملاحة المشهورة و لا يعلم في بلاد السودان ملاذة غيرها، و منها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان. أنظر الادرسي، نزهة المشتاق، المجلد الأول، ص 17.

2. DEVISSE (J.), « Routes du commerce ...», p 56.

3. الإدريسي، المصدر السابق، ج1. ص 249.

4. LEWICKI (T.) « Le Role du Sahara ... », p.305.

5. شنايت (العيفة)، دولة بني مدرار " سجلماسة "، ص.142.

و و تعتبر الطريق الرابطة بين سجلماسة وتمبكتو مرورا بتابلبالة و تغازة وتاوديني، حسب ما أشار اليه لوفيتسكي " Lewicki " في الخريطة [1] ، من أهم الطرق التي أشتهرت بتجارة الذهب. و قد اكتسى هذا السبيل أهمية في المجال الثقافي إلى غاية القرن التاسع عشر. [2] بالرغم من أن هذا الطريق الذي يكتسي أهمية كبرى بعد سقوط امبراطورية غانة، و اعتباره أقصر طريق يربط المغرب الأقصى ببلاد السودان، فإنه لا يخلو من بعض المخاطر التي تواجه التجار و الحيوانات و منها عدم عذوبة مياهه و ملوحتها و انتشار الذباب، خاصة في الجزء الذي يربط بين تاغازة و ولاتة. [3]

و من خلال ما سبق ذكره يمكن لي أن استنتج أن معدن الذهب الذي كان ينقل عبر المسالك الغربية استطاع أن يضم عدة مراكز أساسية في كل من المغرب الأقصى، الصحراء الغربية و موريطانيا و حتى تلمسان. بالإضافة إلى ذلك، فأن هذا الطريق الغربي كان يحتوي على بابين : باب الشمال، و يسمى سجلماسة، وباب الجنوب، و يسمى أودغشت. و ساهمت الطبيعة المميزة لهذا الطريق، و بشكل كبير، في تنشيط تجارة الذهب في هذه الفترة، كما أن استغلال ملح تاغازة ساهم في ظهور طرق ثانوية سهلت من توسيع شبكة الطرق التي كان يسلكها الذهب وسط المغرب الإسلامي.

---

1. LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara… », p.306.
2. عوض الله (أمين)، " تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي و آثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1404ه/ 1984 م، ص 76.
3. GIRI (J.), « Histoire économique du Sahel », p.114.

2. المسلــك الأوسط :

لم تكن المسالك التي نقلت الذهب وسط المغرب الإسلامي أقل أهمية من تلك التي نقلته غربا من غانة إلى سجلماســة كما أن أهميــة ورقلة وجاو، لا تقل أهمية عن سجلماسة و أود غشت، التي عاشت أهــم فترات ازدهار تجارة الذهب بين المغرب و السودان الغربي و التي امتدت من بدايــة القرن الثاني إلى غايــة نهايــة القرن الحادي عشر. و يتمثل الفرع الأول من هذا المسلك، في الطريق الذي كان ينقل الذهب من غانــة و أود غشــت باتجاه تاغــازة نحو الشمال الشرقي، ثم من توات و قــورارة إلى الشمال الغربي لهضبــة تادمايــت التي تــؤدي إلى ورقلــة و الجريد بتونــس.

أما الفرع الثاني، فيتمثــل في الطريــق الذي يربــط بين جاو و ورقلــة مرورا بتادمكــة وأدرار إيفوغــاس، و الذي يمتــاز بقصره و صعوبــة مسلكــه. [1] هذا ربما ما قلل من اهتمام الفاطميين به و القضــاء على الإباضييــن الذين استقروا في منطقــة ورقلــة. وأهميــة هذا المسلك تعــود إلى أهميــة محطة ورقلــة التي تعتبر ملتقى الطرق لهذه التجــارة، حيث كانت تربــط بين أهم أســواق المغرب التي كانت تستقبل ذهب الســودان كالقيــروان، تاهرت وسجلماســة مرورا بمنطقــة الــزاب، حسب ما أشار إليه لوفيتســكي "Lewicki " [2]. كما تعود أهميــة هذا الطريــق أيضا إلى الأهميــة التي تكتسيهــا جاو الواقعة جنوبــا والتي تعتبــر أهم محطة استقبلت ذهب الســودان الغربي طيلــة فتــرة العصــور الوسطى. و التي أعــادت توزيعــه شمالا خاصة الفتــرة التي أشــار فيها البكــري إلى المسالك التي كانت تربط بين غانــة والقيروان مرورا بجــاو [3] والتي كانت تفتح على تمنطيــط عبر تادمكــة وعلى ورقلــة ومــزاب عبر عين صالح [4].

---

1. LOMBARD (M.), « Les métaux dans l'ancien monde », p.214.
2. LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara... », p.306.
3. البكري، المصدر السابق، ص 156.
4. LEWICKI (T.), op.cit, p.306.

رغم حفاظ الإباضيين على طريق الذهب الذي كان يربط ورقلة بغانة مرورا بجاو، إلا أنه فقد من أهميته بعد بروز آثار ازدهار طريق سجلماسة التي بدت واضحة المعالم، خاصة على المدن التي كانت منتشرة على طول مسلك ورقلة – جاو، ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا الصدد، خراب مدينة تارغة التوارقية التي هجرها أهلها ليقيموا في سجلماسة [1].

3. المسلك الشرقي :

يعتبر من أهم المسالك التي كانت السباقة في نسج شبكة الخطوط التجارية لشمال إفريقيا باتجاه السودان الغربي. كان هذا المسلك ينطلق من طرابلس ليتفرع فيما بعد إلى ثلاث اتجاهات :

– الأول : كان نحو السودان الغربي، أي إلى محطة غانة و أود غشت وسجلماسة.
– الثاني : نحو السودان الأوسط، أي إلى محطة فزان، تشاد، كانم، و تادمكة.
– الثالث : نحو السودان الشرقي، أي إلى محطات الواحات الشرقية و إلى مصر [2].

و إذا حاولت تحديد طريق الذهب من خلال هذه الشبكة، و التي ربطت أراضي شرق المغرب بالسودان الغربي، أجدها تتمثل فيما ذكره البكري و التي تنطلق من غانة باتجاه جاو ثم تادمكة إلى غاية طرابلس مرورا بغدامس، و التي يجتازها التاجر في فترة زمنية قدرها مائتا يوم، و حددت محطاتها كالآتي : غانة – تادمكة، 50 يوما، تادمكة – غدامس 40 يوما، و غدامس – طرابلس 10 أيام [3].

---

1. زغلول (سعد)، " تاريخ المغرب العربي"، ج.4، ص.109.
2. نفسه، ص.115.
3. البكري، المصدر السابق، ص ص.180-182.

وأهم ما ميز هذا الطريق الشرقـــي، بـــروز مدينـــة غدامـــس في واحات ليبيـــا، كما برزت ورقلة في واحـــات الجزائـــر، حيث تعـــود فتـــرة اعتبارهـــا محطـــة تجاريـــة إلى التاريـــخ القـــديم، نظرا للأهميـــة التي كان يكتسيـــها موقعهـــا الاستراتيجـــي، حيث شكلت بوابـــة رئيسيـــة للسودان الغربي بالنسبـــة لمدينـــة طرابلـــس، إضافـــة إلى مرور الطريـــق الرابط بين شـــروش و التكرور بهـــا. و من يتطلع الى شـــروش يتطلع إلى أهمية جبل نفوســـة التجاريـــة والطـــرق التي كانـــت تربطها بزويلـــة وفزان و قسطيـــايـــة و بـــلاد الجريـــد ثم ورقلـــة وتادمكـــة و جـــاو [1].

و ما يمكـــن استنتاجـــه من خـــلال دراســـة هذه المسالك الثـــلاث التي لا يمكن لي اعتبارها الوحيـــدة التي نقلـــت الذهب من الســـودان نحو المغرب هو سعة شبكة الطرقـــات بشكل يجعل الصحراء الكبـــرى تحت مراقبة كل حكـــام المغرب، وتحت مراقبـــة القبائل البربريـــة الجمالـــة التي انتشـــرت في الصحراء .كما يمكن لي أن استنتـــج أن هذه الطرقـــات الرئيسيـــة الكبـــرى قد تفرعـــت عنها طرق ثانويـــة منها ما درس و منها ما لم يدرس, هذا دون أن أنســـى أهمية الطريـــق العرضي الكبيـــر الذي كان يربط القاهرة بأود غشت، مرورا بالقيروان، تاهـــرت، وسجلماســـة والذي كان يماثل في نظري الطرق البرية , التي ربطت بين عواصم الدول الأوروبية من حيث كثافة النشاط التجاري و أهميته في وقتنا الحالي.

و تبقى هذه الدراسات، التي بإمكانها أن تعيد للمغرب أهميته الاقتصادية التي تميز بها عبر التاريخ، من أهم الدراسات التي تتطلب الاستناد إلى الأبحاث الأثرية التي من شانها إثبات حقيقة وجودها عبر التاريخ خاصة، و أن المنطقة قد تعرضت إلى عدة حروب و فتن أودت بالعديد من الوثائق الثابتة إلى الضياع. فالطريق الذي كان يربط بين السودان و المغرب، كانت له عدة معالم كبرى يمكن العودة إليها لتحديد مسافة المسلك و التفرعات التي تضمنها. كما يمكن العودة إلى الآبار كمعلم رئيسي أو إلى الأودية كمعلم ثانوي، إضافة إلى دراسة المدن الصحراوية الحالية و قصورها، أو المدن التي اندثرت و اختفت تحت الرمال من خلال الإشارة إلى هذه المسالك.

---

1. فخار (إبراهيم)، " تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى" في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1404ه/ 1984 م، ص50.

4. محطـات تجـــــارة الذهـــــب

أ. المـــــدن

إن ظهور ما يسمى بالنهضـــة العمرانيـــة في المغرب الإسلامـــي، يعتبر من أهـــم الأحداث التاريخيـــة التي سمحـــت ببروز أهم الظروف التي تشكلت فيها المدينة الحديثـــة وازدهرت. و يكفي القول أن المسلمين في كافـــة مناطـــق تواجدهم استطاعوا أن يؤسسوا مدنـــا قادرة على توفيـــر الشروط الضروريـــة لساكنيهـــا، حتى و لو كان ذلك في بعض الأحيان بشكل مؤقت [1]، فالدور الديني للمدن في البـــلاد الإسلاميـــة يعتبر القاعدة الأساسيـــة في ظهور هذه النهضـــة العمرانيـــة، انطلاقا من المراكـــز التي كانت فاتحـــة كل إنجاز في كل الأمصـــار، سواء في أجزاءها الشرقية أم الغربـــية.

هذا المركـــز الذي يتمثل في المسجـــد كثيرا ما يعطي إشارة الانطلاق لحركـــة عمرانيـــة لا يمكن تجاهلها، ليبرز فيما بعد الـــدور العسكري الذي لا يقل أهميـــة عن الدور الديني لارتباطـــه بفكرة الجهـــاد التي تعتبر أساس توســـع الفتوحات الإسلامية، فمعسكر القيروان و مسجدهـــا أكبر مثال لتدعيـــم هذه النظـــرة.

---

1. أنظر MARCAIS (G.), « Mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman », T.1, Alger, 1957, p.54.

إلا أن الدور الثالــث يعود إلى كون بعــض المناطق الإسلامية كانت عبارة عن بلدان لتجارة العبــور، و هذه النقطة الأخيرة أجدها مجسدة في واقــع الحياة العمرانيــة للمغرب، و ذلك بين القرنيــن الثالث و الخامس هجري (التاســع و الحادي عشر ميلادي)، فالتجارة العابــرة للصحراء استطاعــت فعلا أن تحدث ثــورة عمرانية ابتداء من شمال الصحراء الكبرى حتى ضفــاف نهر النيجر [1].

و من أمثلة ذلك فــاس و القيروان التي كانت على صلــة مع تلك الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب، و مع نهضة مــدن القوافــل الكبرى، هذه الموانئ التي تصل إليهــا كل الطرقات الناقلــة لمعدن ذهب الســودان الغربي[2].

هذه الحيــاة العمرانيــة المزدهرة و التي تستدعــي العنايــة بها دفعتني إلى إدراج هذه النقطة ضمن موضــوع دراستي بالرغــم من استبعادهــا منذ البدايــة، ليس تقليلا من قيمتها بل كونها تشكل دراســة على حدى، و التي يمكن أن تدرس في إطار المآثــر الحضارية لتجارة ذهب الســودان في المغرب الإسلامي. و بالتالي حاولت إدراج هذه الفكرة ضمن البحث لإعطاء عينات محددة للمدن و القصور التي ازدهــرت بفضــل تجــارة الذهب بشكــل مباشر أو غير مباشــر، و هذا التحديــد ليس من شأنــه الإنقاص من أهميــة القصور و المدن غير المذكورة لكــن بسبب كثرتها و تنوعهــا. فهناك من المــدن، من شكلت سوقا لتجــارة الذهب و هناك من شكلت مستودعــا له ليعاد تسويقــه شمالا و شرقا حسب موقعه على المسالك الصحراويــة. أما بالنسبــة للقصــور فهناك النــوع الذي كــان بمثابة همــزة وصل بين المحطات التجارية، و هنــاك من كان سكانها يشكلــون طرفــا من أطراف القافلــة الناقلــة للذهب.

---

1. لومبار (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص.182.
2. نفسه، ص.182.

و لدراسة هذه الفكرة حاولت تقسيم فكرتها إلى ثلاثة أقسام أشير من خلالها إلى المـــدن الشمالية ثم المـــدن الصحراوية، و أخيرا مدن الساحل التي كانت منفــذا لذهب السودان باتجـــاه المدن الصحراويـــة و الساحليـــة للمغرب. و من أهم هذه المدن الشماليـــة القيــــــــــروان.

أ.- القيــــــــــروان :

يحـــدد ياقوت الحموي موقع القيروان في قوله : " القـــيروان في الإقليم الثالث، مدينـــة عظيمـــة بإفريقيـــا غيـــرت دهرا و ليس بالغـــرب مدينـــة أجمـــل منهـــا "[1]. لقد اتفقـــت جل المصادر العربيـــة سواء المعاصرة لفتـــرة ازدهـــار القيروان أو غيرهـــا، على أنها مدينـــة جليلـــة مثيلتهـــا مـــدن الفســـطاط أو بغـــداد. و شهرة مدينة القيروان في ذكر المصـــادر العربية يعـــود في رأيي إلى وفـــرة الشـــروط الضروريـــة التي من شأنهـــا أن تعطي للمدينـــة نفسا قويا للبروز و الازدهار، انطلاقا من الموقع الجغرافي إلى غاية أنماط السكان والنشـــاط الاقتصادي. و في هذا الصدد يقول الزهري : " القيروان مدينة عظيمة جمعت بين طيب الهـــواء و عذوبة الماء و جميع المحاسن " [2].

أما البكري فيشيـــر إلى القيـــروان بشكـــل أدق، و هذا عندما يذكر المدن التي تحيط بها، كبحر تونـــس، و بحر سوســـة، و المهديـــة وبحـــر سفاقـــس كما يقـــول أيضا : " و أن سائر جوانبها أرضون طيبة كريمة و أهمها الجانـــب الغـــربي المعـــروف بفحو الدرارة" [3].

---

1. الحموي (ياقوت)، المصدر السابق، ص.420.
2. الزهري، المصدر السابق، ص.109.
3. البكري، المصدر السابق، ص.24.

هذا الموقـــع الجغرافي الهـــام الذي تمتاز به القيـــروان دفع بعقبـــة بن نافع سنة 50 هـــ/670 م، أن يخطط لتأسيس هـــذه المدينة التي ستصبح موقعا دفاعيا و معسكرا للتدريب وقاعدة لانطلاقـــة الجيـــوش الفاتحـــة [1]. إضافـــة إلى أن هذا الموقع سمح بوفود جماعات هائلة من السكان، بربرا كانوا أو عربا، كما يشير إلى ذلك اليعقوبي في قوله : " و فيها أخلاط من الناس من قريش و من سائر بطون العرب، و من العجم و من أهل خرسان، و بها عجم من عجم البلد البربر و الروم و أشباه ذلك " [2].

هذه العوامل التي سرعان ما جعلت من القيروان معلما من المعالم الحضارية الاسلامية، لم تكـــن بوابة لإفريقيـــا و مقـــرا إداريا لحكامهـــا فحســـب، كما قال عنها الحميري : " و القيروان دار ملك المغرب، و رأت من الممالك و الملوك والـــدول و الفقهاء والعلماء و الصالحين ما لم يكـــن مثيله في قطر من الأرض "، بل كانت مركزا لاشعـــاش إقتصـــادي، حيث احتضنت سوقا تجارية استقطبت التجار من كل بقعة داخل المغرب و خارجه، و ازدهرت بها التجارة حتى جعلت من المغرب بلدا غنيا و أسواقه مشهورة في عالم التجارة [3].

إلى جانب هذا الازدهار الاقتصادي الذي عرفته القيروان، فقد كان هناك ازدهار ثقافي وعلمي كانت تضاهي به أعظم المدن في الشرق، كما يقول الزهري : " [...] تضاهي بغداد و هي من قواعـــد الإسلام الأربعة : بغداد و القاهرة و القيروان و قرطبة، فيها من العلماء و الفقهاء و الشعراء و الأدباء ما كان بالبصرة، فيها أربعة آلاف كرسي للعلم و أربعمائة شاعر، لا يمدحون ملوكا و لا وزراء إنما يمدحون التجار و أولا التجار" [4].

---

1. لومبارد (موريس)، "الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي"، ص .182.
2. اليعقوبي، المصدر السابق، ص.105.
3. الحميري، المصدر السابق، ص.382.
4. الجنحاني (حبيب)، " القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب"، ص.134.

لا يمكن لي أن أستبعد في هذا الفضل الذي يعود لذهب السودان الغربي في الازدهار الذي عاشته مدينة القيروان، فبعد أن تخلت مصر عن الطريق الذي يربطها بغانة [1] مباشرة أصبح من الضروري أن تمر القوافل بالقيروان ثم تاهرت إلى غاية سجلماسة آخر محطة مغربية ليجتاز بذلك مفاوز الصحراء باتجاه أرض السودان. و بتطور الحركة العمرانية بالقيروان تصبح أهم مدينة في المغرب لتتحول بعد ذلك إلى عاصمة سياسية تصدر منها الأوامر، كما شكلت عاصمة ثلاث دول للمغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى (الأغالبة، الفاطميين و الصنهاجيين) [2].

إضافة إلى الدور الهام الذي لعبته القيروان عندما ربطت المغرب بالجنوب الصحراوي، حيث كانت محطة لتجار الجنوب، و يذكر البكري في ذلك : " فإذا أردت التوجه من تادمكة إلى القيروان، فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان ثم أربعة عشر يوما إلى قسنطينة ثم سبعة أيام إلى القيروان " [3]، و لن يزيد القيروان إلا أهمية عندما يشار إلى تمركز اليهود فيها، خاصة إذا عرفنا أن هذه الجالية لا تستقر إلا حيث يوجد الأمن و تكثر الأرباح، و القيروان لها من هذه الصفات ما جعلها قطبا من أقطاب العالم الإسلامي.

---

1. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 150
2. الجنحاني، " القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب"، ص.57.
3. البكري، المصدر السابق، ص.182.

ب.- تاهـــــــــرت :

وقع اختيـــاري على مدينة تاهــرت، بالرغم من أن فترة دراستي لا تغطي الدولـــة الرستميـــة كاملـــة، لأسباب عديــدة منها كون مدينـــة تاهــرت تعتبر من أشهر مدن المغرب الأوســط، و كذلك لأهميـــة العلاقـــات الاقتصاديـــة التي ربطت تاهرت بالسودان، بالإضافـــة إلى أهمية ذهب الســـودان المستورد و آثاره الحضاريـــة على تاهـــرت.

لقد كان لتأسيس مدينـــة تاهـــرت أثر على الحيـــاة العمرانية في المغرب الأوســط، حيث ساهـــم ذلك في انطلاقـــة حضاريـــة لا انقطـــاع لها، منذ تأسيســـها سنة 161 هـ/777 م [1]. لم يكن اختيـــار موضـــع تاهـــرت بالأمر الهين حسب رأيي، لأن الازدهـــار الذي شهدتـــه هذه المدينـــة لم يكـــن مصدره الثـــروة الاقتصاديـــة بل حتى العامـــل الطبيعي كان له أثر كبيـــر في ذلك، ليكون لتاهـــرت في هذا الأمر شـــأن القيـــروان، التي تبرز مدى اعتماد المسلميـــن على قواعد متينـــة وصحيحـــة قبل البدء في تأسيـــس المدن. لقد كان تأسيـــس بغداد مثـــلا واضحـــا لكل الفاتحيـــن الذين أرادوا تخطيـــط المـــدن و الاستقـــرار فيها، و بالتالي فإن كانت القيـــروان قد حظيـــت بموقع استراتيجي، فإن تاهـــرت قد تمتعـــت بأهم الأراضي الخصبـــة التي مكنتـــها أن تضمن لأهلهـــا مردودا زراعيـــا وافـــرا و لأغنامها مرعى خصبا.

---

1. ابن عذارى (المراكشي)، " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب"، ص.277 .

و من جملة ما ذكره المؤرخـــون في وصف أهمية تاهرت و جمالها، ما ذكـــره الأصطخـــري في قولـــه : " و تاهـــرت مدينـــة كبيـــرة خصبـــة واسعـــة البريـــة والزروع و الميـــاه [1]، "كما بـــها بساتيـــن كثيرة فيها جميع الثمـــار" [2]. واختيـــار بناء تاهـــرت الحديثـــة في هذا الموضع سوف يكـــون له شأن توطيـــد العلاقـــات التجاريـــة مع الخارج خاصـــة مع بـــلاد الســـودان والتي تهمني أكثر في هذه الدراســـة، ومما سهل على تمتين مثل هذه العلاقـــات، كون الدولـــة الرستميـــة سيطرت على معظـــم منافذ الطرق المؤديـــة إلى السودان، إضافـــة إلى امتلاكها لعـــدد من القواعد الصحراويـــة التي تقع على الطرق التجارية مع الســـودان، و منها ورجلان و غدامس [3].

هذه الأهميـــة سمحـــت لتاهـــرت بأن تصبـــح مركزا سياسيـــا واقتصاديـــا يستقطب كل إباضيـــي المغرب الأدنـــى، الأوســـط وحتى الأقصـــى، إضافـــة إلى تجـــار البصـــرة و الكوفـــة و القيـــروان" [4]. كما "عمـــرت تاهـــرت أيـــام الأفلـــح و كثـــرت الأمـــوال و المستغـــلات و أتتـــه التجـــار و الوفـــود من كل الأمصـــار و الأفـــاق بأنـــواع التجـــارات" [5].

و هذا الازدهـــار دفـــع العديـــد من الكتاب و الرحالـــة العرب أن يطلقوا عليها اسم العـــراق. حيث ذكرها الحموي في قوله أنها : " مدينة جليلـــة كانت قديمـــة تسمى بعراق المغـــرب" [6]. أما ابن حوقـــل فيصـــف كثـــرة التجار و التجـــارة بها [7].

---

1. الإصطخري، المصدر السابق، ص.34.
2. "الاستبصار "، ص.178.
3. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، " موسوعة المغرب العربي"، ج2، ص.127.
4. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes Maghrébine et soudanaises », Varsovie, Académie polonaise des sciences – comité des études orientales –, 1976, p.12.
5. زغلول (سعد)، " تاريخ المغرب العربي"، ج.2، ص 341.
6. الحموي (ياقوت)، المصدر السابق، ص.8.
7. ابن حوقل، المصدر السابق، ص.86.

إذن ليـــس هناك أدنى شك في أن تاهـــرت قد ازدهـــرت و نمت و شكلت أحد أقطـــاب الأمـــة الإسلاميـــة في جزئهـــا الغـــربي. و هذا الازدهار يعـــود إلى حكمة أئمّتـــها و توفـــر شروط نموهـــا من طبيعيـــة إلى اقتصاديـــة. و إذا حاولـــت التركيز أكثـــر علىّ دور ذهب الســـودان في ذلك و علاقـــات تاهـــرت بممالك الســـودان يدفعـــني الأمر إلى الإشارة إلى قـــول الإمام عبد الوهـــاب : " لولا أنا و محمد ابن جرني و ابن زلغيـــن لخـــرب مال المسلميـــن أنا بالذهب و محمد ابن جـــرني بالحرث و ابن زلغين بالأنعام" [1].

وبـــروز دور الأباضييـــن في التجارة الرستميـــة السودانيـــة جعل بعض الباحثين يطلقـــون عليها تسميـــة التجـــارة الخوارجية، ليس لسيطـــرة هؤلاء على مسالكهـــا ومحطاتها، بل للعلاقـــات السياسيـــة التي كانت بين الأئمة الرستميين و ملوك السودان[2] التي أضفت عليها طابع الرستمية، لتصبـــح التجارة على النمـــط الحديث الذي نراه اليـــوم.

و لم تتوقف الدولة الرستمية عند هذا الحد في رسم بصماتها في التجارة مع السودان بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، حيث استطاع التجار الخوارج بأودغشت إلى إبراز مبادئ الأخلاق التجارية التي امتازوا بها، و هذا من خلال ما كانوا يمتازون به من أمانة تجارية منقطعة النظير، و يؤكد هذا أسباب منع الإمام الرستمي عبد الوهاب ابنه الأفلح من مرافقة قوافله التجارية إلى بلاد كوكو، و التي تتمثل في عدم اجتيازه للامتحان الفقهي و المتعلق بمسائل الربى إلى أن تزداد خبرته بأمور التجارة.

و كان للمسالك التجاريـــة الكبـــرى التي ربطت تاهـــرت ببلاد الســـودان أثر كبير في نمو هذه المدينة و ازدهارها و ورود الذهب إليها، و من أهم هذه المسالك المسلـــك الذي ينطلق نحو الغرب في اتجاه جاو ثم سجلماســـة و أودغشـــت وغانا [3].

---

1. جودت (عبد الكريم يوسف)، " الأوضاع الإقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط"، ص.109.
2. بحاز (ابراهيم بكير)، 'الدولة الرستمية"، ط.1، الجزائر، مطبعة لاموميك، 1985، ص.16.
3. بن عزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش لوفيتسكي – حول فجر العلاقات بين بلاد المغرب و بلاد السودان-"، ص.460.

أما المسلك الثاني فهو الذي يتوجه دائمـا نحو جـاو لكـن هـذه المرة مـرورا بورقلة و تادمكة عبر الهقـار. وتعتبر ورقلة أهم و اقرب محطـة لتاهرت و التي لعبـت دورا في تاريخ الاباضية سواء أيام ازدهـار الرستميين أو يـوم الاستيلاء عليها من طرف أبي عبـد الله الشيعـي سنة 296 هـ/ 908 م، حيث أصبحت ملجـأ لآخـر أئمـة الرستميـين يعقـوب ابن الافلح [1]، هذا إما يفسـر العلاقات الجيـدة التي كانت بين اباضي تاهـرت و ورقلـة والتـي ميزت العلاقـات التجاريـة لمدن المغـرب الأوسـط التي عاشت انتعاشـا منقطـع النظير خاصة إذا كان الطريـق الـذي يربط بين هاتين المحطتـين أي تاهرت وورقلـة يمر على عـدة نقاط لا تقـل أهمـية عن الأخرى و هذا مرورا بجبل عمـور، كمدينـة الاغـواط تيلغمـت وبـلاد الـزاب" [2].

كما أدى الازدهار الاقتصادي الذي عاشتـه الدولـة الرستميـة خاصة في مجال تجـارة الذهب مع السودان إلى بروز اثر لها في المجـال الفني، كبنـاء القصور و المباني الضخمة، و اتخاذ الضيـاع الواسطة ، والاستكثار من العبيـد و الخـدم واتساع ثروة التجار إلى درجة امتلاك الأسـواق بأسمائهم الشخصية [3].

هذا ما يدفعني إلى القول أن مدينة تاهرت قد استفادت من عاملين أساسين أديا فعلا إلى بروزها و ازدهارها في المنطقة، أولهما العنصر الإباضي النشيط و علاقاته بالعناصر الخوارجية الأخرى، ثانيهما تجارة الذهب التي كانت و بدون أدنى شك العامل المحرك لكل هذه التوسعات.

---

1. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes Maghrébine et soudanaises », p.13.
2. Ibidem
3. عبد العزيز (سالم)، "تاريخ المغرب الكبير"، ج.2، ص.579.

ج.- سجلماسة :

تقع سجلماسة على الطريق الغربي المؤدي إلى غانة. و المسافة بينها و بين غانة شهرين و بينها و بين وادي درعة خمسة أيام [1]، و بينها و بين فاس عشرة أيام[2]. وتعتبر هذه المدينة من أكبر مدن الصحراء المغربية، تبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة. تمتاز بكثرة بساتينها و خضرها و قصورها و ديارها، هذا ما جعلها مقصدا للوارد و الصادر[3]. و من مدنها : درعة تدنفوست، أشر ، أيلا، امصلى، دار الأمير، حصن برارة، الخيامات، تازروت[4].

يعود غنى هذه المدينة و ازدهار أسواقها و كثرة أهلها إلى أنها تقع على طريق الذهب. يقول الحموي : " اهل هذه المدينة من أغنى الناس اكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، و لأهلها جرأة على دخولها" [5]. هذا ما دفع بجماعات اليهود أن تستقر فيها و تمتهن حرفة البناء "لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه"[6].

قرب سجلماسة من السودان على الطريق الغربي جعل كل التجار الذين مارسوا تجارة الذهب يستقرون بها و يؤكد البكري ذلك قائلا : " و من مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة [7]،

---

1. البكري، المصدر السابق، ص.149.
2. الحموي، المصدر السابق، ص.192.
3. الحميري، المصدر السابق، ص.305، أنظر كذلك، ابن حوقل، "صورة الأرض"، ص.42.
4. البشاري، المصدرالسابق، ص.184.
5. الحموي، المصدر السابق، ص.192.
6. الحميري، المصدر السابق، ص.306.
7. البكري، المصدر السابق، ص 149.

كان لمدينة سجلماسة شأن اقتصادي كبير أكدته شبكة الطرقات التي ربطتها بمدن المغرب، منها ورقلة. هذه المدينـــة التي اعتبرت مرحلـــة من مراحل الطريق الذي يربط القيروان بسجلماسة، من جهة، و طريق مصر سجلماســـة مرورا بطرابلس و الجريد من جهة أخرى، لتعتبر أهم محطـــة شماليـــة لطرق قوافل المغرب المتوجهـــة إلى السودان و محطة وصول ذهب وعبيـــد غانة [1]. كما تذكرني أهميـــة سجلماسة الاقتصادية بتلك العلاقـــات التي ربطت تاهرت ببني مـــدرار في منتصف القرن الثامن. ليستمـــر هذا إلى غاية ظهـــور الفاطميين خلال القرن العاشـــر، الذين استولوا على طريق الذهب من الجريد إلى سجلماســـة، حيث قدرت مداخيـــلها بـــ 400 ألف دينار[2]. لقد كان خروج المهدي منها بأحمـــال التبـــر، بعد تعيين الوالي الشيعـــي إبراهيم بن غالب المزاتـــي[3] دليلا على أهمية سجلماسة التي أصبح ذهبها يشكل قاعـــدة اقتصاديـــة للفاطميـــين، لتنتقـــل خلال القرن العاشـــر إلى حكم بني أميـــة في الأندلس، و الذين عـــززوا مراكز ضرب عملـــتهم بذهبهـــا، حيث لم يبق لحاكم قرطبـــة عبد الرحمن الثالث سوى أن يفتح آفاقـــا اقتصاديـــة كبـــرى مع الصحـــراء [4]. بنهايـــة سنة 445 هـــ/ 1053 -1054 م تدخل سجلماسة حكم المرابطيـــن و تزداد أهميتهـــا التجاريـــة، بالإضافة إلى أهميتها السياسية و الروحية، بعد ضربها للدينـــار الذهـــبي المرابطـــي [5].

إن الأهمية الاقتصادية التي حققتها سجلماسة في المجال التجاري، بعد أن تمكنت من ذهب السودان الغربي دفعها إلى عدم الدخول في التعصب المذهبي [6]. و ربما دفع تعـــدد التجار بها وثرائهم و كذا الانشغال في أمور البيع و الشراء، إلى التأقلم بشكل سريع مع كل الأنظمة التي عرفتها، و استرجاع نشاطها التجاري كلما عرفت خرابا.

---

1. أنظر LEWICKI (L.), « Études maghrébines et soudanaises », p.14.
2. أنظر LOMBARD (M.), « Les Métaux dans l'ancien monde », pp.227-228.
3. زغلول (سعد)، "تاريخ المغرب العربي"، الجزء 2، ص.597.
4. أنظر DIADIÉ (H.I.), « L'Espagne musulmane et l'Afrique subsaharienne », Ed. Donniya, Bamako, 1997, p.41.
5. أنظر MEUNIÉ (J.D.), « Le Maroc saharien... », p.235.
6. جودت (عبد الكريم يوسف)، " العلاقات الخارجية للدولة الرستمية"، ص.228.

و في انتظار ذلك تبقى سجلماسة صورة لإحدى عواصم المحطات التجارية التي عرفها المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى و الباب الرئيسي للطريق الغربي التي عرفت اجتياز كميات كبيرة من ذهب السودان الغربي بررت كل تنافس مغربي و إفريقي طهر من أجلها.

و ما زالت أهمية سجلماسة التجارية تكشف عنها يوميا الدراسات الأثرية التي اهتمت بالمنطقة بعد أن وضعت مخطط بحث أولي لمعرفة حقيقة تاريخ المدينة الاقتصادي، و التي أكدت أن تاريخ هذه المدينة لا يعنيها وحدها، بل يعني التاريخ الشامل للمناطق التي كانت على اتصال بها، كمعرفة تاريخ و ثقافة تلك التجمعات البشرية المختلفة أو تاريخ الاتصالات بين الشرق و الغرب أو الشمال و الجنوب، خاصة تلك التي ربطت علاقاتها بموانئ أوربية [1].

لكن تبقى هذه الإفتراضات رهينة مثل هذه الأبحاث، دون أن ننسى الاهتمامات التي أولاها DEVISSE بهذه المدينة. فمن خلال بعض الدراسات الأثرية ركز على دراسة بعض الأواني الخزفية التي عثر عليها في مدينة أود غشت و التي توصل من خلالها إلى أن 50 بالمائة من هذه الأواني صنعت في سجلماسة و 12 بالمائة فقط صنعت في القيروان. كما توصل من خلال دراساته هذه إلى التأكد من أن ذهب عملة سجلماسة التي ضربت منذ سنة 349 هـ/960 م، مصدره إفريقيا الغربية، مما دعاه للافتراض أن قاعدة التبادل بين سجلماسة و السودان الغربي بنيت على معدن الذهب مقابل أواني خزفية [2]. إلى غاية التأكد من حقيقة تلك المبادلات التجارية التي بنيت على أساس معدن ذهب إفريقيا مقابل بضائع محلية أو مستوردة.

---

1. أنظر BENSLIMANE (J.H.), « Sidjilmasa, du mythe à la réalité -Archéologie-», in « Histoire du Sahara et ses relations... », p.26.
2. أنظر DEVISSE (J.), « Sidjilmasa, les sources écrites, l'archéologie, le contrôle des espaces -» in « Histoire du Sahara et ses relations... », pp.19 -20.

د.– أودغشـــــت :

عندما غادر بربر صنهاجة الملثمين جنوب المغرب، حوالي القرن 3 ق.م.، وهم رعاة ورحل، كانوا يتشكلون من عدة قبائل تشمل لمتونة، جدالة، لمتة و مسوفة، فانتشروا في عدة مناطق جنوب موريطانيا الحالية، أين توفرت لهم المـــراعي، واستقروا في مراكز ثابتة منها أزوكي في أدرار شمال غرب عاتر، وأودغشت التي ظهرت بالقرب من ولاتة، ، شرق تاجنت [1]. هذه المدينة التي تقع بين خطي عرض 18°و 19° شمال خط الاستواء، كانت إحدى المحطات التجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة [2].

و من أهم العوامل التي ساهمت في نمـــو أودغشـــت و ازدهارها و اعتبارها محطة تجاريـــة :

- وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماســـة و غانـــة، هذا الطريق الذي شهد تنافسا بين ملوك صنهاجة و ملوك غانة [3] خاصة خلال القرن العاشر للميلاد.

- توفر هذا الطريق على الماء على حد قول البكري أنه أيسر طريق بسبب وفرة الماء، خاصـــة في جزئه الرابط بين تامدلت و أودغشت، خاصة عند الإشارة إلى بئر الجمالين و بئر هيلـــون أو ويطونـــان. [4]

---

1. أنظر DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale française », p.71.
2. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ص 215.
3. أنظر DELAFOSSE (M.), op.cit, p.71.
4. البكري، المصدر السابق، ص.157.

- كون أودغشت همزة وصل بين مناجم ملح كل من أوليل ، إيجيل ، و تغازة الذي كان ينقل إلى بلاد السودان [1].

- اعتبار أودغشت مستودع تبر السودان، حيث تفتح على غانا بمسافة قدرها عشرة أيام، و التي تفتح بدورها على كوغة، أحد مناجم الذهب بمدة زمنية قدرها شهر[2].

- اختلاف مزايا صحراء الأمس عن مزايا صحراء اليوم، حيث كانت أقل صعوبة و أكثر توفرا على شروط الحياة.

لكن تركيزي على معدن الذهب الذي صدّرته أودغشت نحو مدن الشمال، التي شكلت أحد مستودعاته، يجعلني أبحث عن كيفية تعامل أودغشت بالذهب الذي عاد عليها بالفائدة الاقتصادية التي تمتعت بها. يقول البكري في هذا الصدد : " يجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة و ذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض و أصحه "[3]. هذه الرواية تؤكد أمرين أساسين هما :

أولا : أن أودغشت كانت تستقبل ذهب غانـــة الذي ثم تبيعه في سوقها كما في قولــه : "و سوقها عامرة الدهر كله [...] اهلة و تبايعهم بالتبر [...]" [4].

---

1. أنظر LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara… », p.306.
2. أنظر EL-FASSI (M.), « Histoire générale de l'Afrique », T. 3, L'Afrique du VII^e au XI^e siècle, p.287.
3. البكري، المصدر السابق، ص.159.
4. نفسه، ص.158.

ثانيـــا : أن أودغشت كانت لها مراكز تحويل الذهب، أين يصفى من الشوائب ثم يصنع على شكل فتائل. هذا ما يعطيني صورة على أن الذهب الذي كانت أودغشت تصدره نحو الشمال لم يكن على شكل تبر فقط، بل كان على اشكال مختلفة. إذا كيف لا تتطور مدينة أودغشت و هي تستقبل أثمن بضاعة سودانية عرفها المغرب، وبالتالي ليس غريبا أن أتصور مستوى التطـــور الذي حققته، و الذي ربما كان يضاهى تطور سجلماسة و ورقلة، خاصة عندما يؤخذ بعين الاعتبار ذلك الوصف الذي تقدم به الحميري في قوله : " فكانت لها مبان حسنة رفيعة، و اهلها اخلاط من جميع الامصار استوطنوها لكثرة خيرها و نفاق اسواقها و تجاراتها " (1). ليؤكد ذلك الحموي مرة أخرى في قوله : " بها اسواق جليلة و هي مصر من الامصار جليل، و السفر اليها متصل من كل بلد" (2). و ازدهار هذه المدينة و ثراء تجارتها دفع بالبعض إلى امتلاك صك و هو من أهل سجلماسة " باثنين و أربعين ألف دينار " (3).

كما برزت هذه القوة الاقتصادية من خلال قوة حاكمها، و هو رجل من صنهاجة ما بين سنة 350-360 هـــ/961-971 م، حيث كانت له جيوش كثيرة فدان له أزيد من 20 ملكا من ملوك السودان الذين كانوا يؤدون له الجزية (4). و يبدوا أن علاقة أود غشت بغانة كانت بسبب ما كان للبلدين من أهميـــة، فالأول يستحوذ على أهم سلعة تحتاج إليها إفريقيا الاستوائية أي الملح، و الثاني يمتلك أنبل معدن يحتاجه تجار الشمال. يقول ابن حوقل : " أن ملك أود غشت يخالط ملك غانة [...] و يهادي صاحب كوغـــة، [...] و وحاجتهم إلى ملوك أود غشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام [...] و ربما بلغ الحمل ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار "(5).

---

1. الحميري، المصدر السابق، ص .64.
2. الحموي، المصدر السابق، ص.278.
3. ابن حوقل، المصدر السابق، ص.96.
4. "الاستبصار"، ص.216.
5. ابن حوقل، نفس المصدر، ص.58.

إن اعتماد أود غشـــت على مادة الملح لجلب الذهب من غانـــة جعلها تحقق مستوى اقتصاديا لا مثيل له، هذا الازدهـــار الذي سوف يختفي باختفاء سيطرة ملوك أود غشت على مناجم الملح خاصة بعد أن أصبـــح منجم تاتنتال الواقع في الشـــرق اكثر استغلال من منجم أو ليل على سبيل المثال. هذا ما يؤكده DEVISSE قائلا أن أهـــم الأسباب التي أدت إلى تدهور اقتصاد أود غشت وزوال ثراء مدينتهـــا، ظهـــور ملاحة تاتنتـــال [1]. و ربما هذا ما دفع الادريسى خلال القرن الثاني عشر، إلى أن يصفها على أنها " مدينة صغيرة في صحراء عامرها قليل، و ليس بها كبير تجارة ..." [2].

لكن مهما يكن من أمر هذه المدينة فلقد شكلت خلال القرن 10 و 11 للميلاد، إحدى بوابات ذهب غانة و محطة للقوافل القادمة من سجلماسة، والمتجهة نحو غانة و أوليل [3]. ليكن بذلك طريق أود غشت أوليل و غانة أود غشت هما الطريقان الرئيسيان اللذان أديا إلى ازدهار هذه المدينة وبروزها كإحدى المدن الصحراوية لمنطقة الساحل، يكون لتجارة معدن الذهب الفضل الأكبر في بروز هذه المدينة على المستوى الإقتصادي و الإجتماعي وربط العلاقات بين الشمال و الجنوب.

---

1. أنظر DEVISSE (J.), « Tegadaoust recherches sur Aoudagust, T.1, pp. 116-117.
2. الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، م.1، ص.19.
3. DEVISSE (J.), op.cit, p.112.

٥.– غدامس :

تقع مدينة غدامس بين الحمادة الحمراء و العرق الشرقي الكبير و اعتبرت منذ التاريخ القديم إحدى أهم المحطات الصحراوية و من أشهر أسمائها سيداموس " Cydamus " أو كيدامي " Kedamé "، و تعود شهرتها إلى كونها بوابة السودان للتجار الذين يتوجهون إلى غانة. و تعتبر فترة القرن العاشر من أهم الفترات التي ازدهرت فيها التجارة مع بلاد السودان، خاصة عندما اتصلت بوابتها بالطريق الذي ربط طرابلس وشروش* و بلاد التكرور، وما زالت آثار هذه الطرقات توضح أن غدامس كانت تربط فعلا الجزء الشرقي من المغرب ببلاد السودان. و من آثار ذلك الطريق الذي مازال يحمل إلى يومنا هذا اسم طريق السودان و الذي يربط بين شاروش و غدامس [1]. و يذكر الحميري: "أنه من غدامس يدخل إلى بلاد تادمكة و غيرها من بلاد السودان " [2]. و عن وصفها كمدينة جليلة، يقول البكري : " أنها مدينة لطيفة كثيرة النخل و المياه و أهلها بربر مسلمون [...] تبعد عن جبل نفوسة بسبعة أيام و بين نفوسة و طرابلس ثلاثة أيام " [3]، أي أنها تبعد عن طرابلس بعشرة أيام. و تعمير مدينة غدامس يشير إليها صاحب كتاب الاستبصار قائلا : " أنها لم تكن صحراء وإنما كانت خصيبة عامرة " [4].

هذا ما يدل دلالة واضحة على أن المدن الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة و المؤرخين و التي عرفت في فترة العصور تختلف تماما عن تلك المدن التي نراها اليوم في كل من العرق الشرقي الكبير أو العرق الغربي الكبير، و التي تؤكد أن تغييرا كبيرا قد طرأ على طبيعة الصحراء و إلا كيف يمكن أن نتصور مدينة مثل غدامس الواقعة في الصحراء في مثل هذا الازدهار، و اهتمام التجار بها حتى و لو أنها كانت تشكل بوابة السودان.

---

* شروش : تقع في الجزء الغربي لجبل نفوسة.

1. أنظر .LEWICKI (T.), « Le rôle du Sahara ... », p.312
2. الحميري، المصدر السابق، ص.427.
3. البكري، المصدر السابق، ص.182.
4. " الاستبصار"، ص 146.

لكن رغم قلـــة المعلومات التي تحصلـــت عليها، فأنها تكفي لأستنتـــج أن غدامـــس إحدى المحطات التجاريـــة الصحراويـــة التي استفـــادت من ذهب الســـودان الذي لم يحتكر من طرف مدن الغـــرب فقـــط.

ب. القصـــــــور

تعتبر دراسة القصـــور في المغرب الإسلامي من أهم الدراسات التي أصبحت تحضى بعناية كبرى من طرف المؤرخين و علماء الآثار بسبب ما لهذه القصور من دور في إبراز المعالم الحضارية التي عرفتها المنطقة خلال العصور الوسطى. و مادامت تجارة الذهب قد أثرت على هذه المعالم، حاولت و لو بشكل وجيز إدراجها ضمن هذه الرسالة. لدراسة نموذج أو نموذجين للتأكد من أنها فعلا كانت وراء توسيع شكل البناء العمراني الذي عرفته صحراء المغرب، و التي أصبحت فيما بعد تحافظ على استمرارية هذه التجارة بتامين طرقها و تجارها من كل المخاطر التي كانت تتعرض لها القافلة أثناء رحلتها التجارية.

تبدو قصور الشمال الأفريقي من خلال امتدادها و تقارب المسافات بينها، و كأنها شيدت لتقوم بدور المحطات، حيث تتمكن القافلة التجارية من الاستراحة و التزود بما تحتاجه من مؤن و ماء، زيادة على عرض ما لديها من بضائع لتسويقها.

و امتداد هذه القصور يبدأ من شرق طرابلس، ثم جنوب غرب جبل نفوســـة مرورا بفريان، يفرن، جادو ثم كابا و نالوث. أما شمالا فتبدأ من الجنوب التونسي مرورا بقصور تطاوين ومطماطة، لتتجـــه غربا نحو الجنوب الجزائـــري، أي بقصور وادى ريـــغ، ورقلة ثم إلى الجنوب الغربي أي إلى توات، قورارة تيديكلت ثم غربا نحو بنى ميزاب جبل عمور، و القصور إلى غاية أقاصي المغرب الأقصى [1].

---

1. حملاوي (علي)، "قصور مدينة جبل عمور – من القرن العاشر إلى الثلث عشر الهجري /16-19 م"، دراسة تاريخية و أثرية، بحث لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية قسم الآثار، ص.37.

و تعرف القصور الصحراوية، أنها عبارة عن تكتلات سكنية متلاحمة فيما بينها، تقطنها مجموعات بشرية، تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة، يحيط بها أحيانا أسوار مدعمة بأبراج، كما تمتاز بوجودها بالقرب من الأراضي الصالحة للزراعة و المجاري المائية، كما يمكن أن توجد فوق قمم الجبال، أو على سفوحها أو على هضاب صخرية [1].

ومن أمثلة هذه القصور التي لعبت دورا كبيرا في ازدهار تجارة ذهب السودان الغربي، قصور منطقة توات التي تقع على بعد ثلاثة عشر يوما جنوب سجلماسة، و التي كان يصل عددها إلى مائتي قصر في أقصى الشرق، في المنطقة التي تدعى تمنطيط، هذه المنطقة لعبت قصورها طيلة فترة العصور الوسطى دور المحطة التجارية للقوافل المتجهة إلى السودان الغربي وسوقا لبضائعها [2]. إضافة إلى منطقة القلعة *، التي شكلت قصورها واحات الصحراء الجزائرية. عرفت هذه المنطقة ازدهارا كبيرا بعد حفرها لعدد من الآبار الارتوازية حولت المنطقة إلى واحات نخيل خضراء، كما عرفت ازدهارا بسبب وقوعها بين العرق الشرقي الكبير و العرق الغربي الكبير المؤدى إلى ميزاب، توات و تيديكلت [3]. يبدو أن هذه القلعة لعبت هي الأخرى دور المحطة التجارية التي كانت القوافل تستريح فيها قبل مواصلة سيرها باتجاه توات وميزاب.

إذا كانت هذه القصور قد شيدت لتستقر فيها التجمعات البشرية، لأسباب حربية أو اقتصادية عادية، فان هناك من القصور ما ظهر بسبب وجود مادة الملح التي اعتبرت المعدن الأساسي الذي استبدل بالذهب. و من أمثلة ذلك قصر تاويلة الذي أشار إليه الأستاذ حملاوي : " أنه يقع على الطريق الذي كانت تجوبه القوافل التجارية القادمة من ورقلة إلى سرسو و التي من المحتمل أنها اتخذت من جبل الملح الواقع على مقربة من تاويلة مقلعا تتزود منه بالملح الذي تسوقه إلى أدغال أفريقيا السوداء [4].

---

1. حملاوي (علي)، "قصور جبل عمور ..."، ص.57.
2. GAUDIO (A.), « Les Civilisations du Sahara », p.201.
* تقع على بعد 350 كلم جنوب غرب ورقلة، و 390 كلم شمال عين صالح.
3. El-Goléa, In « E.I », Paris, 1927
4. حملاي (علي)، نفسه، ص.30.

إلا أن أهم ما يمكن الإشارة إليه تلك القصور التي شكلت مدينة ورقلة و سدراتة التي اعتبرت من اكبر المحطات التجارية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى و نقطة اتصال العديـــد من الطرق المؤديـــة إلى الســـودان الغربي . كما اعتبـــرت ورقلـــة من أكبر واحات الصحراء الجزائريـــة التي كانت تسقى بالآبـــار الارتوازيـــة، و من أهم قصورها الشـــط و العجاجـــة. و وصل بها الازدهار و النمو إلى أن تعتبـــر عاصمة الصحراء من الفتـــرة الممتدة من القـــرن الثامن إلى غايـــة القرن السادس عشر [1].

و تعود أهمية ورقلـــة التجارية إلى موقعهـــا الاستراتيجي بالنسبـــة لطريق ذهب غانـــة، حيث كانت القوافل المتجهـــة نحـــو السودان تخـــرج من ورقلـــة و سدراتـــة مرورا بالقلعـــة التي كانـــت تشكـــل محطـــة تستريح فيها القوافـــل، لتصل بعدهـــا إلى توات ثم تتوجـــه إلى تادمكـــة و أخيـــرا جـــاو [2].

ومن أهم المناطق التي كانت تتصل بغانـــة مرورا بورقلـــة مدينـــة تاهرت التي ربطت علاقاتهـــا بـــجاو، لأن الطريـــق عبر ورقلـــة تعتبر من اقصر الطرق المؤدية إلى الســـودان الغربي. إضافة إلى مدينـــة سجلماســـة التي ربطتها هي الأخرى بها علاقـــات تجارية تعود إلى القرن الثامن للميلاد، و هذا من خلال ما ذكره لوفتسكي نقلا عن المؤرخ الاباضـــي الذي عاش خـــلال القرن الحادي عشر و هـــو أبو زكريـــا يحي ابن أبي بكـــر الورجلاني في كتابه " السيرة و أخبار الأئمـــة ". فإذا كان طريق ورقلـــة – جاو قد جعل من هذه المدينة أهم مدينة تجاريـــة في العصور الوسطى، فان الطريق الذي ربطتها بغانـــة جعلتها تتصل بأهم مناجم ذهب السودان الغربي[3]. حيث كان تجـــار ورقلـــة ينقلون إلى السودان التمر و يعودون بالذهب الذي ضربت منه عملتهم [4].

---

1. أنظر LETHIELLEUX (J.), « Ouargla - Cité saharienne des origines au XX^{ème} siècle- », Seprint, à Cergy, 1984, p.35.
2. أنظر BRIGOLE (M.R.), « Le pays de Ouargla », Paris, 1975, p.2.
3. أنظر LEWICKI (T.), « Etudes maghrébines… », pp.31 – 41.
4. أنظر ROMEY (A.), « Histoire – Mémoire et société- exemple de N'Goussa : Oasis bérbérophone du sahara », L'Harmattan, Awal, Paris-Alger, 1992, p.22.

فازدهرت بذلك مدينة ورقلة إلى درجة أن بعض المؤرخين أرادوا إرجاع تاريخ تأسيسها إلى عام 919 م، بسبب ما لهذا الذهب من فضل في تحصين مدينتها و الدفاع عنها و تنشيط زراعتها. و الكلام عن ورقلة و ازدهارها بسبب تجارة الذهب يقودني إلى ذكر عاصمتها سدراتة التي عاشت عام 281 هـ/894 م حملة قادها بنو الأغلب الذين أرادوا الاستحواذ على ذهبها [1].

في النهاية يمكن لي أن استنتج انه مهما يكن من أمر هذه القصور فان واقع وجودها في الصحراء يؤكد أنها ساهمت بشكل كبير جدا في توسيع شبكة الاتصالات التجارية بين الشرق و الغرب و بين الشمال و الجنوب، إضافة إلى أنها ساهمت في تدعيم تجارة الذهب التي عادت عليها بالنمو و الازدهار. حتى و لو أن معظم هذه المدن قد اندثرت إلا أن آثارها الباقية التي ما زالت الدراسات الأثرية تكشف عنها يوما بعد آخر، ما زالت شاهدة على تلك الحقبة التاريخية التي تطورت فيها قصور الصحراء في ظل ازدهار تجارة الذهب.

1. أنظر LETHIELLEUX (J.), « Ouargla - Cité saharienne...», pp. 37 – 47.

الفصـــل الرابـــــع

دور اليهـــــود في تجـــــارة الذهـــب

1. – الوجود اليهـــــودي في المغـــرب و الســـــودان

أ. الوجود اليهودي في المغــرب

ب. الوجود اليهودي في الســـودان

2. – اليهــود و الحيـــاة الاقتصـــاديـــة في المغـــرب

أ النشاط الاقتصادي اليهودي في المغــرب

ب اليهود و تجارة الصحراء

3. – اليهـــود و تجـــارة الذهـــــب

أ اهتمام اليهود بمعدن الذهـــــب

ب اهتمام اليهود بتجارة الذهب

1. الوجـــــود اليهـــودي في المغـــرب

*. مرحـــلة ما قبـــل الفتـــح

يعود الوجـــود اليهـــودي في المغـــرب الإسلامي بجـــذوره إلى الماضـــي البعيـــد، حيث تعتبر الجماعـــات اليهوديـــة أول التجمعـــات البشريـــة غير البربريـــة التي دخلت المغـــرب [1]. و من أهم التواريـــخ التي تعود إليها الدراســـات لتحديـــد بدايـــة هذه الهجـــرات باتجاه المغرب، سنة 320 ق.م، التي ظهرت فيها جماعـــة يهـــود برقـــة. هـــذه الجماعـــة التي وجدت في استقرارهـــا ببرقـــة ما مكنها من التكاثـــر و زيـــادة عددها في ظل حماســـة البطالمـــة خاصـــة ما تمتعت به من استقـــلال قضائـــي، وفق شريعتـــهم اليهوديـــة في الأحوال الشخصيـــة كحريـــة ممارسة طقـــوسهم وإقامـــة المعابـــد و إرسال هبات ماليـــة إلى هيكلهم المقـــدس في مدينة القـــدس [2].

أما التاريـــخ الثاني، فيعـــود إلى سنة 70* للميـــلاد. هذا التاريخ، يعتبر مرحلـــة ثانيـــة دعم خلالها اليهود وجودهم في المغـــرب، خاصـــة إذا أخـــذ بعين الاعتبـــار الصراع الحـــاد الذي نشب بين الرومـــان و اليهـــود، و الذي أنهاه القائـــد ماركيوس توربو " Marcius Turbo " عام 118 م، حيث تسبب في تشتـــت يهود برقـــة، الذين توجهـــوا إلى كل من جبل نفوســـة، طرابلـــس، مصـــر ثم بقية المغـــرب العـــربي [3]. إضافة إلى ما تعرضت له هذه الجماعات من اضطهـــاد** على يد تراجـــان، الأمر الذي دفـــعها إلى أن تحتـــل الصحـــراء الوسطى و صحراء موريطانيا و السينغـــال [4].

---

1. ZEFRANI (Haim), « Mille ans de vie juive au Maroc », Paris, maisonneuve & Larose, 1983, p 11.
2. بعيو (مصطفى عبد الله)، "المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا"، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1974، ص 29.

* 70 م : هي السنة التي حطم فيها القائد الروماني تيتوس مدينة القدس.

3. أنظر : MAUNY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale », in B.I.F.A.N, T.XI, n° 3-4 juillet-octobre, p.359.

** تراجـــان : حدث ذلك خلال عام 115 م.

4. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », T.1, p.87.

غير أن ذلك لم يكن العامل الوحيد الذي سهل هجرة اليهود باتجاه المغرب، بل هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك منها: وجود العنصر السامي المتمثل في الفينيقيين في المنطقة و الذين عاملوهم معاملة حسنة. إضافة إلى خيرات المنطقة و موقعها الهام الذي يطل على بحر الروم و بحر الظلمات* [1]. و يذكر الأستاذ مسعود كواتي أن العامل التجاري ووجود أقلية يهودية تعتبر من أهم الأسباب التي ساعدت اليهود على القدوم إلى المغرب [2].

هذا ربما ما يوضح امتداد الوجود اليهودي في المغرب من برقة إلى غاية المغرب الأقصى. و من المظاهر التي تؤكد ذلك، بيعة سطيف التي تعود إلى القرن 3 للميلاد و بيعة تيبازة التي بنيت عام 347 م. ليبرز هذا الوجود أكثر بعد غزو الوندال للمغرب عام 429 م، أين استفادوا من الحرية الدينية التي منحت لهم تحت حكم جيتريك. لكن هذا لن يدوم طويلا، فأثناء الحكم البيزنطي تقلص نشاطهم بعد تحديد حريتهم الدينية والاقتصادية، ما عدا في المناطق التي كانت بعيدة عن الحكم البيزنطي كمنطقة الجزائر الحالية [3]. و ما يجب ذكره هنا، هو منطقة توات التي عاشت نفس الهجرات بشكل متسلسل عبر التاريخ و التي جاءت من برقة خلال القرن الثاني للميلاد، بعد الاضطهاد الروماني السالف الذكر. و من العراق وشبه الجزيرة خلال القرن السادس والسابع وحتى من إسبانيا عام 613 م، خاصة الهجرات التي تمت بعد انعقاد مجلس طليطلة عام 75 هـ/694 م [4].

---

* بحر الظلمات : بحر الظلمات : تسمية أطلقت على المحيط الأطلسي في العصور الوسطى.

1. أنظر : التميمي (عبد الملك خلف)، "الخليج العربي و المغرب العربي -دراسات في التاريخ السياسي و الاجتماعي والاقتصادي-"، ط.1، بيروت، دار الشباب للنشر، 1986، ص.231.
2. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين"، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1411-1412هـ/1990-1991م، ص.41.
3. أنظر : AYOUN (R.) , « Les Juifs d'Algérie – Deux mille ans d'histoire- », AYOUN (Richard) et COHEN (Bernard), éd. RAHMA, 1994, pp.9-10.
4. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », Paris, éd. Scribe, 1992, p.64

و هذا التمركز اليهـــودي في شمال الجزائر و جنوبه، يؤكد فعلا على أن هجرة اليهـــود لم تختـــر مستقرا واحدا لهـــا، بل شملت كل المناطق دون استثنـــاء. ليظهر هذا الوجـــود واضحا من خلال ما استنتجتـــه بعض الدراســـات التي اهتمت بجذور بعـــض العائلات اليهوديـــة بالجزائر ومناطـــق تنقلهـــا. فعنـــد الحديث مثلا عن يهـــود بوسعـــادة وجـــدت أن الجـــدور تعود إلى أصـــل إبيبـــري، مغـــربي، جريـــدي، ســـوفي، صحـــراوي، مـــزابي، وجزائـــري (العاصمـــة حاليا) و حتى تلّـــي.

و إذا حاولت شرح بعض هذه الجذور و ذكرت على سبيل المثال الأصل المزابي، فان الجماعات اليهوديـــة قد استقرت في غردايـــة بمجرد تأسيسها، أي بعد طرد الاباضيين من سدراتة. و أن عائلـــة جاوي مثلا، الموجـــودة اليوم في بوسعادة تنحدر من عائلات يهود غردايـــة، وإن عائلة برتـــوش من أصـــل يهـــود تمنطيـــط [1].

أما بالنسبـــة لمنطقة المغرب الأقصى، فقد أشـــارت الدراسات إلى فترة القـــرن الرابع ق.م. خاصـــة عندما يتعلـــق الأمر بمستوطنـــة يهود ســـلا التي تعتبر نتاجا للهجـــرات التي عاشتها الجماعـــات اليهوديـــة نحو المغرب بعـــد تحطيم هيكـــل سليمـــان. لتشمل بعـــد ذلك كل منطقة الأطلـــس. وكانت منطقـــة جنوب المغـــرب الأقصى أنسب منطقـــة للجماعـــات اليهوديـــة الأولى، التي مارست حرفـــة الزراعـــة و عملت على تهويـــد البربـــر. مما أدى إلى ميلاد عائـــلات ما زالت الأسمـــاء التي تحملها دليـــلا عل وجـــود هذه العناصـــر في المنطقـــة. و من الأمثلـــة التي يمكن ذكرهـــا، عائلـــة أيـــت بن داود، أيت يعقـــوب وأولاد موســـى [2].

---

1. أنظر: NACIB (Y.), « Cultures oasiennes de Bou-Sâada », Belgique, Essai d'histoire sociale, Publi-sud, 1986, pp 204 et 205.
2. أنظر: GOLDENBERG (A.), op.cit, p.53.

و يستمـــر هذا الوجــود إلى غايـــة ميلاد الممالك اليهوديـــة بعـــد القـــرن الثـــاني للميلاد[1] ، كمملكـــة إفـــران التي تعتبـــر أقدم مملكـــة عرفها المغرب الأقصى[2]. ثم مملكة زقـــورة، تافيلالت، تلـــوات و تمقـــروت. و من هنا بدأت، هذه الجماعات في ربط علاقاتها بيهود إسبانيـــا* الذين عرفوا بحركـــتهم التجاريـــة المكثفـــة عبر العـــالم[3].

- مرحلـــة ما بعد الفتـــح :

تعتبر مرحلة ما بعد الفتح الإسلامي للمغرب مرحلـــة هامة في تاريخ الوجود اليهودي في هذه المنطقة. و هذا بمجيء جماعات يهودية من شبـــه الجزيرة العربية مع القبائـــل العربيـــة المهاجـــرة و أخرى من مصر، و التي اتخـــذت من المدن الساحلية مستقرا لهـــا، لتنتشر بعد ذلك في المـــدن الداخليـــة[4].

و في سنة 77 هـــ/669 م، بعد تأسيس عقبة للقيروان، جلب إليها ألف عائلـــة من اليهود والأقبـــاط المصريين لتصبح بعد ذلك عاصمة اليهود في المغـــرب العـــربي[5]. هـــذه الجماعات اليهوديـــة التي انتقلت إلى المغرب برفقة العرب الفاتحين سوف تدعم ذلك الوجـــود اليهودي الذي سبقها، و الذي يعود كما سبق ذكره إلى فترة الفينيقيين، أيام هيمنتهم على الضفة الجنوبية لبحر الروم.حيث كانت صيدا و صور مراكز انطلاق هذه الهجـــرات[6]. استطاعت نفس الدراسة إن تحصي عدد اليهود قبل الفتوحات الإسلامية و مقارنته بعدد السكان الأصليين،

---

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), op.cit, p.53.
2. أنظر : MEUNIE (J.), « Le Maroc Saharien – des origines à 1670 », Librairie Klincksieck, p.60.

* معظم هذه الجماعات لا تنحدر من كنعان و إنما من القفقاس ، أي أنهم أوثق انتماء إلى قبائل الهون و الجر منهم إلى ذرية إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

3. أنظر : GOLDENBERG (A.), op.cit, p. 53.
4. التميمي (عبد الملك خلف)، " الخليج العربي و المغرب العربي .."، ص.231.
5. Encyclopédie coloniale : Les Juifs esquises depuis les origines jusqu'à nos jours, T.II, p.148.
6. فارج (فيليب)، " المسيحيون و اليهود في التاريخ الإسلامي العربي و التركي"، (ت : بشير السبـــاعي، يوســـف كرباج)، ط.1، سينا للنشر، 1994، ص ص. 58-68.

و العناصر الأخرى، فقدرهم بعشرين ألف يهودي خلافا للمسيحيين الذين قدروا بمليون ونصف مليون نسمة لتقدر هذه النسبة في العهد البيزنطي بـ 2 % من مجموع السكان.و لم ترتفع هذه النسبة كثيرا بعد الفتح الإسلامي للمنطقة [1]. هذا ما يدفعني للاستنتاج أن هذه الهجرات لم تكن بالأعداد الهائلة التي تستدعي الغرابة والاهتمام الكبيرين . غير أن تسجيل هذه الهجرات كانت حدثا مؤكدا بدون أدنى شك في ذلك.

و إذا كانت الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا قد وسعت إمبراطورية المسلمين التي امتدت من الصين إلى بحر الظلمات، فيمكن اعتبارها أيضا بمثابة الفرصة السانحة لتلك الجماعات اليهودية المشتتة عبر العالم لكي تعيد بناء روابط الصلة بينها خاصة تلك التي كانت في المغرب العربي و إسبانيا. و يؤكد ذلك أندري شوراكي "CHOURAQUI" قائلا : " هذه الفتوحات كانت بمثابة نسمة جديدة استنشقها يهود طليطلة و الأندلس". و يشير قولدنبيرق " GOLDENBERG " إلى ذلك قائلا : " قرر مسيحيو إسبانيا طرد كل اليهود الذين اهموا بالعمل من أجل تحويل شبه جزيرة إيبيريا إلى دولة يهودية، خاصة بعد أن ثبتت اتصالاتهم القوية مع يهود المغرب" [2].

و ربما هذا ما دفع بالأستاذ كواتي إلى القول : " أن التنظيم الجديد الذي حظيت به ولاية إفريقيا قد جلب اليهود إليها" [3]. إضافة إلى أن الدولة الإسلامية كانت أكثر الأمم تسامحا مع اليهود و النصارى و أن حركتها قد اتسعت أكثر بسبب الاتصال التجاري و الحربي والعلمي المكثف [4]، لتصبح هذه الجماعات بعد توسع الإمبراطورية الإسلامية أكثر تنظيما

---

1. فارج (فيليب)، نفس المرجع، 58-68.
2. CHOURAQUI (A.), « Marche vers l'occident – Les Juifs d'Afrique du nord- », France, 1952, p.58.
3. كواتي (مسعود)، " اليهود في المغرب الإسلامي ..."، ص.88.
4. أمين (أحمد)، "ظهر الإسلام"، ج.1، ط.2، بيروت، دار الكتاب العربي، ص.81.

ووحدة. فخلال القرن العاشر مثـــلا، أصبحت بعض الجماعـــات اليهوديـــة بسبب كثرتها وتنظيم اتصالاتها بالجماعات اليهودية الأخـــرى تشكـــل أمـــة، كيهود تـــوات التي كانت تأوي رهبان و علماء يهود، إضافة إلى مدرســـة لتعليم العبريـــة. لتصبح بعد ذلك تمنطيط عاصمة من عواصم اليهود، يتوجهون إليها و يتلقـــون فيها مبادئ حياتهم و شعائر دينهم [1].

و سمح ظهور هذا التنظيـــم بين أوساط اليهود المستقرين في الجزائر، بميلاد منظمة تدعى "جماعـــة اليهـــود" خلال القرن العاشر للميـــلاد, هذه المنظمة التي عززت فيما بعد روابـــط الصلة بين يهود مدينـــة الجزائر و يهود كل من بجايـــة و تلمســـان خلال القرن الحادي عشـــر [2]. و يبدو هذا جليا في مدينة فـــاس التي اعتبرت أهـــم مركز لليهـــود منذ تأسيسهـــا و أكثر بلاد المغرب التي تمركز بها اليهـــود [3]، واقع أكده ابن أبي زرع في قولـــه : " لما فرغ إدريس من بناء المدينـــة أي فاس اجتمع بها خلق كثير من اليهود ممن رغب في العافيـــة فأنزلهم بناحيـــة اغـــلان إلى باب حصن سعدون " [4].

و بما أن الباحث في تاريخ المغـــرب الإسلامي يجد نفسه دوما أمام فسيفساء من الأنظمة أثناء دراسة أوضاعـــه السياسيـــة و الاقتصادية و الاجتماعية، فهذا يدفعني إلى البحث عن الوضع الذي عاشتـــه هذه الجماعات اليهوديـــة تحت ظـــل هذه الأنظمـــة و لو بشكل مختصـــر. تعتبر فترة حكـــم الخوارج من أهم الفترات التي ينبغي الإشارة إليها، و يعود ذلك لما لشخصيـــة طريف* اليهودية من اثر في المنطقة و الذي أدى إلى تأسيس دولة خارجيـــة عام 124 هـــ/741-742 م تسمى دولـــة برغواطـــة **.

---

1. أنظر : OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat – du 1er siècle à 1492 » Paris, 1990, p. 40.
2. أنظر : AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », Ed. du Scribe, p.50.
3. احمد موسى (عز الدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي..."، ص.106.
4. ابن أبي زرع "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و مدينة فأس"، بدون سنة و دار الطبع، ص.24.

* هو طريف ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق.

** برغواطة، تقع في إقليم تاهسنا الواقع بين مدينتي سلا و أزمور، على ساحل المحيط الأطلسي. أنظر كذلك :

ـ كواتي (مسعود)، " اليهود في المغرب الإسلامي "، ص.90.

هذه الدولة التي ادعى فيها صالح * بن طريف النبـــوة، استطاعت استمالة العديـــد من القبائـــل البربريـــة، بسبب المعاملة القاسيـــة التي تلقتهـــا من الولاة العرب، والتي دفعتها إلى اعتناق المذاهب الخارجيـــة و القيام بعـــدة ثـــورات للإطاحـــة بهؤلاء الولاة. لكن دولة برغواطـــة لم تكن الوحيـــدة التي استقطبت العناصر اليهودية، بل كان لها استقرار آخر في عواصم التجمعات السياسية الخارجيـــة الأخرى، كتاهـــرت، تلمسان، سجلماســـة بالإضافة إلى المراكز الإباضيـــة كجبل نفوســـة، منطقة الجريـــد ثم قابـــس وواحات ورقلة و ميزاب [1].

و لقد حاول الأستـــاذ كواتي مسعود في غيـــاب المصادر التاريخيـــة الثابتـــة، استبعـــاد الطابـــع اليهـــودي الـــذي اكتستـــه هـــذه الدولـــة، إضافـــة إلى أن قوتهـــا تعود إلى انقســـام المغرب إلى دويـــلات، بينما أرجعها البعض الآخر إلى نفوذ هـــذه الدولة خاصـــة أيام حكم الملك يونـــس الذي استطـــاع أن يخضع لسيطرته 387 قبيلـــة بقوة السيـــف و محاربة كل مرتد عنه[2].

كما أوت القيروان في فترة حكم الأغالـــبة العديد من الجماعـــات اليهودية. و أهم ما يمكن الإشارة إليـــه عمل عبد الله بن أحمد بن طالب الذي اتخـــذ إجراءات صارمة ** ضد اليهود [3]. لكن من حلال فترة الحكم الإدريسي تأكد لي أن المغـــرب الأقصى كان فعلا ملجأ للعديد من الجماعـــات اليهوديـــة التي جاءت من المشرق بعـــد عام 70 م أو التي جاءت من الأندلـــس بعد طردهم منها، كما سبق ذكره.

---

* كان رجلا خبيثا يهودي الأصل من شمعـــون بن يعقوب، نشأ ببرناط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبد الله المعتزل القدري و اشتغل بالسحر، وفتح المغرب فنزل بلاد تامسنا، ووجد بها قبائل من البربر جهالا، فأظهـ لهم الإسلام و الزهـــد واستمالهم بسحره و لسانه. أنظر ابن أبي زرع الأنيس المطرب، ص83.

1. أنظر CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord –en exil au Maghreb-», éd. Du Rocher, Monaco, France, 1998. p.111.
2. أنظر GHALI (B.M.), « Le Monde arabe et les Juifs », éd. Cujas, 1972. p.86.

** جعل على أكتاف اليهود و النصارى رقاعا بيضاء، في كل رقعة صورة قرد و خنزير و على أبواب دورهم ألواحا مسمرة في الأبواب مصور فيها قردة.

3. كواتي مسعود، نفس المرجع، ص.97.

بعد أن أسس إدريس الأول أسرة الأدارســـة عام 172 هـــ/ 788 م، حارب جماعـــات اليهـــود* التي كانت في المغـــرب لإرغامــــها على اعتنـــاق الإسلام. لكن هذه الأخيرة لم تتأثر بهذه السياســـة حيث راحت تعزز روابط الصلة بينـــها و بين يهود إسبانيـــا من أجل مواجهة تحدي قـــوة المسلمين. ذلك ما يبدو بوضوح بعد تأسس إدريس الثاني لمدينـــة فـــاس عام 193 هـــ/808 م. استقطبت هذه المدينة يهود سيفـــرو، مقابل دفع جزية قدرها ثلاثـــين ألف دينـــار ذهبـــي. و أهم منطقة استقروا فيها "فنـــدق اليهـــود" ** إضافة إلى منطقـــة القيروانيين والأندلسيين. لتأتي أفـــواج أخرى من يهود مصر و بلاد فارس و قرطبة [1]، و الذين قدر عددهم بالتقريب بخمســـة و أربعين ألفا [2]. و تعتبر هذه الفترة فترة الازدهار الثقافي للجماعـــات اليهوديـــة خاصة تلك التي وجـــدت في فاس، لتليها عناصر يهود سبتـــة، مكنـــاس، سجلماســـة، اغمات ووادى درعـــة و توات.

و لقد كان لهذا الازدهار الديني و الثقافي الذي عاشته الجماعـــات اليهودية المغربية أثر على ازدهار و نمو هذه العناصر في إسبانيا، لتعكس شخصية حســـداي بن شبـــروط هذا الوضـــع في بلاط عبد الرحمان الثالث عام 300 هـــ/912م و ذلك عندما عينه وزيرا في دولته. لتظهر شخصيـــة شلوم بن يهودا اليهودي الفاسي الذي برز في بابل عام 480 هـــ/1087 م [3]. وبعـــد مجيء الفاطميين وجد اليهود ضالتهـــم خاصة بعد تأسيس المهديـــة، التي أصبحت بعد تطورهـــا مركزا للجماعات اليهوديـــة المهنيـــة. وهذا يعود إلى أهمية موانئ المهدية التي اشتهرت في تلك الفتـــرة. دون التقليـــل من أهمية الجماعات التي بقيت في القيروان [4].

---

* الجماعات اليهودية : من المحتمل أن تكون من قبائل زناتة التي اعتنقت اليهودية في تاريخ يصعب تحديده، أنظر عبد الكريم عزار، تاريخ المغرب العربي، ص.155.

** فندق اليهود : أو ما يسمى بمخطط حارة فندق اليهود – أو حارة العالية بفاس.

1. أنظر: GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc » , p.62.
2. أنظر: CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs …»,p.111.
3. أنظر: GOLDENBERG (A.), Op.cit, p.62.
4. أنظر: CHOURAQUI (A.), Op.cit, p.113.

و مما رفع شأنهم أيام الحكم الفاطمي، توليهم العمل في الديـوان، مثل أبو سعيـد التستري في عهد الخليفة المستنصر و أبو منصور صدقـة بن يوسف الفلاحي الذي تولى الوزارة. و زادت هذه المناصب من شأن اليهـود إلى درجـة التحكم في شؤون القصر [1]. خاصة بعـد أن مارسوا مهنـة اطب داخل القصر، كإسحـاق الإسرائيلي الذي كان طبيبـا لعبيـد الله المهـدي و إسحاق بن سليمـان الذي كان طبيبـا للمنصـور و موسى بن العـازار طبيب المعز لديـن الله [2]. و بعد ظهـور فكرة نقل القاعدة الفاطميـة إلى مصـر، برزت شخصيـة يعقوب بن كليس* الذي اقترح فكـرة غـزو مصر على المعـز، و هي الفكرة التي نجحت بعـد ثلاث محـاولات فاشلـة[3]، فالأولى كانـت عام 301 هـ/913 م والثانية كانت 307 هـ/919 م و الثالثة 321 هـ/933 م[4]. لتوكل مهام تحضـير الغـزو ليهودي آخـر يدعى جوهـر الصقلـي الذي استطاع أن ينفذ الخطـط الحربية بإحكـام بالموازاة مع الضعـف الاقتصادي الذي كانت تتخبـط فيه مصـر [5].

لكن وضعهم أيام دولة المرابطين سوف يختلف تماما نظرا لما حققته هذه الدولة ذات الطابع الديني المتعصب من توسع على حساب العديد من المراكز التي استقر بها اليهود بشكل مكثف ،كمنطقة درعة و سـوس [6].

---

1. كواتي (مسعود)، " يهود المغرب الإسلامي .."، ص.101.
2. جودت (عبد الكريم يوسف)،" الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط ..."، ص.302.

* كان يهوديا من أهل بغداد، خبيثا ذا مكر و له حيل و دهاء و فيه فطنة و دهاء، نزل مصر أيام الإخشيدي فرأى منه فطنة و سياسة و معرفة بأمر الصناع فقال : "لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا ! فطمع في الوزارة فأسلم ثم هرب إلى المغرب و اتصل بيهود كانوا مع المعز. و خرج معه إلى مصر...، وتولى الوزارة لدى العزيز نزار بن المعز، و عظمت مترلته عنده. و كان يأخذ من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار". أنظر كذلك : أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج.1، ط.5، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، (بدون سنة الطبع)، ص 81.

3. أنظر: GHALI (I.A.), « Le Monde arabe et les Juifs », p.88.
4. كواتي (مسعود)، نفس المرجع، ص.102.
5. GHALI (I.A.), op-cit, p.88.
6. GOLDENBERG, « Les Juifs du Maroc », p.62.

و أهم ما يمكن ذكره أنـــه بعد تأسيـــس يوسف ابن تاشفيـــن لمدينـــة مراكش عام 454 هـ/1062 م، منعت على اليهـــود الذين استقروا في أغمات و أوريكة [1]. لم يتوقف يوسف ابن تاشفيـــن عن منع اليهـــود من الاستقرار في مراكـــش، بل راح يفرض عليهم ضريبة ثقيلة عام 464 هـ/1071 م. و يقول في ذلك ابن عذارى المراكشي : " و في سنة أربع و ستين وأربعمائة، افترض يوسف ابن تاشفين على اليهـــود فريضـــة ثقيلـــة في جميع طاعتـــــه اجتمع له فيهـــا مائة ألف دينار عشريـــة و نيف على ثلاثة عشـــر ألف دينار " [2]. لتختفي بذلك العديد من هذه العناصـــر، هروبا من السياســـة التي طبقهـــا المرابطـــون في كل من مكناس، سبتـــة و ســـوس. و ما يمكن استنتاجـــه هو أن الانقسام المذهبي والسياســـي الذي عاشـــه المغرب الإسلامي بعد نجاح الفتوحات الإسلاميـــة ساهم بشكل كبير في توسيـــع نفـــوذ الجماعـــات اليهودية و خدمـــة مصالحها الاقتصاديـــة و الدينيـــة.

و قبل طي صفحـــات هذا الموضوع، تجـــدر الإشـــارة إلى فكرة لا تقـــل أهميـــة عن الموضوع الذي سبـــق التطـــرق إليه، و تتمثـــل في تهويـــد القبائـــل البربريـــة، حيث ما زالـــت العديـــد من الدراســـات التاريخيـــة تـــحاول الفصـــل في هـــذا الموضـــوع من أجل قطع السبيل أمام تلك المحاولات اليهوديـــة التي تهـــدف من خلال أبحاثهـــا في هـــذا الموضـــوع إثبـــات الوجود التاريخي لليهـــود في المنطقـــة.

---

1. أنظر: GOLDENBERG, « Les Juifs du Maroc ... », p.62.
2. أبن عذارى (المراكشي)، "البيان المغرب ..."، ج.4، ص.23.

من خلال ما سبق ذكره أستخلص أن الجماعات اليهودية التي دخلت إلى المغرب لم تكن في مستوى الأعداد التي تشكل ممالكَ كبرى، كالتي شهدتها العصور الوسطى أو القديمة. وهذا انطلاقا مما هو معروف في تاريخ هذه الجماعات اليهودية. فما عدا مملكة داود و سليمان عليهما السلام، لم تكن جل ممالكهم تتجاوز الواحدة منها المدينة أو القرية و ضواحيها، خاصة وأنهم يطلقون على شيخ القبيلة لقب الملك [1]. و هذا ما ينطبق فعلا على ممالك ترعة، إفران وتوات. أما فيما يخص مسألة تهويد برغواطة، يمكن الاحتفاظ برأي الأستاذ مسعود كواتي الذي يقول، نقلا عن شلوش : " أن هذه الدولة إسلامية في شكلها، بربرية في طقوسها و عاداتها، ويهودية في أساسها و اتجاهاتها" [2]. فإذا كان صالح ابن طريف يهودي الأصل وليس مغربيا، يمكن البحث عن الأسباب التي دفعته إلى أن يجمع البربر تحت لواء الإسلام في ظل التوجه اليهودي. حيث أكد التاريخ أنه نظرا لشعور اليهود بالنقص والتشرد و الحرمان، فقد تحولوا إلى عناصر شغب و تخريب في كل البلاد التي حلّوا بها. و أنهم كانوا وراء معظم الحركات السرية والفئات المذهبية التي شذت عن الإسلام [3]. و بالتالي لما لا تكون دولة برغواطة مثالا حيا لمثل هذه التصرفات ؟

أما الاستنتاج الثالث، فيتعلق بقضية عدد اليهود الذين وجدوا في المغرب. فما دامت هناك طائفة من اليهود اندمجوا مع المغاربة و تحدثوا البربرية و العربية، فإن هذا لا يعني مغربيتهم على نطاق بربري و عربي، إنما هناك من المغاربة من تهودوا. و هنا يمكن الإشارة إلى عاملين أساسيين لعبا دورا تاريخيا في ذلك :

---

1. شيريب (سبيريدوفيتش)، " حكومة العالم الخفية"، (ت: مأمون سعيد)، الجزائر، قصر الكتب، مطبعة اللغتين، ص.16.
2. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص.90.
3. شيريب (سبيريدوفيتش)، نفس المرجع، ص.19.

فالأول يتمثل في طبيعـــة الدين اليهـــودي الذي أصبح دينا مغلقا بعد ظهور التلمود، بعد القرن الخامس ق.م [1]. للقول أن عملية التهويد التي حدثت في المغرب توقفت بعد القرن 5 م، عملا بقولهم أن اليهودية دين مغلق في وجـــه كل من يريد الإنضمام إليه. و المبادئ التي تحكـــم سلوك اليهـــود سرية لا يجوز إطلاع غير اليهود عليهـــا [2]. فكيف يمكن و الحال كذلك ، التسليم بعمليـــات التهويـــد التي أشارت إليها العديـــد من الدراسات اليهوديـــة، كتلك التي أشار إليهـــا بواتييـــه " Poitier" حينما يتطرق إلى منطقـــة قورارة التي يعـــود اسمها إلى قورارى، الرجـــل اليهودي الديني الذي عرف كيـــف يدخل جماعـــة من مسلمي قورارة في اليهوديـــة، بعد تهاونهم في أداء فرائض الدين الإسلامي على الوجه الأصح [3]. و العملية التي أشار إليها " Lewicki "، و التي انطلقت خلال القرن الثاني للميلاد بعد انتشار يهود برقـــة في الصحراء الكبرى و موريتانيا، و التي انتشرت فيما بعد، في كل من قـــورارة و توات، و يستدل قولـــه بوجود بيعتين في هذه المنطقة، الأولى بنيت عام 517 م و الثانيـــة 107 هـ/725 م [4].

و العامل الثاني يتمثل في الإسلام و مدى انتشـــاره في المغرب حيث أثبتت بعض الدراسات أن العديد من العناصـــر اليهودية اعتنقـــت الإســـلام و اندمجت في المجتمع المغربي. ومن الأمثلـــة التي يمكن الإشـــارة إليهـــا، يهود توقـــرت الذين لقبـــوا بالجاهريـــة أو المهاجريـــة أو ولاد جاري إضافـــة إلى جماعات أخرى في كل من تاغيت و بني عباس،[4] لتبقى قضية يهود المغرب دراســـة تتطلب الدقـــة في البحث و العنايـــة الكبرى نظرا لأهميـــة هذه العناصـــر والدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة إيجابا أو سلبا بعد أن وطأت أقدامهـــا أرض المغـــرب.

---

1. غراس (عبد الكريم)، "تاريخ المغرب العربي"، ص.155.
2. شيريب (سبيريدوفيتش)، نفسه، ص.19.
3. POITIER (R.), « Histoire du Sahara... », pp. 65-66.
4. LEWICKI (T.), « Le Rôle du Sahara… », p.329.
5. POITIER (R.), op-cit, pp. 66 - 65.

ب. الوجـــــود اليهـــــودي في الســـودان

انطلاقا من أهمية معدن الذهب في التجمعات اليهودية، أصبح من الضروري البحث عن تلك الدلائل التي من شأنها أن تؤكد على وجود رباط وثيق بين هذا المعدن و الأرض المنتجة له. فرغم كل الصعوبات التي واجهت تقريبا جـــل الدارسين للموضوع، أصبح من المستحيل التسليم بواقع احتكار اليهود لمعدن الذهب و تجارته، دون التسليم بأمـــر معرفة منبعه أو الاتصال بمن لعبوا فيه دور الوسيط من بني جلدتهم. و الحديث عن أرض السودان و اتصال اليهود بها والاستقرار فيها أصبح أمرا طبيعيا بعد ظهور العديد من الدراسات التاريخيـــة اليهوديـــة و غيرها، و التي أزالت الغموض عن هذه الفكرة، التي كانت شبه أسطورة في الماضي.

و من بين هذه الدراسات، تلك التي أشارت إلى أن سنـــة 370 ق.م هي السنة التي بدأ فيها اليهود الساميون هجرتهم إلى فلسطيـــن تحت قيادة موسى عليه السلام [1]. و أهمية هذا التاريخ لا يعود إلى هذه الحادثة فحسب، بل إلى أن التجمعات اليهودية الأخرى التي بقيت و لم تهاجر مع موسى عليه السلام، بدأت هجرتها باتجاه الغرب صوب برقة، ثم جنوبا نحو أعماق إفريقيا. و يبدوا أن الجماعة التي بقيت في مصر، تنقلت على طول النيل باتجاه إثيوبيا، و يعتمد رأي موني في ذلك على بقايا يهود الفلاشا في إثيوبيا إلى حد اليوم. أما مع سليمان عليه السلام أصبح اليهود نوعا ما تجارا، و كانت سفنهم تنطلق من ميناء العقبة إلى بلاد سبأ و تسير باتجاه عدن [2].

---

1. أنظر : DELAFOSSE (Maurice), « Histoire de l'Afrique occidentale française.. », p.43.
2. أنظر : MAUNY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale », T.XI, n° 3-4, juillet-octobre 1949. p.358.

هذا الاتصال اليهودي بالسواحل الإفريقية من خلال البحر الأحمر مكنهم من الاستقرار في هذه الأراضي بشكل لا يثير أدنى شك. و الملاحظ في هذه المسألة أن جل الدراسات، احتاطت من أمر تواجد اليهود غرب إفريقيا، و لم تسلم بشكل بسيط بالرأي الذي يقول أن هذه الجماعات اليهودية التي دخلت إفريقيا كانت مصدر ظهور شعوب البول "Peuls" في السودان الغربي دون تقديم أي مبرر لذلك، و اكتفت بقول أن هذه الجاليات اليهودية التي فرت من بطش الرومان * دخلت السودان الغربي عبر هجرات متتالية، لتختلط مع شعوبه [1].

و للذين يعتقدون أن العبريين ينتمون إلى جماعات الهكسوس، فيقولون أنها أتت من آسيا و استولت على مصر عام 2300 ق.م، و في عام 1700 ق.م، أي ستة قرون من بعد، طردها المصريون و اختارت الانتشار في صحراء ليبيا و السودان الغربي، هذا و إن افترضنا أنه لا يوجد اختلاف بين هكسوس الروايات المصرية و العبريين المذكورين في الإنجيل [2].

و لا تفوتني فرصة المقارنة فيما سبق بين قول كل من " Delafosse" و "Mauny" حول مظهر هذا التواجد اليهودي غرب إفريقيا لتصبح حقيقة وجودهم واختلاطهم مع تلك الشعوب أمر لا يريبه أدنى شك. و يذكر "DELAFOSSE" : " أن هؤلاء الساميين انتشروا وسط شعوب السودان بشكل مسالم" [3]، أما "MAUNY" فيقول : " أن اليهود اختاروا الاختلاط والاندماج وسط هذه الشعوب، دون تحولهم إلى عبيد" [4]. هذا ما يدفعني إلى الاعتقاد أن الجاليات اليهودية التي هاجرت إلى إفريقيا لم تجد أمامها سوى الاستسلام لقدرها و قبول الاستقرار في هذه المنطقة من أجل الحفاظ على بقايا جماعاتها التي عانت من ويلات البطش والهجرة في مختلف مراحل تنقلها من آسيا إلى مصر ثم فلسطين ثم المغرب و إفريقيا السوداء.

و من جهة أخرى يمكن لي أن أدرج موضوع الذهب الذي يكون قد استقطب أنظار هذه الجماعات اليهودية التي اختارت التوجه إلى إفريقيا دون البقاء في مصر أو الهجرة مع موسى عليه السلام إلى فلسطين. و إلا كيف يمكن لي تفسير استقرار اليهود في مختلف المراكز الصحراوية التي عرفت ازدهارا في تجارة الذهب عبر الصحراء، كواحات فزان و الصحراء الوسطى

---

* حدث هذا عام 115 م في مدينة برقة، بليبيا في عهد الامبراطور الروماني تراجان.

1. أنظر: MAUNY (R.), « Le judaïsme, les Juifs et l'Afrique ...», P 359
2. أنظر : . DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique ...», P.43
3. Ibidem
4. أنظر: .MAUNY (R.), op.cit, p.359

و بلاد شنقيط و السنغال [1]، و على الخصوص منطقـــة تـــوات و منطقة وادي الساورة [2] ودان* [3] إضافة إلى مناطق أخرى سأحاول إدراجها ضمن انتشار هذه الجماعات و امتهانها لحرفة التجارة الصحراوية. وبين هذا و ذاك، فالأمر واحد و هو أن اليهود استقروا في السودان وساهموا في بناء حضارته، بالرغم من اختلاف الآراء و تضاربها، لتكون لهم يد في ظهور أجداد البول " Peuls " الأولين، و تأسيس مدينة غانة خلال سنة 300 م. في هذا الصدد يقول موني " R. Mauny " نقلا عن الفتاش : " أن بني إسرائيل شعب عاش في منطقة النيجـــر إلى غاية القرن 15م، أو ما أشير إليه في روض القرطاس إلى قبائل سوداء بالقرب من تكلســـين **[4] يهودية الديانة" [5].

وهذه الجماعات اليهودية التي اختارت الاستقرار في السودان الغربي ، كانت تتشكل من الرعاة و الحرفيين، و إن كانت جذورها كما -ذكرت الروايات الأولى- تمتد إلى الجماعات التي استقرت في مصر، فتكون قد حملت معها حضارة أكثر تقدما. و هذا بسبب احتكاكهم بأقدم الحضارات و أكثرها تقدما، و هي حضارة الفراعنة. ليكون تأثيرهم في المنطقة بارزا من خلال ما نقلوه من نشاطات تركوا بصماتهم فيها و من أبرزها نقلهم لحرفة تربية الأغنام و ادخالهم للثيران ذات السنام و الأغنام فضلا عن إدخالهم لفنيات زراعة البقول في السبخات. كما ساهموا في إستحداث فن معماري جميل، مع حفر الآبار و بنائها خاصة ما عرف بالآبار ذات الجدران الزجاجية***[5].

كثيرا ما وردت فكرة الآبار و ربطتها بالعناصر اليهودية، و إشارة كيوك إلى ذلك يزيد من أهمية هذا الموضوع، خاصة إذا ما حاولت التركيز عليه و ربطه بتواجد هذه الجاليات بكثـــرة في المناطق الصحراوية، و لما لا السودان الغـــربي، و يقول في ذلك كيوك نقلا عن تاريخ

---

1. أنظر :; JOLLY (J.), « Histoire du continent africain », p.87
2. أنظر : HUGOT (H.J.), « Le Sahara avant le désert », édition des Hehépérides,1974, p.22.

* ودان : تأسست عام 1147 م/542 للهجرة على يد الحاج علي، كان فيها حي لليهود بالقرب من المسجد.

3. أنظر : GAUDIO (A.), « Le dossier de la Mauritanie », p.91.

** تكلسين : يعتقد أن تكون في موريطانيا الحالية.

***الآبار الزجاجية : استخدموا فيها المواد التي بعد ذوبانها و تبريدها تتحول إلى مادة تشبه الزجاج. أنظر :
- MAUNY (R.), « Tableau géographique ... ». p.459.

4. ابن أبي زرع، "الأنيس المطرب"، ص.24.
5. أنظر :DELAFOSSE (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale », p.44.

استوطنوا منطقة تاندرمة "Tenderma " بالقرب من قوندام " Goundam " و كلفوا بحفر آبار عديدة، وأعتقد أن هذه الرواية تؤكد ما ذكر على أن الاهتمام بالري و فن تصريفه في الصحراء يعود إلى عبقرية اليهود فيه بعد امتهانهم لحرفة البناء [1].

أثناء دراستي لمسألة الوجود اليهودي في السودان الغربي استوقفتني مسألة يهود قمنوريا، التي أشار إليها موني Mauny في تحليله أن سكان قمنوريا* ليسوا بيهود، لكن وثنيين ادعوا فقط اليهودية لكي لا يحولهم المسلمون إلى عبيد عكس الإدريسي الذي أشار إلى أنهم يهود وديانتهم مزيج لعدة تصرفات [2]. لا أدري ما هي الأسباب التي دفعت موني إلى رفض رواية الإدريسي و التي أراها الأقرب إلى الواقع لأن المزج بين الوثنية و اليهودية أو الوثنية و الإسلام لايمكن اعتبارها قاعدة لإثبات الرأي القائل أنهم يهود أو العكس، هذا ما رددته الروايات التي كتبت عن تاريخ إفريقيا، خاصة ابن بطوطة الذي أشار إلى هذا الأمر عندما زار مدينة مالي، و التي استنتجت منها أن سكانها مسلمون لكنهم يحتفظون بعادات الوثنية [3] ر من الأسباب التي تدفعني إلى تقبل رواية الإدريسي :

- أولا : أن الخلط بين الديانات ليس بالأمر الغريب في أوساط القبائل الإفريقية،
- ثانيا : ان الموقع الجغرافي الذي حددت فيه منطقة قمنوريا و هو جنوب موريطانيا الحالية كان موطنا لعدة جماعات من اليهود [4].
- ثالثا : إذا كانت خلاصة موني صحيحة و هي أن سكان قمنوريا من غانة و من أصل جماعة السونينك الذين اعتنقوا الإسلام على أسس غير صحيحة، فإنه يمكن الاعتقاد أنهم كانوا يهودا قبل انتشار الإسلام إلى كل من إفريقيا و السنيغال. هذا ما أكده CUOQ أن سكان قمنوريا من اليهود، معتبرا رواية الإدريسي تأيدا ذلك [5].

---

1. أنظر : CUOQ (J.M.), « Recueils des sources arabes du XIIIè au XVIe Bilad-Al-Sudan », Inst. de rech. d'hist. des textes arabes. CNRS, Paris, 1975. p.147.

* قمنوريا : تقع بين درعة شمالا و السنيغال جنوبا.

2. أنظر : MAUNY (R.), « Le Judaisme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », in B.I.F.A.N, pp.362 et 363.
3. ابن بطوطة، "الرحلة"، ص.195.
4. أنظر : JOLLY (J.), « Histoire du continent africain ». T.1, p.87.
5. أنظر : CUOQ (J.M.), op.cit, 146-147.

و هناك من الدراسات الأخرى التي حاولت إعطاء الدلائل لذلك، ليس من خلال الأدلة المادية فقط بل من خلال أدلة بشرية أيضا، و هذا بالعودة إلى دراسة عادات و تقاليد الشعوب الإفريقية لتستخلص منها ما يؤكد هذا الترابط و الاختلاط الذي حدث بين الشعوب السوداء و الجنس اليهودي الأبيض. ليتوصل من خلالها دي لافوس M. DELAFOSSE إلى القول " أن اليهود الساميين دخلوا إلى إفريقيا و بالتحديد إلى السودان الغربي خلال العصور الميلادية الأولى. و كانت تنقلاتهم بين المناطق الغربية. فبعد أن دخلوا إلى منطقة دياكا "Diaka " أو ما يسمى بماسينا الغربية، استقروا بجوار الونقارة الذين سبقوهم إلى المنطقة، ليواصلوا فيما بعد زحفهم باتجاه الشمال و يتم لهم الاستقرار في منطقة الحوض و بالتحديد في منطقة أوكار " Aukar" أو ما يسمى بواقادوقو " Ouagadougou" أين جاوروا سكان الونقارة أيضا. و بسبب تلك الصفات التي ميزتهم عن بقية الشعوب الإفريقية نجحوا في فرض وجودهم بينهم و الاختلاط معهم ليعطوا ميلاد الجماعات الإفريقية التي تدعى ساراكولي " Sarakoullé" أو البول " Peuls " والذين عرفوا بالسونينك. و المنحدرين إذن من الساميين البيض و الونقارة الزنوج و لغتهم أقرب إلى لغة الونقارة [1]. و ما استطعت استنتاجه من هذا التحليل هو أن جماعة الونقارة الذين هم أسلاف الديولا قد مارسوا التجارة و احتكروا تجارة الذهب. و إذا كان لليهود دور في هذه التجارة فيعود إلى هذا الارتباط الوثيق بين الجماعات الإفريقية و اليهود.

---

1. لغة الونقارة : لغة الماندينغ، و هي اليوم لغة الساراكولي من الساحل و السنيغال و سكان تيشيت المستقرين. أنظر كذلك :
- Delafosse (M.), « Histoire de l'Afrique occidentale », p.44.

2. اليهــود و الحيـــاة الاقتصاديـــة في المغـــرب

أ. النشاط الاقتصادي اليهودي في المغــرب

لعب اليهود دورا لا يستهان به في الحياة الاقتصادية للمغرب الإسلامي، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار تلك المراحل التي مرت بها حياتهم الوظيفية عبر التاريخ. لقد اشتغل غالبية يهود فلسطين في الزراعة، بينما كانت الجماعات المستقرة في الاسكندرية و برقة تشكل جماعات استيطانية أو قتالية أو مالية *، إضافة إلى قيامهم ببعض الحرف البدائية. و لم يعملوا في التجارة على نطاق واسع، إلا بعد ما ظهرت بينهم طبقة من الأثرياء الذين امتهنوا أعمال الصيرفة. و مع ظهور الجماعات اليهودية المختلفة خارج فلسطين، بدأ اليهود يبتعدون عن الزراعة و يعملون في التجارة و الحرف المختلفة، خاصة بعد استقرارهم في العالم الإسلامي. فلم يعملوا بأعداد كبيرة في الزراعـــة، و أن التجار و الممولين خاصة اليهـــود كانت لهم علاقة بالقطاع الزراعي، لا كمزارعين و إنما كتجـــار و جامعي ضرائب، حيث كانوا يبيعـــون الخمور و يتاجرون في المحاصيل الزراعية [1].

بالنسبة لتحديد هذا النشاط في المغرب الإسلامي خاصة في فترة ازدهار التجارة، بدت كتابات المؤرخين شحيحة للغاية، ولا أدرى إن كان السبب يعود كما ذكره الأستاذ كواتي مسعود "إلى إهمالهم لفئة يهود ريف المغرب"[2]، أم إلى ابتعاد اليهود عن ممارسة هذا النشاط بعد دخولهم إلى المغرب الإسلامي بالرغم من ميولهم إليه، خاصة بوجود بعض الإشارات التي تؤكد ذلك، ناهيك عن تلك الأدلة التي أثبتت ممارستهم لهذا النشاط قبل الفترة الإسلامية.

---

* الجماعة الوظيفية المالية : هي الجماعات اليهودية التي اضطلع أعضاؤها بوظائف مالية مختلفة مثل الربى و جمع الضرائب.

1. المسيري (محمد عبد الوهاب) "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ج2، ص ص. 236-239.

2. كواتي (مسعود)، المرجع السابق، ص 149.

وما تجدر الإشارة إليه، أنه في برقة مثلا، استطاع البطالمة * بعد بسط سيادهم عليها أن يطوروها بشريا و عقائديا، و ذلك بتشجيع أعداد كبيرة من اليهود على الاستيطان في مدنها، ليشكلوا بذلك عنصرا هاما من عناصر سكان المدن المزدهرة. و كان وجودهم هذا ظاهرا في كافة ميادين العمل خاصة عندما أعطيت لهم حرية مزاولة النشاط الزراعي و الرعي و المهن الزراعية المتصلة بهما، سواء كانوا أصحاب إقطاعات زراعية أم مستأجرين لمساحات زراعية أو فلاحية يعملون في مقابل أجور لهم محدودة [1].

أما في الفترة الرومانية فقد كان لليهود دور فعال في توسيع النشاط الزراعي، خاصة بعدما أصبحت المنطقة، أي المغرب، مركزا استراتيجيا للإنتاج الزراعي بالنسبة لروما، أين كان ثلث إنتاج الحبوب مصدرة نحوها. و كان للبحارة اليهود القرطاجيين امتياز في الإشراف على ذلك، و إن كان هذا الأمر قد حدث فعلا فلا يستبعد على الإطلاق ممارسة اليهود للنشاط الزراعي في الفترة الإسلامية للمغرب خاصة عندما تسند إليهم ممارسة زراعة النخيل في الصحراء[2]. و ربما هذا ما دفعهم أيضا إلى امتهان حرفة حفر الآبار و بناء الفوقارات في الصحراء[3].

لكن فيما يخص ملكية الأراضي و ممارسة اليهود للنشاط الزراعي يمكن الإشارة إلى العمل الذي قام به يوسف ابن تاشفين عندما أراد توسيع مسجد مدينة فاس، حيث اشترى الأملاك التي كانت بجوار المسجد و التي كانت معظمها ملكا لليهود[4]. بالرغم مما لهذه الرواية من توضيح لظاهرة تمركز اليهود في المدن الكبرى من جهة، فإني أراها توضح من جهة أخرى صلة اليهود بالأرض و اهتمامهم بها، حتى و لو لم تكن لهم أرض. ورغم الاعتقاد أن اليهود ليسوا ممن مارسوا النشاط الزراعي في المدن الكبرى أو الأرياف، تكفي الإشارة إلى أنهم كانوا على صلة وثيقة بهذا النشاط، من خلال إشرافهم على بيع الإنتاج الزراعي في المجال الإقليمي و الدولي، حيث كانوا ينقلون و يصدرون من المغرب الزيت، الزعفران، نبات الصباغة، القطران، قشور اللوز والقمح [5].

---

* البطالمة، هم ملوك مصر الذين خلفوا الاسكندر الأكبر.

1. بعيو (عبد الله)، "مشروع استيطان اليهود في ليبيا"، ص ص.28-29.
2. AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », p.241.
3. MEUNIÉ (J.), « Le Maroc Saharien - des origines à 1670), p.60.
4. كواتي (مسعود)، المرجع السابق، ص.149.
5. نفسه، ص.142.

– الصنــــــــــاعة

اعتبر النشاط الصناعي من أهم الأنشطة التي ميزت الحياة الحرفية للجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي. و أهم ما يمكن الإشارة إليه، الصناعة المعدنية سواء كانت معادن ثمينة أو غيرها. ففيما يتعلق بالمعادن الثمينة، ذكر أندري شوراكي A. CHOURAQUI أن لهذه العناصر، أي اليهود، الاحتكار شبه الكلي، لصناعة الذهب و الفضة، لأنهم كانوا يدركون القيم الحقيقية لهذه المعادن في السوق. فأشرفوا على صناعة المجوهرات، و أشرفوا و راقبوا عملية تذويب المعدن الأصفر. كما اشتهر اليهود بعملية سبك الذهب، كاليهودي المغربي الذي كان يسافر خلال القرن التاسع للميلاد بين عدن و جزيرة سيلان. [1] فإذا كانوا قد أشرفوا على هذه الصناعة، فهذا معناه أنهم هم الذين قاموا بتحلية السروج و اللُجم بالذهب، و صناعة مجوهرات النساء التي تمثلت في الأقراط و الأساور و دبابيس تزيين الصدر والخواتم و الخلاخل، إضافة إلى بعض الأواني كالأقداح و الأباريق المذهبة. [2] و من المدن التي اشتهرت بهذه الصناعة و تحويل المعدن الأصفر، مدينة فاس، سجلماسة و تمنطيط.[3]

و يرجع جاك مونيي J. MEUNIÉ وجود هذه الصناعة المعدنية في الصحراء، بصفة عامة إلى أزمنة قديمة، و بالتحديد إلى وجود الجماعات اليهودية بها[4]. هذه الجماعات التي يطلق عليها تسمية المعلمين* عند سكان الصحراء [5]. و لم يقتصر النشاط الصناعي اليهودي على الذهب و الفضة، بل شمل أيضا النحاس و الحديد. وذكر GOLDENBERG أن يهود توات كانوا يشرفون على تحويل معدن الذهب و الفضة و النحاس[6]. و ما زالت قبائل الهقار تحتفظ بالروايات القائلة أن صناعة الحديد في الصحراء مرتبطة بالوجود اليهودي [7].

---

1. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs en Afrique du Nord », p.142
2. جودة (عبد الكريم يوسف)، "الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط"، ص 102.
3. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat – du 1er siècle à 1492 », p 58.
4. MEUNIÉ (J.), « Le Maroc saharien », p.60.

* المعلمين، كانت تعني عند سكان الهقار الحرفيين اليهود الذين كانوا يمارسون صناعة الحديد.

5. ABITBOL (M.), « Communautés Juives–des marges sahariennes du Maghreb », p.235.
6. GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p.64.
7. AYOUN (R.), « Les Juifs d'Algérie », p.241.

– التجـــــــــــارة

استفادت الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي من شبكة الاتصالات الدولية، فاشتغلوا بالتجارة الدولية[1]، مثل تجارة الفراء و المنسوجات و التوابل و الرقيق و أعمال الصيرفة، ليزداد طلبهم أكثر على الحرف التي تتطلب مهارة فنية، كصناعة الصباغة و الزجاج و الذهب ودبغ الجلود و كلها سلع نفيسة ذات طابع استهلاكي[2]. ومشاركتهم في هذا النشاط في المغرب الإسلامي لا تختلف عن صورة مشاركتهم في العالم الإسلامي ككل. يشير الأستاذ مسعود كواتي أن مشاركتهم هذه كانت فعليـــة و أن أهم نشاط اقتصادي شاركوا فيه هو التجـــارة [3]. فإذا كانت التجارة هي أهم نشاط اقتصادي مارسه اليهود في المغرب الإسلامي، فلأن هذه المنطقة شكلت جزء من الشبكة التجارية العالمية التي نسجوها. و التي كانت تعني لديهم طرقا دينية، من خلالها تكونت روابط الصلة بينهم [4].

إن تطور شبكة التبادل التجاري إلى شبكة تبادل ثقافي و ديني بين اليهود لن يكون مجرد قول بل تعداه إلى التنظيم الذي يقوم على أساس المسؤولية و التضامن الضروري لكسب الثقة في المعاملات التجارية و في عملية الاعتماد و الائتمان. [5] هذا التنظيم الذي سهلت له السلطات الإسلامية كل السبل و الوسائل أصبح أمرا مسلما به و لا يمكن تجاهله خاصة عند مراجعة قراءة خريطة انتشار الجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي و مشاركتهم في مختلف النشاطات التجارية و الحرفية. لم تكن ممارستهم لتجارة ذهب السودان التي أشرفوا على طرقها ومحطاتها[6]سوى دليل على معرفتهم لأهم الأنشطة التي تمكنهم من تثبيت وجودهم و تعزيز روابط الصلة بينهم و بين الجماعات اليهودية الأخرى المتنقلة عبر العالم.

---

1. ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص 131.
2. مسيري (محمد عبد الوهاب)، "موسوعة اليهود"، ص ص.236-239.
3. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص.141.
4. لومبارد (موريس)، "الإسلام في مجده الأول"، ص.305.
5. نفسه، ص.313.
6. أحمد (علي)، "اليهود في الأندلس و المغرب خلال العصور الوسطى"، ص.166.

و لم تتوقف الجماعات اليهودية في المغرب الإسلامي على ممارسة تجارة الذهب، بل توصلت بعض العناصر الأخرى إلى خلق طبقة من التجار لها أسواق خاصة بها, مثل سوق اليهود و دكاكين الرّهادنة بالقيروان, و درب الرّهادنة بتاهرت[1]. و هذا ما أدى إلى بروز بعض العائلات اليهودية في الحياة التجارية للمغرب الإسلامي خاصة خلال القرنين الثاني عشر و الثالث عشر[2].

و في عهد الفاطميين أصبحت المهدية مركزا لكبار تجار اليهود [3]. أما تجار تمنطيط فقد بلغوا من الغنى ما دفعهم للاستغنـــاء عن التكفل بالصفقات التجارية و الاهتمام بالجمال والبضائع. بل أوكلوا هذه المهـــام إلى وسطاء من تجار البربر، الذين كانوا يقطعون المدن ويلتحقون بأكبر الأسواق في كل من فاس, تلمسان، سجلماسة، ورقلة ،جاو، تمبكتو، ودان، ولاتة وأودغشت [4]. ليسمح لهم هذا النشاط بتوسيع اهتمامهم ليمارسوا الصيرفة التي مكنتهم من اكتساب حوانيت خاصـــة بها، كتلك التي اكتسبوها في القيروان لتبديل العملة [5]. أما فيما يخص النشاطـــات الأخرى التي من شأنهـــا أن توضح مظهر حيوية العنصر اليهودي في المغرب الاسلامى ومشاركتهم في الحياة الاقتصاديـــة، فلقـــد أشار كل من الأستاذ مسعود كواتى[6] واندرى شوراكى[7] إلى ما يدعو للاعتقـــاد أنه لم توجد أية حواجز من شانها التخفيف من هذا النشاط الذي تناسب و وجود هذه الجماعات في أرض المغرب، إلى درجة القول أن هذه الجماعات قد تمتعت فعلا بسياسة التسامح الديني التي ميزت علاقة المسلم بأهل الذمة خاصة اليهود، حيث لا يمكن التمييز بينهم و بين المسلمين في وسائل و طرق مباشرة حياتهم اليومية.

---

1. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص 141.
2. عن هذه العائلات، أنظر : كواتي مسعود، المرجع السابق – فوزي سعد الله، "يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون"، ص ص.67-68.
3. CHOURAQUI (A.), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord », p.113.
4. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », p.39.
5. كواتي (مسعود)، المرجع السابق، ص.145.
6. نفسه.
7. نفسه.

ب. اليهـــود و تجــــارة الصحراء

في العديد من التجمعات السكانية و في أغلب أقطار العالم, ارتبطت الجاليات اليهودية باحتراف التجارة و امتهان عدد من الحرف, هذا بالرغم من أن التاريخ المدون ذكر أنهم كانوا بدوا و رحلا يقومون بالرعي و التجارة، و عند استقرارهم بأرض كنعـــان، عملوا بالزراعة أساســـا، و ظل نشاطهم محدودا، بل يكاد يكون منعدما.

لقد حاول اليهود في فترة الفينيقيين خلق علاقات تجارية بينهم و بين الهند لبناء موانئ على البحر الأحمر، إلا أن هذه المحاولات أجهضتها السيطرة الفينيقية على هذه التجارة [1]. هذه الحادثة أصبحت تؤخذ كمعيار للرد على أسئلة عديدة طرحت حول النشاط التجاري الذي أصبحت الجالية اليهودية تمارسه و تحتكره في آن واحد خاصة في الفترة الإسلامية، وكذلك لكي لا تردد عبارة أن اليهود ولدوا صيارفة و تجار. هذا معناه أنهم لم يولدوا تجارا، بل أن الظروف التاريخية التي مرت بها الجماعات اليهودية في مختلف المناطق التي وجدت فيها دفعتها إلى امتهان التجارة بعيدا عن الزراعة، في العصور القديمة و الوسطى أو الحديثة [2]. و بظهور المملكة العبرانية ظهرت حاجة الدولة إلى تمويل المؤسسات المعمارية الكبرى، مثل مشروع هيكل سليمان، الذي يمكن توفير اعتماداته من خلال النشاط التجاري.

و من أهم العوامل التي شجعت اليهود على الاهتمام بهذا النشاط، موقع فلسطين الذي كان يشكل المعبر الرئيسي الحضاري بين مصر و بلاد الرافدين، ووقوعها على أهم الطرق التجارية في العالم القديم. و انطلق هذا النشاط بشراء المملكة العبرانية للعربات الحربية من مصر والأحصنة من مصادر أخرى، تبيعها لملوك سوريا من الحيثيين* و الأراميين، و هنا يبدأ الاحتكار التجاري الأول للمملكة العبرانية. ليتطور هذا النشاط التجاري أكثر بعد التهجير البابلي** 587 ق.م. هذا معناه أن الشعب المزارع لم يكن تجاريا بالغريـــزة، بل أجبر على أن يصبح كذلـــك،

---

1. المسيري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ص. 252.
2. أنظر : « La vie éconoique des Juifs », in «Revue des études Juives », T.23, Paris, 1894. pp.1-2.

* الحيثيون (Hittites)، شعب هندي أوروبي، برز في بداية الألف الثاني قبل الميلاد و تعد هجرتهم أقدم الهجرات الهندية الأوروبية، وهي من بين القوى التي هيمنت، على الشرق الأدنى القديم و أصل تسميتهم بالحيثيين، نسبة إلى مقاطعة حاثي، التي كانت فيها عاصمتهم حاتو شاش، و التي تبعد بمائة و ثمانين كلم عن أنقرة.

**كانت للإمبراطورية البابلية تجارة دولية نشطة في ذلك الوقت.

فالهجرة علمته كيف يختار النشاط الذي يسترجع به قواه، ما دامت المناطق التي تنقل إليها لم يتحكم في تربتها و لا في طبيعة مناخها، فلم يكن أمام اليهود سوى الاهتمام بهذا النشاط وممارسته، ليتبلور تماما بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، حيث اهتم اليهود بالنشاط التجاري، بعد اتساع الهوة بين طبقة السادة، ملاك الأراضي و طبقة الفلاحين. و كان أعضاء الجماعة اليهودية يقطنون المدن و الموانئ مع التجار الفينيقيين. وقال في هذا الشأن الحاخــام أجوس : " لقد ورثت المسيحية القانون الروماني المعادي للتجــارة و الربا، بينما ورث اليهود المدن و الحياة في المدينة وتقاليدها القانونية و الحضارية". بعد ظهور الإسلام، شكل اليهود الرابط التجاري والمالي بين العالم الإسلامي و المسيحي، كما شكلوا أول نظام ائتمان عالمي سهل عملية انتقال التجار من بلد إلى آخر[1]. و كانت إشارة ابن خرداذبة [2] لطبقة التجار الرادانية باعتبارهم تجارا دوليين،كافية للدلالة على أن هذه الجماعات استطاعت فعلا أن تتكيف في بيئتها الجديدة و تستغل كل الظروف التاريخية لصالح جماعاتها المنتشرة عبر العالم. ليبدو بذلك دورهم في تجارة الصحراء أمرا طبيعيا، بل عضو استكمل أطراف الهيكل الذي تشكل عبر التاريخ، خاصة قبل دخول الإسلام إلى المغرب وبعده.

قبل التطـــرق إلى نشاط اليهود التجاري في الصحـــراء تجب العودة إلى خريطـــة الاستقرار أو تمركز اليهـــود فيها، و الصورة التي تقدمها خريطـــة انتشارهم تعتبـــر جوابا واضحا لأهمية هذا النشاط التجـــاري لدى الجاليات اليهودية. لقد كان تمركزهم منذ القدم على طول المسالك التجارية الكبرى، حيث يبدأ الاستقرار في المدن المشكلـــة للموانئ الساحلية الكبرى، ثم يليه الاستقرار على طول مسلك القوافـــل التي تربـــط بين المغرب و الجنوب، حيث سمحت بإقامة قواعد تجارة مع إفريقيا السوداء. و من بين أهم هذه المراكز، في المغرب الأوسط، بسكرة ورقلة و غرداية، أما في المغرب الأقصى سجلماسة و فاس[3].

---

1. (المسيري) عبد الوهاب محمد، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"، ص 253-254
2. ابن خرداذبة، "المسالك و الممالك"، دار إحياء التراث العربي، ط.1، 1988م، 1408ه، ص.131.

* الحيثيون (Hittites)، شعب هندي أوروبي، برز في بداية الألف الثاني قبل الميلاد و بعد هجرهم أقدم الهجرات الهندية الأوروبية، وهي من بين القوى التي هيمنت على الشرق الأدنى القديم و أصل تسميتهم بالحيثيين، نسبة إلى مقاطعة حاتي التي كانت فيها عاصمتهم حاتو شاش، و التي تبع بمائة و ثمانين كلم عن أنقرة.

3. CHOURAQUI (A.), « Les juifs en Afrique du Nord », p.137.

و في هذا الصدد يقول POITIER : "بعد هروب الجماعـــات اليهودية من الاضطهاد البشع الذي تعرضت لـــه، و هي مستقرة على ضفـــاف نهر النيل فتح لها المسلك عبر الصحراء، هذه الصحـــراء التي هي أقل قســـوة من التي نراها اليوم. و هناك من الجماعات اليهوديـــة من استقرت في الواحات الأولى، و هناك من ذهبت إلى أبعد من ذلك أي في أعماق الصحراء لكي لا تضايق الجماعات التي استقرت قبلها في عملياتها التجارية " [1].

و لم يكن الظرف التاريخي هو الذي حتم على اليهود الاستقرار في الصحراء بل كان للعامل التجاري كما ذكرت أيضا، دور رئيسي في ذلك، و بالدرجة الأولى تجارة الذهب التي كانت مصدر ثروة هذه الجماعات منذ البدايـــة، ليتوسع نشاطهم الصحراوي إلى العمل في المعادن عامـــة، و حتى في حفر الآبار و الفوقارات، هذه الصفـــة التي كانت تنسب دائما إلى اليهـــود والسودانيين في الصحراء. و لم يستبعد الباحثـــون أن تكون هذه الحرف قد انتقلت معهم من المشرق [2]، و أن التجـــارة الصحراوية كانت تمثـــل الصورة الحقيقية للنشـــاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي. كما أن استقرار العائـــلات اليهوديـــة جنوب توات، عبر طول فترات العصور الوسطى، شكل القاعدة الأماميـــة لكل الجماعات اليهودية * في المغـــرب على أبواب مسالك التجارة في إفريقيا الوسطى [3]. انطلاقا من هنا يمكن لي معرفـــة التمركـــز الحقيقي لليهود في الصحراء الكبرى و دورهـــم في التجارة الصحراويـــة.

---

1. أنظر : POITIER (R.), « Histoire du Sahara », Nouvelles Editions Latines, Paris, 1947, p. 68.
2. MEUNIÉ (J.D.), « Le Maroc saharien des origines au XVIe siècle », p 60.

* مثل جماعة يهود ملاح التي جائت تسميتها نسبة إلى النشاط الذي كانت تمارسه هذه الجماعات اليهودية، أي تجارة الملح. و هذه جماعات كانت تشكل في منطقة درعـــة وسوس القاعدة الأمامية للمسالك التجارية الغربية العابرة للصحراء.

3. MONEY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », p361.

كانت تجارة الصحراء تقوم وفق مخطط جغرافي مقسم إلى ثلاث مراكز رئيسية :

- الأول : يتمثل في إفريقيا السوداء التي تقوم بجمع المواد والسلع الخامة ؛
- الثاني : يتمثل في مدن شمال الصحراء التي تلعب دور الموزع بين الأول والثاني؛
- أما الثالث : فيشمل مدن شمال منطقة المغرب الإسلامي و التي تقوم بعملية تحويل المواد الخامة [1].

و إذا حاولت المقارنة بين الخريطتين أو المخططين الجغرافيين لاستقرار الجماعات اليهودية في المغرب و مخطط التبادل التجاري بين الشمال و الجنوب، ألاحظ أن الجالية اليهودية استقرت في المركز الثاني الذي لعب دور الوسيط و المحرك للنشاط التجاري. و هذا التمركز اليهودي الهام في الصحراء ساعدته ظروف جغرافية و دينية، قائمة في الأساس على استراتيجية الفكر الاقتصادي عند اليهود. فالتشتت و الانتشار الذي عرفته هذه الجماعات اليهودية في شمال إفريقيا و الاتصال بكامل المراكز التجارية فيه ساهم في إبراز دورهم في التجارة الصحراوية خاصة و أن التضامن الذي لوحظ لدى هذه الجماعات في المجال الروحي سهل من عملية احتكار الإعلام الاقتصادي التجاري، دون أن أنسى العامل السياسي الذي عاشته دول المغرب الإسلامي و الذي سهل بدوره مهام هذه الجماعات قبل ظهور المرابطين و الموحدين الذين شددوا الخناق عليها و احتكروا هذه التجارة [2]. لذا أجد أن المدن التي استقرت فيها هذه الجماعات عبارة عن سلسلة متصلة ببعضها البعض لهذا الوجود في الصحراء الذي سمح لها أن تلعب دور الوسيط و الموزع و المراقب لتجارة الصحراء [3].

---

1. سعد الله (فوزي)، "يهود الجزائر هؤلاء المجهولون"، ص ص. 70-71.
2. أنظر : MONEY (R.), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale », p.361.
3. أنظر : NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes, Bou-Saâda », Belgique, essai d'histoire sociale, Publisud, 1986, pp. 200-201.

كما لا يمكن لي تجاهل دور هذه الجماعات التي أشرفت على تتبع و مراقبة حركة تجارة الصحراء، و هذا بتوفير الراحة و الأكل لأعضاء القافلـــة، الرجال منهم و الحيوانات، الذين كانوا يقطعون مفازات الصحراء لأسابيع دون انقطاع، في آن واحد مع استغلال هذا الدور في القيام بعملية التبادل مباشرة مع تلك القوافل التي كانت تنقل بضائع الشمال و الجنوب، لصالحها بالقيام بصفقات تجارية مربحـــة [1]. و في هذا الشأن يشير لومبار : " أن الجماعة اليهودية كان لها دليل يخبرها عن وصول القافلـــة وأهمية شحنـــاتها و نوع السلع التي تنقلها [2]. و هذا ما سمح لها أن تسيطر على أغلب طرق التجارة و بروز دورها في تجارة الصحراء بالذات.

فإن حاولت التركيز على أهم هذه الجماعات اليهوديـــة و دورها، يستوجب الرجوع إلى تلك الجماعات التي استقرت في منطقة تـــوات*. هذه المنطقة التي تعتبر امتدادا لتافيلالت بوادي ريغ و الساورة و بعاصمتها تمنطيط، التي هي من أبرز المراكز التي لعبت دورا فعالا في تنشيط التجارة الصحراوية. لقد اعتبرت منطقة تمنطيط قدس اليهود في الصحراء، كونها محطة تجارية ذات أولوية لدى هذه الجماعات، لأنها تقـــع في مفترق أكبر الطرق الصحراوية بين المغرب و السودان و جنوبا بين بلاد شنقيط و ليبيا باتجاه المشرق [3].

تميز النشاط اليهودي في هذه المنطقة بالذات بحرفة الصياغة و كل ما يتعلق بالعمل المعدني كالفضة و النحاس، إضافة إلى وجود رجال القوافل هذه الفئة التي تتحكم في أسرار الصحراء بشكل دقيق، أما طبقة التجار فكانت مهامها مراقبة القوافل التي تعبر منطقة توات. هذه العوامل جعلت من توات مركزا اقتصاديا ذا طابع مميز بالنسبة للمغرب الإسلامي خاصة الجماعة اليهوديـــة التي تزداد أهميتها لديهم بعد تحويلها إلى مركز للرّبيين [4]. بهذا الشكـــل، استطاع يهود

---

1. NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes... », p. 201.
2. لومبار (موريس)، "الإسلام في بجده الأول"، ص 313.
3. GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p.64.
* توات : تقع في وسط العرق الغربي الكبير، في الصحراء الجزائرية، بين تميمون و تابلبالة.
4. GOLDENBERG (A.), op.cit, p.64.

تمنطيط أن يعطوا ميلاد نمط من التجارة يدعى التصدير و الاستيراد، فالقوافل التي المتجهة من الشمال إلى الجنوب، كانت تلتقي في توات أين كانت تتم عملية المقايضة و حتى التبادل الذي كان يتم بين أوربا و المغرب و إفريقيا كان يسير وفق هذه الخطة. و من المراكز التجارية الأخرى التي ارتبطت بتوات بودا، تافيلالت، سوس، درعة، تاغازة، ولاتة و أخيرا السودان الغربي. إضافة إلى هذه المحطات الغربية التي ارتبطت بتوات بشكل مباشر هناك مراكز شرقية أخرى زادت من أهمية المنطقة كنقطة ارتكاز للمسالك العابرة للصحراء، منها تيديكلت وتاوريرت، باتجاه كل من ورقلة و تونس عبر غدامس[1].

و من العوامل التي زادت من أهمية توات كمحطة متقدمة لكل القوافل التجارية ونقطة اتصال كل المسالك الصحراوية الغربية و الوسطى الشرقية، توفرها على ثروة مائية كبيرة خاصة بعد ظهور الفوقارات فيها خلال القرنين التاسع و العاشر للميلاد، ولم تزد هذه العوامل إلا في نمو نشاط اليهود في هذه المنطقة بارتفاع عددهم و عدد القرى التي كانوا يقطنونها و التي حددتها الروايات بمائتي حي في كل من توات، قورارة و تيديكلت [2].

و هناك مراكز تجارية أخرى لا تقل أهمية عن مركز توات، إستقرت فيها الجماعات اليهودية، كمركز سجلماسة الذي كان من أبرز المراكز الغربية التي توفرت فيه للجماعات اليهودية حرية ممارسة النشاط التجاري بشكل ناجح. هذه المنطقة التي أسسها بنو واسول خلال القرن التاسع للميلاد أوت جماعة هامة من اليهود أغلبها من التجار، الأمر الذي جعلها تكتسي طابعا تجاريا محضا. خاصة بعد أن ربطت علاقتها مع البلدان الواقعة على ضفاف نهر النيجر ووسط إفريقيا و مصر والهند [3]. ومما ميز هذا التبادل التجاري اختصاص اليهـــود في نقل نوع من البضائع التي أصبحت تميزهم و تميز طبيعـــة معاملتهم التجاريـــة، و أهمها الملح، المعادن، الحبوب، التمور، التبغ والأقمشة [4].

1. أنظر : OLEIL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat... », p.39.
2. Ibid, p.40.
3. أنظر : ZEFRANI (Haim), « Juifs d'Andalousie et du Maghreb », Paris, Maisonneuve, 1996, p.234.
4. أنظر : OLEIL (J.), op-cit, p.38.

و إذا حاولت تقييم هذه البضائـــع أجدها أساسية و نـــادرة لدى سكان الشمال والجنوب خاصة مادتي الذهب و الملح، و هو ما يؤكد الرأي القائل أن اليهود لا يتاجرون إلا فيما هو أغلى ثمنا و يأتي من البلدان النائيـــة [1]. و تكفي الإشارة إلى يهود ملاح عند ذكر يهود فاس لكي أتأكد أن اليهود كانوا يراقبون و يتحكمون في أسواق الذهب و الملح[2].

أما مركز فاس في الغرب و شروش و غدامس في الشرق فقد ساهمت هي الأخرى في توسيع خريطة هذا الانتشار الاقتصادي و الاجتماعي للجماعات اليهودية في الصحراء. لكن ما لا يمكن تجاهله هو دور تجارة الجماعات اليهودية في الصحراء و التي ساهمت بشكل كبير في ظهور عدة مدن و ازدهارها و التي فتحت الطريق نحو السودان. لكن هذا ربما ما جعل الإحتكار الشبه الكلي للتجارة الصحراويـــة من طرف الجماعات اليهودية أمرا أكدته جميع الدراسات و البحوث، خاصة تلك التي اختصت في رسم الخرائط خلال فترة العصور الوســطى. حتى و لو أن هذه الخرائط ظهرت خلال القرن الرابع عشر إلا أنها تؤكد قدم أهميتها واهتمــام اليهود بها، و يظهر هذا جليا بعد اهتمام اليهود بفن رسم الخرائط و استخدام وسائل الإبحــار كالمربعات والإسطرلاب. و من أهم الخرائط التي يمكن الإشارة إليها، خريطة الميورقي Angélino JULCERT عام 1339م، الذي ذكر الطريق الرابط بين سجلماسة و أرض الذهب و وسط الصحراء إضافة إلى إشارته إلى القصر الكبير، وفي عام 1375 م ظهرت خريطة إبراهام غريسك " Abraham CRESQUES " و الذي أشار إلى كل من سجلماسة، تبلبلت، بودا، غدامس، عين زيزة، تمبوكتو، جاو ونيامي. أما خريطة اليهودي ميسيا دي فيلادست Mecia DE VILLADESTES التي وضعت عام 1413 م، فقد أشارت إلى مسالك القوافل المتوجهة إلى سجلماسة و التي تخرج من بورا وتمنطيط. و في الطريق الشرقي الرابط بين تونس و تمبوكتو، يشير إلى بسكرة، توزر، توقرت، عين صالح، الهقار، عين زيزة، و في أقصى الجنوب جاو [3].

---

1. لومبار (موريس)، "الإسلام في مجده الأول .."، ص. 315.
2. أنظر : OLEIL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat… », p.39.
3. أنظر : LHOTE (H.), « Le Hoggar – espace te temps », Paris, Armand Colin, 1984, p.184.

3. اليهـــود و تـــجارة الذهـــــب

أ. اهتمام اليهـــود بمعـــــدن الذهـــــب

من الضروري البحث عن العلاقة التي تربط بين العنصر اليهودي و معدن الذهب، قبل معرفة الدور الذي لعبوه في تجارته عبر العالم خاصة تجارة ذهب السودان الغربي. لقد اعتبر المعدن الأصفر من الأشياء المقدسة عند اليهود، فقبل استقرار بني إسرائيل و اجتيازهم مرحلة الشتات، تنقل اليهود بالكيفية التي سمحت لهم أن يراقبوا بها هذا المعدن الأصفر أي الذهب دون امتلاكه أو الاستحواذ عليه، من الفرات إلى النيل تحصلوا على معلومات غزيرة حول هذا المعدن من تلك الحضارات التي راقبوا فيها مؤسساته دون تقليدها. فاحترموه و قدسوه لأنه يعني السعادة التامة، و عدم تقديسه يعتبر شتما لديانتهم التوحيدية [1].

هذا التقديس يعود إلى قصة العجل الذهبي، أي إلى ذلك التمثال الذهبي الذي عبده أعضاء جماعة يسرائيل عند قاعدة جبل سيناء، عندما كان موسى عليه السلام يتعبد فوق جبل طور، حيث قام الرجل الذي أطلق عليه القرآن اسم السامري بجمع زينتهم و حليهم واخرج منها عجلا جسدا له خوار، و قال لهم : هذا هو إلهكم و إله موسى، فجعلوا يطوفون به ويعبدونه و يتخذونه إلها من دون الله [2]. وبعده تظهر قداسة معدن الذهب في الاستخدامات اليهودية العديدة.ففي عهد سليمان عليه السلام يدخل الذهب ميدان الزخرفة وتطعيم المعبد أو تغليفه بشكل يؤكد حب و احترام اليهود لهذا المعدن الأصفـــر [3]. وأهم ما يميـــز هذا الاستخدام داخل هيكل [4] سليمان عليه السلام الحوائط المطعمة بالذهب و التي نقشـــت عليها صور النخيل و الأزهار والملائكة، إضافة إلى وجود عشرة شمعدانات من الذهب داخل البهو المقـــدس، والمذبـــح هو أيضا مطعم بالذهب، أما الأواني القربانيـــة الموجـــودة خارج الهيكل و المصنوعـــة من البرونـــز و النحاس فداخلها مصنوع من ذهب، و هو ما يرمز إلى تزايد درجات القداســـة.

---

1. SEROUSSI (R.), « L'Histoire de l'Or », p.66.
2. الخالدي (صلاح عبد الفتاح)، "الشخصية اليهودية من خلال القرآن"، شركة الشهاب، الجزائر، ط1، 1407هـ/1987م، ص 82. أنظر في ذلك سورة طه، الآية 89 و سورة الأعراف الآية 148.
3. SEROUSSI (R.), op.cit, p.66.
4. الهيكل : كلمة يقابلها بالعبرية همقداش أي بيت المقدس أو هيخال، و هي كلمة تعني البيت الكبير، و هي الطريقة التي كان يشار بها إلى مسكن الإله، و من أهم أسمائه "بيت يهوه"، بناه سيدنا سليمان عام 960-953 ق.م، و لذا يطلق عليه هيكل سليمان أو الهيكل الأول. وحسب الاعتقاد اليهودي بني فوق جبل موريا و هو جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التي يوجد فوقها المسجد الأقصى و قبة الصخرة.

أما الغرفة المربعة و التي تدعى قدس الأقداس*، فلها بابان من الخشب مطعمان بالذهب، و داخل محراب قدس الأقداس يوجد تمثالان لملكين مذهبين من خشب الزيتون و هما رمز الحماية الإلهية[1].

ليس غريبا أن يقدس اليهـــود معدن الذهب، مثلهم مثل العديد من الشعوب التي سبق و أن تطرقت إليها في هذه الدراسة، كالفراعنة و الإغريـــق أو قبائل إفريقيا الغربية، هذه الشعـــوب التي لم تدخر أي جهد للحصول عليه. لكن طبيعة الاحتكار اليهودي لمعدن الذهب هي التي تدعو للغرابة وتدفعني لأتساءل مرة أخرى عن الأسباب الحقيقيـــة التي دفعتهم لاحتكاره، و تسير مؤسساته عبر العالم مع الإشراف على صناعتـــه و احتكار تجارته عبر العصور ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال دون الحصول على معلومات دقيقة و كافية تسمح بتكوين فكرة موضوعية عن هذه الدراسة.

لقد استعنت ببعض النصوص و لو أنها حديثة، إلا أنها لمحت لهذه الفكـــرة و أعطت جوابا لما تحمله من معان قد يفسر العديد من الأهداف التي كان اليهـــود يخططـــون لها عبر العصور، و كانت نصوص البروتوكولات أنسب لذلك و أهمها البروتوكـــول الثـــاني و العشرين الذي يقول : " و في أيدينـــا ترتكز أعظم قوة في الأيام الحاضرة، و أعـــني بها الذهب ففي خلال يومين نستطيع أن نسحب أي مقـــدار من حجرات كنوزنا السرية [...] هل يمكـــن أن نعجـــز بعد ذلك عن إثبـــات أن كل الذهب الذي ظللنـــا نكدسه خلال قرون كثيرة جدا لن يساعدنا في غرضنا الصحيح للخير" [2].

فحب اليهود للذهب و التفنن في صناعته و إتقان عمله كان له هدف مسبق مبني على أسس ثابتة ليكون التلمود دستورهم المقدس في ذلك، و لتكون التجارة أحسن وسيلة لبلوغ كل الأهداف، حيث يعتقد اليهود، حسب التلمود، أن غير اليهود نجسون و لا يمكن لليهودي إدخالهم إلى بيته، أو أن يأكل عندهم، و ليس له أن يتعامل معهم إلا بغرض التجارة [3]. بذلك تكون ممارسة النشاط التجاري أنبل وسيلة و أسهل طريقة يمكن بواسطتها الإشراف على هذا المعدن أينما كان وحيثما حل. لتصبح بذلك مهنة الصيرفي أو صائغ المجوهرات أو وازن الذهب من اختصاص اليهود، بل تنسب إليهم أكثر مما تنسب إلى النصارى و المسلمين، خاصة خلال الفترة الإسلامية أيام ازدهار تجارة الذهب، و ظهور الدينار الذهبي الإسلامي، حيث كان لليهود دور بارز لا يمكن تجاهله، و الذي دفعهم أن يبلغوا من الثروة ما لا يعد و لا يحصى.

---

* قدس الأقداس : هي غرفة مربعة لا نوافذ لها، لا يدخلها إلا كبير الكهنة في يوم الغفران، فينطق باسم "يهوه" و يعني إله الصحراء والرعي.
1. المسيري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"،ج4، ص.161.
2. بن مهنأ آل علي (محمد)، "أصالة الإسلام في مواجهة التحدي الفكري"، ط.1، الرياض، دار المؤيد، 1998، ص287.
3. خان (ظفر الإسلام)، "التلمود، تاريخه و تعاليمه"، دار النقاش، ط.7، بيروت، 1410ه/1998م، ص72.

فالاضطهاد و التهجير اللذان تعرضوا لهما عبر التاريخ علمهم كيف يعيدون بناء شبكتهم عبر العالم، كما علمهم كيف يضربون على الوتر الحساس للحياة الاقتصادية العالمية، لتصبح القوة المادية التي نعرفها اليوم وليدة هذا التحول و التخطيط. و الدليل هذه المرة يأتي من نص الخطاب الذي ألقاه أكبر الحاخامات اليهود في روسيا عام 1870، أين قال : " إذا كانت الأجيال الماضية قد خضعت لأعدائنا فإن الجيل الحاضر والأجيال القادمة يجب أن تخضع لحكمنا وتنفذ مقاصدنا نحن بني إسرائيل، فقد ملك شعبنا بقوته أعظم الملوك، و نال بصبره و ثباته خير ما يملكون، ألا و هو الذهب، العجل الذهبي الثمين الذي قدمه هارون (كرمه الله عنهم) قربانا لله، أصبح إله الأرض في عصرنا هذا" [1].

استتنج من خلال ما سبق أن علاقة اليهود بمعدن الذهب تمتد إلى قصة العجل الذهبي، أيام موسى عليه السلام، هذا الوضع الذي حول الذهب إلى مادة مقدسة، و هذا التقديس بدوره يتحول إلى عملية الاحتكار للحفاظ عليه و العودة إليه متى دعت الحاجة لذلك، لكن هذا الأمر لم يتحقق إلا باحتكار كل الأنشطة التي لها صلة بهذا المعدن وهذا ما يفسر فعلا امتهان اليهود لكل الحرف ذات الربح الوفير خاصة في فترة ازدهار الإسلام و بروز الدول الإسلامية العديدة. قبل التطرق إلى أهم الحرف المتصلة بالمعدن الأصفر و التي احترفها اليهود يجب الإشارة إلى أن اليهود لم يجيدوا صناعة الذهب بشكل دقيق منذ البداية بالرغم من اهتمامهم بهذا المعدن و صناعتهم لتمثال العجل الذهبي، و هذا ما يؤكد حقيقة أن العبرانيين كانوا يجهلون أصول فنون الهندسة و العمارة و ألوان الفنون الأخرى نظرا لكونهم بدوا رعاة و لعدم وجود تقاليد حضارية ثابتة لديهم، هذا ربما ما دفع سليمان عليه السلام أثناء بنائه للهيكل أن يجلب المهندسين و البنائين من صيدا و صور إذ ساعده ملكها و حليفه "خيرام" الذي صنع له أواني الهيكل [2]. لكن بعد إتمام عملية الفتح و دخول المغرب ضمن إطار التنظيم الجديد الذي حظيت به و لاية إفريقيا ظهرت الجاليات اليهودية بشكل لا مثيل له، أين لعب اليهود دورا اقتصاديا في كل الفترات و في جميع الميادين.

---

1. بن مهنأ آل علي (محمد)، "أصالة الإسلام ..."، ص290 .
2. المسيري (عبد الوهاب محمد)، "موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية"،ج4، ص 162.

ففي المجال الحرفي كان اليهــود يحتكرون صناعة المعادن الثمينة كالذهب و الفضة، فكانوا صاغة، و كلفوا بمراقبة عملية صهر المعدن الثمين ووزنه لأنهم كانوا يعرفون القيمة الحقيقية لهذا المعدن، أثناء استبداله بعملة أو ببضاعة، و هذا مقابل المسؤوليات التي أوكلت لهم من طرف التجار المسلمين أو غيرهم [1] فازداد ثراؤهم و نجاحهم في فاس الذي يعود إلى عملهم في الصياغة والصيرفة [2]. و يشير الاستاذ مسعود كواتي إلى ذلك قائلا : " شارك اليهود في النشاط الصناعي في المغرب الإسلامي بصورة و اضحة، إذ اقتصرت بعض الصناعات على اليهود، و منها صناعة الذهب و الفضة و النحاس و معظم الصاغة في المغرب من اليهود [3].

هذه المهارة التي اكتسبوها في صناعة الذهب جعلت منهم المراقبين الأولين لأسواق الذهب والملح، ليكون تمركزهم في كل من فاس و سجلماسة و تمنتيط أكبر دليل على ذلك، وعلى ممارستهم لحرفة الصياغة [4]. كما يعود ثراء اليهود و نجاحهم في ممارسة النشاط التجاري بشكل محكم إلى عملهم في الصياغة و الصيرفة، على حسب قول عز الدين أحمد موسى [5].

لقد لاحظت أن اشتغال اليهود في صناعة المعادن الثمينة لا يقتصر على صناعة المجوهرات و الأواني المذهبة بل تعداه إلى صناعة النقود فما قام به يهود درعة يكفي للدلالة على ذلك حيث كان يهود تُدغَه مختصين في صناعة المعادن و ضرب العملة. و يذكر جاك مونيي MEUNIÉ استنادا على مخطوط شط المخزن أنه خلال المحاولات التي قام بها مسلمو تافيلالت لغزو وادي درعة لجأ ملك اليهود إلى قبيلة القيروانيين بفاس لاستئجار اثني عشر ألف محارب بعملة ذهبية لصد المسلمين. لم يعرف تحت اسم من ضربت هذه العملة لكن يحاول أن يؤكد أن العملة الذهبية التي أراد أن يستأجر بها المحاربين هي عملة يهود درعة و من صنعهم خاصة عندما يقول : " كان لليهود في سجلماسة و باقي المغرب الأقصى مكانة معتبرة في تجارة المعادن الثمينة و صناعة النقود حيث كانوا يتحكمون في صناعة الذهب و الصيرفة و جمع الضرائب و المكوس "[6].

---

1. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs de l'Afrique du Nord », p.147.
2. أحمد موسى (عزالدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي"، ص.109.
3. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص.147.
4. OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », pp. 38-58.
5. أحمد موسى (عزالدين)، المرجع السابق، ص.109.
6. MEUNIÉ (J.), « Le Maroc Saharien, des origines au XVI », pp. 225-226.

و هذا ما ميز حياتهم الاقتصادية في البلاد الإسلامية، فضرب العملة لا يعتبر حرفة صناعية فقط، بل مالية أيضا، لذا استفاد منها اليهود بشكل كبير جدا، خاصة بعد ان احتكروا أسواقها، و عرفوا قيمتها في مختلف البلدان. عندما يباشر اليهود صناعة العملة يتنبه إلى كل الذرات الدقيقة أو شذرات الذهب التي تتناثر هنا و هناك أثناء صهر المعدن أو تحويله إلى عملة. فالاحتفاظ بهذه البقايا يعني تحويلها إلى مجوهرات أو أشكال أخرى [1]. لكن رغم هذا لم يبق اليهودي في انتظار ما تسفر عنه صفقات البيع من ربح أو بقايا صناعته، بل يلجأ إلى أسهل وسيلة يراها الأفضل في الحصول على الربح السريع والتي تحقق له عملية الاحتكار التي كان يصبو إليها، و التي أملتها عليه تلك "المبادئ المقدسة" التي يراها تنبعث من بريق العجل الذهبي المقدس، أو من بين ثنايا أسطر التلمود أو بروتوكولات صهيون. تتمثل هذه العملية في ظاهرة الغش التي كثيرا ما عانى منها العالم الإسلامي عامة والمغرب خاصة، و التي ارتبطت بشكل وثيق بعملية الربا، هذه الصفة التي -حرمت على المسلمين دون استثناء تبناها اليهود بكل بساطة وإيمان، حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش و يكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته بالرغم من عدم صحة هذا الأمر في مذهبهم القديم [2].

و قد انقطعت صلتهم بمعنى الدين و سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، لأن شهواتهم الغالبة مؤثرة على عقيدة التوحيد و أحكام التوراة، ولذا فهُم، أي اليهود، شعب نشيط، وهم حيث حلوا يبذلون جهودا معتبرة للسيطرة على زمام التوجيه المالي، و لا يبالون بأساليب القتل و المكر لبلوغ أهدافهم [3]،

---

1. BENAYOUN (Ch.), « Les Juifs et l'économie... » par BENAYOUN (Ch.), MEDAIN (A.), JACQUES ROJMAN (P.), Presse Universitaire du Murail, Toulouse, 1992, p.44.
2. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص. 118.
3. الغزالي (محمد)"فقه السيرة"، الجزائر، مكتبة رحاب بور سعيد، 1989، ص.ص 145-243.

هذا ما دفعهم إلى امتهان هذه الحرف التي تتصل بشكل مباشر بمعدن الذهب، ويؤكد ذلك أبي الحسن قائلا : " إن سبب دخول أهل الذمة في الصياغة و المصارفة حدث لما اتسع نطاق ملك المغرب، رسمت همة أمرائه أن يتميز مكانهم بالأمتعة والأسلحة المصنوعة من الذهب و الفضة والمموهة بهما، و المكللة بالأحجار النفيسة الرفيعة، أبهة للإسلام و نكاية لعبدة الأصنام، استدعوا من سائر الأفاق و الأصقاع، و اجتمع منهم جملة وافرة، فأبدعوا الصنائع العجيبة الفائزة، فداخلهم إذ ذاك الذمة من اليهـــود و خادموهم بالخدمة الظاهرة والباطنة وسرقوا لهم صناعتهم و صياغتهم" [1].

لقد أشار الونشريسي ولو في فترة متأخرة أن اليهود كانوا يشتغلون غالبا بالمغرب خطة أو وظيفة الصرف ببيت مال المسلمين لخبرتهم في أعمال الصيرفة والحسابات المالية [2].

كما أشار الحميري إلى هذه الصفات التي كانت منتشرة بين يهود سجلماسة قائلا :
" وسبب تسخير أهل سجلماســـة لليهود في ذلك أي في صناعة البناء كونهم محبين في سكنى بلادهم للاكتساب، لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه، فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقـــة و أنوع الخـــداع" [3]. و هذا ربما ما دفع المسلمين إلى الابتعاد عن امتهـــان هذه الحرف، أي خوفـــا من الوقـــوع في المحضورات [4]، إضافة إلى أنهم لم يرضوا أن يكون أولادهم خدّاما لأهـــل الذمة، لذا انفـــرد بها أهل الذمـــة من اليهـــود و اختصوا بها وأقاموا بها سوقـــا [5]. رغم إلحاح جل الفقهـــاء إلى عدم توكيـــل مثل هذه المهام إلى أهل الذمـــة، ولقد نبهنـــا عمر رضي الله عنـــه إلى هذا الأمـــر قائلا : " لا تبيـــع الأعاجم في سوقنا إلى أن يتفقهوا في الدين و هي أحق التجـــارات بأهل العلم و الفضل". و عن نقولا زيادة، نقلا عن أبي عبدون إذا كان أصل الأثـــمان : الذهب و الفضـــة، و مرجعهما إلى أهـــل

---

1. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص.ص 117- 118.
2. أبو مصطفى (كمال) "جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي"، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1997، ص 85.
3. الحميري، الصدر السابق، ص.306.
4. CHOURAQUI (A.), « Les Juifs en Afrique du Nord », p.142.
5. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص.118.

الصرف في الغالب، فمن النظـــر إلى ذلك ألا يستعمل فيه ذميا و لا متهما في كسبه [1]. و هذا بسبب المعرفة الدقيقة لهذه الصفات التي اتصف بها أهل الذمة من اليهود، و يؤكد المغيلي هذا القول مشيرا إلى " أن كل ما زعموا أنهم ذبحوه لنا فهو جيفة، و كل ما زعموا أنهم صرفوه لنا فهو ربا" و "على المسلم ألا يقرّب كافرا من نفسه أو عياله، أو يستعمله في أعماله و يجعل بيده شيئا من ملكه، إلا من لا دين له و لا عقل و لا مروءة" [2].

وجاءت أحاديث الرسول (ص) واضحة المعالم في التعامل بهذا المعدن الثمين تفاديا للوقوع في المحضور، فقال (ص) :" لا يباع مثقال ذهب عين بمثقال و شيء من تبر غير مضروب، و كذلك حرم التفاوت بين المضروب من الفضة و غير المضروب منها" [3]. و في حديث آخر في استبدال القطع الثُمنية بالقطع الثُلثية، قال : "أنه لا يشف بعضها عن بعض، فإن شفّ صار رِبا"، لأن الذهب يتفاضل حينئذ [4].

و من هنا يأتي حكمه (ص) على آكل الربا و موكله و كاتبه و شاهـــده، و المعلوم من الفقه أن كل من استحل الربا فهـــو كافر، حلال سفك دمه، فإن تاب و إلا قتل [5]. و عن الإمام مالك رضي الله عنـــه، فقد أشار إلى البعض من هذه الأحكام بقوله : " لا يجـــوز بيع درهم زائـــف أو ستوق بدرهم فضة وزنا بوزن لأن ذلك داعيـــة لإدخال الغـــش على المسلمين" [6]. وانتشار مثل هذه الصفات بالرغم من محاربة الإسلام لها، يعود و بكل تأكيـــد إلى سماحة الدين الإسلامي، الذي لم يعط للذميين حرية الدين و الثقافة فحسب، بل منح لهم في جميع مسائل حياتهم الاستقلال التام، و كان الرسول (ص) مرة أخرى قدوة حسنة في ذلك عندما حدد طبيعة المعاملـــة مع اليهود قائلا : " من أذى ذميا فقد آذاني، و من آذاني فقـــد آذى الله"، كما

---

1. زيادة (نقولا)، "الحسبة و المحتسب في الإسلام"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1963، ص 141.
2. المغيلي، " مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، تحقيق بونار (رابح)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1986، ص ص. 31-43.
3. القرطبي، "جامع الأحكام الفقهية"، جمع و تصنيف فريد عبد العزيز الجندي، ج.2، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1414ه/1994، ص.14.
4. ابن رشد، "فتاوى ابن رشد"، جمع و تعليق المختار بن طاهر التليلي، السفر الأول، ط.1، بيروت، دار الطبع الإسلامي، 1407 ه/1987م، ص.571.
5. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص. 117.
6. الإمام مالك، "المدونة الكبرى"، م.3، بيروت، دار صادر، ص. 444.

أنـــه (ص) يبرأ إلى الله ممن قتل ذميا أو كافرا، ويعلن : " من ظلم معاهدا أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة" و كانت له سنن في التعامل معهم فكانوا يسلمون [1].

إلا أن الأوضاع تختلف تماما في المغرب الإسلامي عن تلك التي كان الرسول (ص) يعيشها مع أهل الذمة، فحدث أن تسامح أمراء المغرب معهم بالكيفية التي سهلت لهم مهامهم، وحققت لهم أهدافهم و أغراضهم. و يشير الونشريسي إلى ذلك قائلا : " أن ولاة الأمر في البلدان المغربية كانوا يعتمدون على ما كان اليهود يقولونه حول الصيرفة، و الحسابات المالية و وزن الدنانير المقبوضة ألخ.. و يكتبونه في سجلاتهم رغم أن الفقهاء أو أهل الفتوى كانوا يحثونهم دائما على عدم إبقاء اليهود في العمل ببيت مال المسلمين" [2].

و السؤال يبقى مطروحا حول الأسباب التي جعلت حكام البلاد المغربية على الخصوص يتسامحون مع أهل الذمة في مثل هذه الحرف التي حددها الإسلام و نهى عن استخدام اليهود فيها، باستثناء معاملات المرابطين و الموحدين لهم، خاصة و أن بعض الكتابات أشارت إلى العديد من عمليات الغش التي كان يلجأ إليها اليهود لسرقة الذهب و الحصول على الربا. و من أهم هذه العمليات ما حدث في دار سكة سجلماسة، عندما أخذت بعض الذهوب الطيبة وعيرت، ظهر في عيارها ضعف كثير أدخل الريبة في الأمين و شاهديه، و رفع ذلك لمن يجتهد فيه، فأحضر اليهود الذين سبكوه فاعترفوا بغشهم لها، بالاعتماد على الطريقة التالية : أخذ أحدهم قطعة من الفحم جعل في جوفها جزءا من الفضة، و بعد تذويب الذهب أخذ منه مقدار الفضة. أما عن وزن الذهب، فكان اليهودي يستعمل حيلة* أخرى، أكدت على مكرهم و شدة خداعهم للمسلمين و غيرهم. فلقد عثر بيد أحد اليهود على حبات من شعير أعدها ليزن بها، فاتهمه أحد النبلاء لثقل إحداهن، فاختبرها فإذا في جوفها أطراف من حديد ركزها فيها، بعد أن رطبها بالماء و جففها [3].

---

1. الجندي (عبد الحليم) " الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي"، القاهرة، دار المعارف، 1997، ص ص. 262-263.
2. أبو مصطفى (كمال) "جوانب من حضارة المغرب الإسلامي – من خلال نوازل الونشريسي"، ص.85.

* كانت هذه العملية تسمى في لغتهم بالمعمرة، و هذه الحيلة للغش في الوزن كانت منتشرة بين التجار، و منهم من يرطب القمح والشعير فإذا رطب غرز فيه إبر الحديد و أخفى مغارزها ليوهم عند القبض أن الشعير على أصله، و كذلك يجعلون في قلب النواة من الخروب و غيره.

3. أبو الحسن (ابن علي)، المصدر السابق، ص ص. 61-63.

و كان اليهودي إذا قبض لنفسه وزن بالتي فيها أطراف الإبر، و إذا وزن لغيره وزن بالتي لا إبر فيها [1]. و ربما كانت هناك حيل وطرق أخرى لجأ إليها اليهود للحصول على هذا المعدن الأصفر و احتكاره ضمن ممتلكاته التي ميزته عن بقية العناصر البشرية الأخرى.

و أجد ما أشار إليه الإمام الغزالي جوابا يمكن قبوله قبل إصدار أحكام أخرى على تصرفاهم هذه التي لا تمت بصلة لأية عقيدة. و يقول :" و قد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد، و خشوا أن يغنوا إذا اشتبكوا معهم في صراع ساخر، فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء، و مازالوا بها حتى أتت ثمرها المر، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضا في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوى اليهود و تكاثروا، و تمت ثرواهم، و استحكمت حصوهم و ضيق سطوهم " [2].

فمن خلال ما ورد في تحليل موضوع علاقة اليهود بمعدن الذهب يمكن لي استنتاج أمرين أساسيين وهما، أولا : أن اليهود لجئوا إلى تقديس الذهب وفق المبادئ التي أملاها عليهم تاريخ بنو إسرائيل و نظرهم الروحية إلى تمثال العجل الذهبي. ثانيا : أن اليهود استخدموا كل الطرق و الحيل لاحتكار الذهب و الاستحواذ عليه من أجل استخدامه فيما تمليه عليهم عقيدهم واهدافهم. كما يمكن لي أن استنتج أن هناك علاقة بين ما حدث في الماضي و ما يحدث اليوم، فيما يخص احتكار الذهب، فهم اليوم سادة أسواق الذهب و بنوكه.

---

1. أبو الحسن (ابن علي ابن يوسف الحكيم)، المصدر السابق، ص ص. 61-62.
2. الغزالي "فقه السيرة "، ص. 144.

ب. اهتمام اليهود بتجارة الذهـــــب

لقد سبق أن تطرقـــت إلى موضوع تجارة ذهب السودان و اهتمام المغرب الإسلامي بها، خاصة بعد الفتح الإسلامي للمغـــرب الذي أعطى للتجـــار العـــرب و البربـــر دفعا قويا لممارسة نشاطهم التجاري، و الذي بفضلهم اكتســـت هذه التجـــارة طابعا اقتصاديا مميزا. أما قبل هذه الفترة، أي فتـــرة ازدهار النشاط التجاري بين المغـــرب و إفريقيـــا فلم يشر إليها بشكل يوضح حالة هذه التجارة بدقـــة. لكن بالنسبة لما ذكره هيرودوت فيما يخص وجود تجارة الذهب جنوب المغرب الأقصى و التي سبق ذكرهـــا، فالأمر يختلـــف خاصة إذا تعلق الأمر بدراســـة العنصر اليهودي. هذا ما يمكن أن يكون جوابا عن الأسئلـــة التي راودت العديد من الباحثين و هي : إذا لم يتوغل الرومـــان في الصحـــراء و لم يمارســـوا تجارة الذهب الســـوداني، فمن مارسها ياترى ؟

يقودني هذا السؤال إلى البدايات الأولى لعلاقة اليهود بتجـــارة هذا المعدن الأصفـــر، فبعد تحطيم هيكل سليمان، حطت الجماعات اليهوديـــة رحالها على ساحل المحيـــط الأطلسي، عام 361 ق.م، لتسفـــر عن ميلاد أقدم مملكـــة يهوديـــة عرفها المغرب و هي مملكة إفران*. و منطقـــة إفـــران هذه، ليست الوحيدة التي أوت الجماعات اليهوديـــة، بل كانت هناك منطقـــة أخرى لا تقل أهميـــة عنها و هي درعة، التي أعطت ميلاد مملكـــة يهود درعة خلال القرن 5 م، و هذا بعد صراع طويـــل دام قرونا للسيطرة على السكان الأصليين للمنطقـــة و هم سود يلقبون بأيت درعة أو الدراوة، و الذين طردوا منها [1].

---

* إفران : إوفران إو أفرى، معناها بالبربرية الكهوف أو المغارات.

1. MEUNIÉ (J.), « Le Maroc saharien », pp.60-61.

فإذا كان اليهود قد استقروا في كل من درعة و إفران بعد تدمير هيكل سليمان بفترات وجيزة، فهذا معناه أنهم مارسوا فعلا تجارة الذهب. و تعتبر إشارة هيرودوت خلال القرن 5 ق.م، لهذا النوع من التجارة، أقرب إلى الفترة الزمنية التي وجدت فيها هذه الممالك جنوب المغرب الأقصى في كل من درعة و إفران. و لتدعيم هذا الاستنتاج أعود إلى ما ذكره GOLDENBERG، في قوله أن يهود سالا* "Sala" مارسوا تجارة الذهب مع الفينيقيين منذ القرن 4 ق.م، و أصبحت منطقة جنوب الأطلس مركزا مخصصا لتصدير الملح و الذهب عبر موانئ المحيط الأطلسي، هذه البضائع التي كان يأتي بها اليهود من الجنوب [1].

هذا ما يؤكد اهتمام اليهود بمعدن الذهب و تجارته عبر الصحراء، خاصة من خلال أدائهم لدور كبير في تنشيط التجارة الصحراوية، ليكون بذلك الهدف واضحا بنقلهم لبضائع نادرة وثمينة إلى إفريقيا، تضاهي قيمتها قيمة معدن الذهب. ظهور "يهود ملاح"، أي اليهود المختصين في تجارة الملح، أكبر دليل على احتكارهم لأهم بضاعة استبدلت بمعدن الذهب.

أما خلال القرن الثالث الهجري، فبعد أن نشطت التجارة بين المغرب و إفريقيا، اشتهر اليهود بتجارة الذهب، حيث أكتشفوا أسرار نجاحها و طرقها المربحة [2]. و يؤكد الأستاذ مسعود كواتي ذلك قائلا :" أن الأعمال التجارية التي اشتغل بها اليهود في المغرب الإسلامي كانت تجارة الذهب المستخرج من السودان" [3]. ومن بين العوامل التي سهلت لهم هذه المهام، الاستقرار في المحطات الكبرى لهذه التجارة و بوابات إفريقيا، منها سجلماسة، التي برر الحميري وجودهم فيها بما يلي : " لما علموا أن التبر بها أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه، فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقة و أنواع الخداع "[4]. كما كانت سجلماسة أكبر سوق للذهب والملح قبل سنة 349 هـ/960 م، حيث ضربت قطعا ذهبية و فضية [5].

* سالا : تمثل اليوم منطقة شلاح بالرباط عاصمة المغرب الأقصى.

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p 53.
2. أحمد (علي) "اليهود في الأندلس و المغرب خلال العصور الوسطى"، جامعة دمشق، ص.166.
3. كواتي (مسعود)، "اليهود في المغرب الإسلامي"، ص 142.
4. الحميري : "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، ط.2، مكتبة لبنان، 1984، ص 306.
5. GOLDENBERG (A.), op.cit, p 64.

أما المحطة الثانيـــة التي حافظت على سمعة اليهود فكانت تمنطيــط، التي لا داعي لذكر أهميتها من حيث الموقع و تمركز اليهـــود فيها، بل من حيث إيوائها لتلـــك الجماعـــة اليهوديـــة التي أشرفت على تحويل الذهب الذي كانت تنقله القوافل[1]. فكيف لا يمارس اليهـــود صناعة الذهب وهم يشرفـــون على القوافل الناقلـــة للذهب من السودان، و كيف لا يمارسون تجارة الذهب و هم يتصلون بكل التجمعات اليهوديـــة الأخرى المنتشرة في الصحراء كسجلماسة، وسوسة و درعة، و ولاتة و السودان [2]. و أعتبر إشـــارة البكري إلى تمركز هذه الجماعات جنوب الصحراء أكبر دليـــل على استقرار هذه الجماعات في أهم المراكز التي أشرفت على تجارة الذهب، خاصة عند ذكره ليهود منطقة جـــادو[3]، هذه المنطقـــة التي اعتبرها المؤرخون العاصمة السياسية و الإداريـــة لجبل نفوســـة. و أن القوافـــل التي تنطلـــق من طرابلس باتـــجاه زويلـــــة و فزان كانت تمر بها [4].

و لم يتوقف نشاط اليهـــود على تجارة الذهب طول مدة استقـــرارهم في الصحراء الكبرى و على معرفتهم لأكـــبر المحطات التجاريـــة، بل تعدوا ذلك، حيث دخلوا إلى الســـودان الغربي كما سبق ذكره وانتشروا فيه. فوجدوهم المكتشـــف أيـــام إمبراطوريـــة غانـــة في المدن، وممارستهم لصناعـــة الذهب والحدادة [5] لدليـــل لاحتكار اليهـــود لذهب السودان الغربي وممارستهم لتجارتـــه والإشراف على صناعتـــه. و من خلال ما ورد في هذا التحليل يمكن لي أن استنتج أن العناصر اليهودية اهتمت بتجارة الذهب و مارستها عن قرب، بعدأن ساهمت عدة عوامل في تبسيط السبيل إليها.

---

1. أنظر : GOLDENBERG (A.), « Les Juifs du Maroc », p 64.
2. أنظر : OLIEL (J.), « Chroniques des Juifs de Touat », 39 p.
3. البكري، المصدر السابق، ص.9.
4. فخار (إبراهيم)، تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى، ص 47.
5. أنظر : CISSOKO (S.M.), Op-cit, p .20.

و لم يعــد في الأمر من شــك، إذ أصبحــت عبارة طرق الذهب تعني طرق اليهــود [1]، بسبب ارتبــاطهم بهذا المعدن و معرفتهم للسبل التي تؤدي إليــه. و ربما هذا ما دفع اليهود في فترات متقدمــة من العصور الوسطى، إلى احتكار تجــارة بعض المنتجات، خاصة في الفترة الممتدة بين القرنين 14 و 15م، أين كانوا يحتكرون تصدير الحبوب من الجزائر إلى الخارج و أين برز يهود توات كوسطاء تجاريين مع إفريقيــا السوداء التي كانت لهم علاقات تجارية بيهود وهران وتلمسان و هذا باستبدالهم لريش النعــام و التبر مقابل القمح و النحاس[2].

و ما يمكن استنتاجه من خلال تحليل هذا العنصر، هو أنــه بمجرد الإشارة إلى وجود اليهود في الصحراء و السودان الغربي و المدن المغربية الكبرى، يمكن معرفة طبيعة الخريطة الإقتصادية التي رسمها اليهود لنشاطهم التجاري أين أصبح ذهب السودان الغربي محورها الرئيسي بشكل لا يدعو إلى الغرابــة. ذلك بالرغم من تراجــع دورهم هذا بشكل ملحوظ أيام المرابطين الذين توسعوا حتى إفريقيــا خاصة بعد أن احتكروا هذا القطاع وأظهروا مدى مقدرتهم على التحكم فيه، بفضل أصولهم الصحراوية وقوتهم السياسية والتنظيمية، خاصة بعد أن طردوا من معظم مراكــز الذهب التجاريــة الحساســة بالصحراء، نظرا للتشدد المرابطي الديني، و عــدم ثقتهــم فيهــم[3].

و مما تجدر الإشارة إليه، حصول يوسف ابن تاشفين عام 464 هـــ/1071 م، من يهود مراكش و وهران و تلمسان و تنس، على مائة ألف 100.000 دينار ذهبي لمحاربة مسيحيي إسبانيــا[4]. وخلاصة القول أنــه بالرغم من سوء العلاقة بين اليهود و المرابطين و بالرغم من الدور الكبيــر الذي لعبه اليهود في تجــارة الذهب، لا يمكنني التسليم بفول كل من AYOUN و COHEN اللذان ذهبا إلى أبعد ما تفسره حقيقة الوجود اليهودي في المغرب الإسلامي و طبيعة علاقاتهم بمعدن ذهب السودان الغربي و الذي يشير إلى أن أسباب انهيار اقتصاد المغرب الإسلامي يعود إلى تعصب سياسة كل من المرابطين و الموحدين تجاه اليهود [5] دون الأخذ بعين الاعتبار حقيقة تاريخ هذا العنصر منذ أن وطأت أقدامه أرض المغرب.

---

1. أنظر : NACIB (Y.), « Cultures Oasiennes », p.200.
2. سعد الله (فوزي) "يهود الجزائر"، ص75.
3. نفسه، ص73
4. AYOUN (R.) « Les Juifs d'Algérie », p.69.
5. Ibid, p.71

الخاتمـــــــــــــة

من خلال ما سبق دراستـــه يتضح أن الذهب كان يشكل إحدى البضائع التي زخرت بها أسواق المغرب الإسلامي في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث و الخامس الهجري، الموافق للتاسع و الحادي عشر ميلادي. هذه الفتـــرة التي يمكنني القول عنها أنها فترة العصر الذهبي، لما حققته تجارة الذهب من توسع و ازدهار ناهيـــك عن اهتمام الحكام بها، إضافة إلى كون هذه التجارة استطاعت أن تتجاوز كل الصراعات و الخلافـــات التي عرفتها دول المغرب سواء من أجل الاستحواذ على مسالك تجارة هذا المعدن، أو من أجل تحقيق أغراض أيديولوجية و سياسة، بدليل عدم تسجيل أي توقف عن استمراريتها. فانتقال مركز التجارة من الشرق إلى الغرب، لدليل على الرغبة في الحفاظ عليها ودوام نشاطها. وانتقال سجلماسة من سلطة بني مدرار إلى الفاطميين ثم المرابطين، لبرهان آخر على أهميـــة هذا المركز التجاري الذي شكل أهم بوابات السودان على طول الطريق الغربي الذي ربط سجلماسة بغانـــة. و لن أبالغ إذا قلت أن تجارة الذهب هذه، استطاعت أن تخلق وحدة اقتصاديـــة بين شعوب المغرب و السودان الغربي، بل حتى بين المغـــرب و الشـــرق و الأندلـــس.

هذه الوحدة التي حققتها إرادة الجماعات التي تنقلت عبر مفـــازات الصحراء، والتي عرفت كيف تخضع لإرادتها الصحراء و ما تحتويه، بشق الطرقات و حفر الآبار و معرفة تقلبات الجو و الزوابع الرملية، و الاهتمام بالجمل الذي شكل الضمانة الأساسية لهذه التجارة العابرة للصحراء الكبرى.

و لا غرابة إذا اعتبر العامل الديني و المادي هما المحركان الأساسيان لهذه الإرادة الجماعية، و التي كانت من أجل استكمال الدعوة الإسلامية و الاستحواذ على معدن الذهب، و بالتحديد في هذه الفترة التي كان فيها العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى ثروة الذهب، لفرض سيادته وبسط نفوذه عبر القارات و المحيطات.

و كانت كميات الذهب التي جلبها التجار المسلمون من السودان الغربي مؤشرا حقيقيا لمستقبل الاستعمار في أفريقيـــا. فاستجابة ذهب السودان لتحقيق مطالب حكام المغرب وقرطبة و بغداد في ضرب الدينار الذهبي، كان عاملا آثار رغبة العديد من الأنظمة غير الإسلامية كالغرب المسيحي الذي حاول مرارا كيف يسترجع عملته الذهبية التي فقدها منذ القرن التاسع للميلاد، أمام قوة المسلمين العسكرية، التي رهنت قدراتها بالقدرات الاقتصادية هذه التي تمثلت في ثروة سمحت لها أن تحمي المغرب الإسلامي لفترة زمنية طويلة. و بدت هذه القوة أيام المرابطين واضحة المعالم، خاصة لما حققوه من انتصارات في معركة زلاقة، على القوى المسيحية التي حاولت مرارا استرجاع مكانتها الاقتصادية، للاستحواذ على مرافئ في بحر الروم الذي كان مجالا تنقل فيه ذهب السودان بشكل يثير الدهشة و الإعجاب. كما استطاعت ثروة السودان الغربي، المتمثلة في الذهب، أن تجعل من ممالك السودان الغربي قوة عسكرية لا يستهان بها. فاستمرار حكم سلطة غانة من القرن الثالث إلى غايـــة القرن الحادي عشر، دليل على الدور الذي لعبه معدن الذهب في تثبيت سلطتهم، و قـــوة منافستهم للجيران الذين حاولوا مرارا الاستيـــلاء على مناجم الذهب. وبفضل ذهب السودان شكلت القافلة التنظيم البشرى الذي عرف كيف يخلق انسجاما في العمل و وحدة في التفكير، تاركا وراءه كل النزاعـــات المذهبية و الاختلافـــات الجنسية والجهويـــة. فلم يكن تجار البصرة و الكوفـــة بغربـــاء في سجلماسة، كما لم يكن تجار تاهرت وتلمسان و ورقلة بالغرباء في جاو. و ما مشاركـــة اليهود لهذه الفرق من التجـــار في رحلتهم، سوى دليلا على مدى قوة الانسجام الذي عرفتـــه " قافلة الذهب ". و من جهة أخرى أكدت مشاركة التجار اليهود في هذه التجارة على اهتمامهم المبكر بمعدن الذهب و المناطق المنتجة له.

و بهذا الشكل يمكن لهذه الدراسة أن تكون نافذة علمية فتحتها على موضوع ما زالت آفاق دراسته بعيدة و أهميته أكبر. لأنني لم أقدم سوى لمحة وجيزة عن هذا الموضوع، الذي حاولت فيه الإلمام بالعناصر المشكلة له، التي بإمكانها أن تحفز في المستقبل على إنجاز أبحاث علمية أكاديميـــة في مستوى الدراسات العليا. و من أمثلة هذه المواضيع : موضوع الذهب و البحـــر الأبيض المتوســـط، خاصة و أنني تفاديت موضـــوع تجـــارة الذهب و الأندلس، ليس من باب الإهمال أو التقصيـــر و لكن لشســـاعة هذا الموضوع و لكونـــه يكتسي أهميـــة تاريخيـــة بالغـــة.

و إذا حاولت أن أوضح أكثر هذه الفكرة، أقول أنه من الضروري مواصلة هذه الدراسة و البحث في مواضيعه، من خلال طرح عدة إشكاليات، و من أهمها كيف استمر وصول معدن ذهب السودان إلى البحـــر المتوسط دون اجتياز أقطار المغـــرب ؟ هل هذا يعود فعلا إلى تقلص نشـــاط اليهود التجـــاري في هذه الأقطار، خاصة بعد هجرتهم لأكبر مدن المغرب، كفاس وتاهرت و القيروان وغيرها، بسبب ما تعرضوا له من محن أيـــام المرابطين و الموحدين، أم لأن هناك وضع أخر تمثل في عدم رغبة اليهود في البقاء، بإيجادهم لبديل أحسن تمثل في مدن إيطاليا التي أصبحت تستقطب ذهب السودان عن طريق المحيط الأطلسي. و ما هو الدور الذي لعبه اليهود في تحريف طريق الذهب عبر المحيط الأطلسي، وما مدى مساعدتهم للبرتغاليين في اكتشاف ساحل غينيا لاستغلال الذهب و استمالة الأفارقة لصالحهم. و لماذا لم ينجح المسلمون في الاحتفاظ بهذه الثروة لصالحهم و لصالح خدمة مصالحهم داخل القارة الأفريقيـــة. أم لان تذوق الأفارقة للنمط الغربي دفعهم إلى تقبل عرض المسيحية دون الإسلام. و لما لا أقول أن التاجر الذي لعب دور الداعي، حدد مهامه بمجرد الحصول على الذهب الذي كان من اجله يجتاز الصحراء و يتحدى مخاطرها. أم أن هناك عدة مشاكل حساسة دفعت بالمغرب الإسلامي إلى أن ينهار بعيدا عن اختفاء معدن الذهب من أسواقه و من مراكز ضرب عملته.

رغم كل هذا تبقى فترة القرن الثالث و الخامس الهجري من أزهى فترات ازدهار تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي و السودان الغربي، باستيراد كميات كبيرة من الذهب إلى المغرب، و التي عادت بالفائدة الكبرى على دور ضرب العملة المغربية. فعالمية وجودة ذهب السودان الغربي جعلت من المغرب المستفيد الأول، وجسرا للعبور إلى بقية مناطق العالم الأخرى كالأندلس، المشرق و العالم الغربي. و يكفي لذهب السودان فضلا فيما حققه الدينار المرابطي من شهرة، و ما حققه المعز لدين الله الفاطمي من انتصار ببناء القاهرة، الذي لولا ذهب السودان الغربي، ما كان له أن يحقق حلمه و حلم أجداده و هو قهر أعدائهم العباسيين باستقرار دولة الفاطميين بمصر.

ثبـــت بالمصـــادر و المراجـــع

المصادر و المراجع العربية

أ. المصادر العربية

1. الإدريسي (أبو عبيد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروع بالشريف الإدريسي)، " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الأول، ط.1، بيروت، عالم الكتب، 1409 هـ/1989 م.
2. ابن أبي زرع، ' "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و مدينة فأس"، بدون سنة و دار الطبع.
3. ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني)، "مختصر كتاب البلدان"، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، سنة 1302.
4. ابن بطوطة (محمد ابن عبد الله)، "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار"، المكتبة التجارية، بدون سنة الطبع، ص 141.
5. ابن حوقل (أبو القاسم محمد ابن العلي الموصلي)، توفي 367 هـ/977م "صورة الأرض"، بيروت، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون سنة الطبع.
6. ابن خرداذبة (ابن القاسم عبيد الله)، " المسالك و الممالك"، ط.1، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/1988.
7. ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)، "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ط1، ج.1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1996.
8. ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى)، "كتاب الجغرافيا"، تحقيق إسماعيل العربي، ط.2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

9. ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي)، " البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب"، ج.1-4 ، ط.5، تحقيق إحسان عبد القدوس، بيروت، لبنان، دار الثقافة، 1414هـ/1998 م.

10. البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي)، " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ/1987م.

11. البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، " المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب -جزء من كتاب المسالك و الممالك-"، باريس، نشر ديكين دو سلان، 1965.

12. البلاذري (أحمد ابن يحي جابر)، "فتوح البلدان"، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1956، ص . 268.

13. الحموي (ياقوت)،" معجم البلدان "، ....

14. الحميري (محمد ابن عبد المنعم)، " الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق د. إحسان عباس، ط.2، لبنان، مكتبة لبنان، 1984.

15. الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة)،" نخبة الدهر في عجائب البر و البحر"، ط.2، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1419 هـ/ 1998م.

16. الرعيني القيرواني (محمد ابن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار)، " المؤنس في أخبار إفريقية وتونس"، ط.3، بيروت، لبنان، دار المسيرة للصحافة و الطباعة و النشر، 1993.

17. الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)،" كتاب الجغرافيا"، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1990.

18. عماد الدين (إدريس الداعي) توفى سنة 872 هـ/1488 م، " عيون الأخبار "،الجزء الخاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد اليعلاوي، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1985.

19. القاضي (النعمان بن محمد)، " كتاب افتتاح الدعوة" تم تأليفه سنة 346هـ/957م، تحقيق فرحات الدشراري، ط.2، تونس- الشركة التونسية للتوزيع، و الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.

20. المغيلي، " مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986.

21. اليعقوبي (أحمد ابن أبي يعقوب بن واضح)، "كتاب البلدان"، السلسلة الجغرافية، ط.1،دار إحياء التراث العربي، 1408هـ/1988 م.

ب. المصـــــادر الفقهيـــة

1. ابن رشد، "فتاوى ابن رشد"، جمع و تعليق مختار بن طاهر التليلي ، السفر الأول، ط.1، بيروت، دار الطبع الإسلامي، 1987.
2. الغزالي (محمد)، " فقه السيرة"، الجزائر، بور سعيد، مكتبة رحاب، 1989.
3. الونشريسي، " المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتـاوى علمـاء إفريقيا و الأندلس والمغرب"، ج.6، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401 هـ/1981م.
4. القرطبي ، " جامع الأحكام الفقهية "، جمع و تصنيف فريد عبد العزيز الجندي، ج.1، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1994.

ت. المراجـــع الحديثـــة

1. أبو مصطفى (كمال)، " جوانب من حضارة المغرب الإسلامي -من خلال نوازل الونشريسي- " الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998.
2. أحمد باي (حسين)، "سلع التجارة الصحراوية — الصحراء الكبرى"، إعداد عماد الدين غانم، ليبيا، طرابلس، 1979.
3. أحمد علي " اليهود في الأندلس و المغرب خلال العصور الوسطى"، .
4. أحمد موسى (عز الدين)، "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي -خلال القرن السادس الهجري-"، ط.1، بيروت، دار الشروق، 1403هـ/1983م.
5. ابن قربة (صالح)، " المسكوكات المغربيـــة - من الفتح الإسلامي إلى سقـــوط دولة بني حمـــاد-"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
6. ابن مهنأ (آل علي محمد)، " أصالة الإسلام في مواجهة التحدي الفكري"، ط.1، الرياض، دار المؤيد، 1998.
7. اسماعيل (العربي)، " الصحراء الكبرى و شواطئها"، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
8. باشا (نجاة)، " التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى التامن هـــ"، تونس، منشورات الجامعة التونسية، كلية العلوم الإنسانية، 1976.
9. بحاز (ابراهيم كبير)، " الدولة الرستمية 160-296 هـــ/777-909 م"، دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الفكرية، ط.1، الجزائر، مطبعة لافوميك، 1985.
10. بوفيل، " تجارة الذهب و سكان المغرب الكبير"، ط.2، ترجمة د. الهادي أبو لقمة و د. محمد عزيز، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1988.
11. التميمي (عبد الملك خلف)، " الخليج العربي و المغرب العربي -دراســـات في التاريخ السياسي و الاجتماعـــي والاقتصادي-"، ط.1، بيروت، دار الشباب للنشر، 1986.
12. جرجي (زيدان)، " تاريخ التمدن الإسلامي"، ج.1، بيروت، دار الهلال، بدون سنة الطبع.
13. الجنحاني (حبيب)، " القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي"، الدار التونسية للنشر، 1968.

28. ربيب (نجيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس"، تقديم أحمد بن سودة، ط.1، بيروت، لبنان، دار الأمير للثقافة و العلوم، 1995.
29. زبادية (عبد القادر)، "الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء"، -دراسات و نصوص-، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.
30. زبادية (عبد القادر)، "مملكة سونقاي في عهد الأسيقيين – 1493-1591"، الجزائر، الشركة الوطنية للتوزيع.
31. ساقان، (كارل)، "الكون"، ترجمة نافع أيوب، الكويت، سلسلة علم الفلك، 1993.
32. سالم (عبد العزيز)، دكتور، " المغرب الكبير – دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية "، 4 أجزاء، الجزء 2 الخاص بالعصر الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.
33. سعد زغلول (عبد الحميد)، " تاريخ المغرب الكبير"، ط.1، أج.1-4، من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، تونس، الجزائر و المغرب)، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1995.
34. سلطان (عبد المنعم)، " الأسواق في العصر الفاطمي"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1997.
35. شاوش (الحاج محمد بن رمضان)، " باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
36. شعيرة (محمد عبد الهادي)، " المرابطون – تاريخهم السياسي-"، ط.1، القاهرة، مكتبة القاهرة، 1969.
37. شلبي (أحمد)، " موسوعة التاريخ الإسلامي"، ج.6، ط.2، مكتبة النهضة المصرية، 1990.
38. شنوف (عيسى)، " يهود الجزائر – 2000 سنة من الوجود-"، الجزائر، دار المعرفة، (بلا سنة الطبع).
39. شيريب (سبيريدوفيتش)، " حكومة العالم الخفية"، (ت: مأمون سعيد)، الجزائر، قصر الكتب، مطبعة اللغتين (بدون سنة الطبع).
40. عاشور (سعيد عبد الفتاح)، "دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية"، سعيد عبد الفتاح عاشور، سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادي، الكويت، منشورات دار السلاسل ، 1405 هـ/1985 م.
41. العبادي (أحمد مختار)، " دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس"، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر و التوزيع.

14. الجندي (عبد الحليم)، " الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي"، القاهرة، دار المعارف، 1997.
15. جودت (عبد الكريم يوسف)، " الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 هـ/9 و 10 م "، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
16. جوزيف (جوان)،" الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء"، ط.1، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، 1984.
17. حركات (ابراهيم)، " النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط"، الدار البيضاء - المغرب، 1996.
18. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ط.2، مكتبة النهضة المصرية، 1963.
19. حسن (إبراهيم حسن)، " انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى"، قسم الدراسات التاريخية و الجغرافية، 1957، (بدون مركز الطبع).
20. حسن (إبراهيم حسن)، " تاريخ الإسلام"، ط.4، بيروت، لبنان، دار الجيل - القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1996.
21. حسن (علي حسن)، " الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس — عصر المرابطين و الموحدين- "، ط.1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1990.
22. حسن محمود (أحمد)، "تاريخ المغرب و الأندلس"، حسن محمود (أحمد) و حسن محمود(منى)، ط.1، القاهرة، 1419ه /1999م.
23. الخالدي (صلاح عبد الفتاح)، " الشخصية اليهودية من خلال القرآن- تاريخ و سمات ومصير- "، ط.1، الجزائر، شركة الشهاب، 1407هـ/1987 م.
24. خان (ظفر الإسلام)، " التلمود تاريخه و تعاليمه"، ط.7، بيروت، دار النقاش، 1410 هـ/ 1998.
25. الخطيب (عبد القادر)، " دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية"، جامعة الأزهر، مطبعة الحسين الإسلامية، 1991.
26. الدشراوي (فرحات)، " الخلافة الفاطمية بالمغرب"، ت. حماد الساحلي، ط.1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1994.
27. دنيز (بولم)، " الحضارات الإفريقية"، ط.2، ترجمة نسيم نصر، بيروت و باريس، منشورات عويدات، 1982.

42. عطون (مروان)، " أزمات الذهب في العلاقات النقدية الدولية"، الجزائر، دار الهدى، (بدون تاريخ).
43. الغنيمي (عبد الفتاح مقلد)، "موسوعة المغرب العربي"، المجلد الأول، ط.1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1414 هـ/1994 م.
44. فيلالي (عبد العزيز)، " العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب" الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982.
45. لقبال (موسى)، دكتور، " المغرب الإسلامي "، ط.2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.
46. لقبال (موسى)، دكتور، " دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية – منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)"، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، سلسلة الدراسات الكبرى، 1979.
47. لومبار (موريس)، " الإسلام في مجده الأول"، ت. إسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل – المغرب، دار الأفاق الجديدة. بدون سنة الطبع.
48. مؤنس (حسين)، " تاريخ المغرب و حضارته "، المجلد الأول، ج.1، ط.1، العصر الحديث للنشر و التوزيع، 1412هـ/1990 م.
49. مؤنس (حسين)، " معالم تاريخ المغرب و الأندلس"، ط.1، القاهرة، دار و مطابع المستقبل 1980.
50. مؤنس (حسين)، "الإسلام الفاتح"، ط.1، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1408 هـ/1987م.
51. مارسيه (جورج)، " بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى"، مراجعة أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف الإسكندرية، بدون سنة الطبع.
52. محمود (حسن أحمد)، "قيام دولة المرابطين"، ط.2، دار الكتاب الحديث، 1996.
53. محمود (محمد عبد العزيز)، " الجمل العربي"، ط.1، الإسكندرية، مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية، 1999.
54. محمود السيد، "تاريخ دولة المرابطين و الموحدين"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1999.

55. مرمول (محمد الصالح)، دكتور، " السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي"، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

56. المسيري (عبد الوهاب)، " موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية"، ج.2، 3 و 4، بيروت، دار الشروق، 1999.

57. نجيب (زبيب)، "الموسوعة العامة لتاريخ المغرب و الأندلس "، (تحقيق أحمد بن سودة)، ط1، بيروت، لبنان، دار الامير للثقافة والعلوم، 1995.

58. نقولا (زيادة)، " الحسبة و المحتسبة في الإسلام"، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1963.

59. نلّينو (السنيور كرلو)، " علم الفلك – تاريخه عند العرب في القرون الوسطى-"، روما، 1911.

ث. الموسوعـــات :

1. أبو الحسن (ابن علي الحكيم)، " الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة"، (تحقيق، حسين مؤنس، مدريد)، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1960.

2. أبو الحسن (أحمد بن فارس بن زكريا)، " معجم مقاييس اللغة"، (تحقيق عبد السلام محمد هارون)، المجلد الخامس، ط.1، بيروت، دار الجيل، 1991.

3. أبي الفيض (محب الدين السيد مرتض الحسين الواسطي الزبيدي الحنفي)، " تاج العروس من جواهر القاموس"، المجلد الخامس عشر، دار الفكر للطباعة و النشر.

4. ابن منظور، لسان العرب"، المجلد الأول و الثالث، دار الجيل و دار لسان العرب، 1408 هـــ/ 1988م.

5. البستاني (بطرس)، "دائرة المعارف"،

6. شيخاني (سمير). "الموسوعة العالمية"، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1994.

ج. المقـــــالات :

1. إسماعيل (العربي)، " العمران و النشاط الاقتصادي في الجزائر _ في عصر بني حماد-" " مجلة الأصالة"، السنة الرابعة، مارس - أفريل 1974.
2. الأمين (عوض الله)، " تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي"، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404ه/ 1984 م.
3. ابن قربة (صالح)، "انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى"، في "سلسلة الندوات والمناظرات"، رقم 48، الرباط، منشورات كلية العلوم الإنسانية.
4. ابن عزوز (فريدة)، " قراءة في أبحاث تاديوش لويتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب و بلاد السودان"، كلية الآداب، تيطوان، المغرب.
5. بوعزيز (يحيى)، "طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر"، مجلة الثقافة، السنة العاشرة، العدد 59، شوال سبتمبر .
6. زنيبر (محمد)، " تجارة القوافل في المغرب "، في " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404ه/ 1984 م.
7. فخار (إبراهيم)، دكتور " تجارة القوافل في العصر الوسيط و دور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى"، في " تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، إصدار المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404ه/ 1984 م
8. الكعبي (المنجي)، "أسباب توطيد الإسلام بإفريقيا و المغرب"، في "مجلة الثقافة"، السنة الرابعة عشرة، العدد 84، 1984.
9. لومبار موريس، " الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية "، في "بحوث في التاريخ الإقتصادي"، (ترجمة اسكندر توفيق)، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1961.

ح. الرسائـــــــــل :

1. ابن ديب (عيسى)، " التجارة في عصر الدولة المرابطية" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1411 هـ/1990 م.
2. جودت (عبد الكريم)، " العلاقات الخارجي للدولة الرستمية"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، وزارة التعليم العالي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة التاريخ، 1978.
3. حملاوي (علي)، " قصور مدينة جبل عمور — من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الهجري – 16-19 م، دراسة تاريخية و أثرية"، بحث لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ.
4. شنايت، " دولة بني مدرار –سجلماسة و دور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري–"، رسالة ماجستير، 1990/1991م.
5. كواتي (مسعود)،" اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين"، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1411-1412هـ/1990-1991م.
6. مختار (حساني)، " الصراع بين الأمويين و الفاطميين على السيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن العاشر ميلادي، الرابع هجري"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الإسلامي، وزارة التعليم العالي، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية و الآثار، السنة 77/1978.

المراجـــع الأجنبيـــــة

أ. الكتب

1. ABITBOL (MICHEL), « COMMUNAUTÉS JUIVES DES MARGES SAHARIENNES DU MAGHREB », JÉRUSALEM, 1982.

2. AYOUN (Richard), " Les Juifs d'Algérie – Deux mille ans d'histoire- », AYOUN (Richard) et Bernard (Cohen), éd. RAHMA, 1994.

3. BATHILY (Abdoulaye), « Les portes de l'or – Le Royaume de Galan Sénégal de l'ère musulmane au temps de négeriens XIII^{e} – XVIII^{e} siècle», Paris, L'Harmattan, 1989.

4. BENSLIMANE (JOUDIA HASSAR), « SIDJILMASA, DU MYTHE À LA RÉALITÉ – ARCHÉOLOGIE- HISTOIRE DU SAHARA ET SES RELATIONS ... », P.26.

5. BRAUDEL (FERNAND), « LA MÉDITERRANÉE ET LE MONDE MÉDITERRANÉEN À L'ÉPOQUE DE PHILIPE II », TOME.I, PARIS, ARMAND COLIN, 1932.

6. BRIGOLE (MADELEINE ROUVILLOI), « LE PAYS DE OUARGLA », PARIS, 1975, P.2.

7. CAHEN (Claude), « Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale », Institut français de Damas, éd. D'Amérique et d'Orient.

8. CAPOT (R.), « Nomades et Nomadisme au Sahara – Recherches sur la zone aride -», UNESCO, 1963.

9. CHOURAQUI (André), « Histoire des Juifs en Afrique du Nord en Exil du Magreb »,T.1, Éd. Rocher, 1998.

10. CHOURAQUI (André), « Marche vers l'occident – Les Juifs d'Afrique du Nord», Presse Universitaire de France, 1952.

11. CISSÉ (Daniel Amara), « Histoire économique de l'Afrique Noire – économies et sociétés médiévales de l'Afrique Noire Subsaharienne de 622 à 1794), T.III, Le moyen âge, Paris, L'Harmattan, 1988.

12. CISSOKO (Sékéné Mody), « Histoire de l'Afrique occidentale – moyen âge et temps modernes XIIe à 1850- », Paris, Présence africaine, 1966.

13. COHEN (M.), « La Civilisation Musulmane du IX^{e} au XI^{e} siècle ....

14. DAVIDSON (BQSIL), « THE GROWTH OF AFRICAN CIVILISATION » ....

15. DELAFOSSE (Maurice), « Les civilisations disparues - Les civilisations Negro-Africaines », Paris, Librairie Stock,1925.

16. DEVISE (R.) « Tegdaoust – Recherches sur Audaghust- », T.1, par DEVISE (R.), SERGE (R.) et DEVISSE (J.), Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1970.

17. DEVISSE (JEAN), « LE BASSIN DES VALLÉES DU NIGER – CHRONOLOGIE ET ESPACE », , PARIS, BIBLIOTHÈQUE DE L'ÉCOLE DES HAUTES ÉTUDES EN SCIENCES SOCIALES.

18. DIADIÉ (H.I.), « L'ESPAGNE MUSULMANE ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE », ED. DONNIYA, BAMAKO, 1997

19. EL-FASI, « Histoire générale de l'Afrique » T. III. l'Afrique du VIIè au XIè siècle, comité scientifique international pour la rédaction d'une histoire générale de l'Afrique, sous la direction de M. El-Fasi, co-directeur I.Hrbek, Paris, Edicef/UNESCO, 1997.

20. FAGE (J.D.), « A HISTORY OF WEST AFRICA », DAMAS, 1977 – CAMBRIDGE, 1969.

21. FEVBRE (L.), « MAHOMET ET CHARLEMAGNE », A.H.E.S, AVRIL, LIBRAIRIE ARMAND COLIN, 1948.

22. FONDS (E. Terray), « Histoire de l'Afrique occidentale -- Moyen âge et temps modernes VIII siècle à 1850 », Centre d'Etudes Africaines, Fresence.

23. GAUDIO (Attilio), « Les Civilisations du Sahara », Marabout université, Éditions Gérard & Cie, Verviers. 1967.

24. GAUDIO (Attilio), « Le dossier de la Mauritanie », Paris, Nouvelles éditions latines, 1978.

25. GENET (Jean-Philippe), « Le monde au moyen Age -- Espace - pouvoirs – civilisations », Paris, éditions Hachette, 1991.

26. GHALI (Brahim Amin), « Le monde arabe et les Juifs », éd. Cujas, 1972.

27. GIRI (Jacques), « Histoire économique du Sahel », Paris, Karthala, 1994.

28. GOLDENBERG (André), « Les Juifs du Maroc », Paris, éd. Scribe, 1992.

29. GOLVIN (L.), « Le Magrib central à l'époque des Zirides - Recherches d'archéologie et d'histoire –», Paris, Art et Métiers Graphiques, 1957.

30. HAÏDARA (ISMAËL DIADIÉ), « L'ESPAGNE MUSULMANE ET L'AFRIQUE SUBSAHARIENNE », BAMAKO, ÉDITIONS DONNIYA, 1997.

31. HEYD (W.), « L'HISTOIRE DU COMMERCE – DU LEVANT AU MOYEN ÂGE – », 3È ÉD. LEIPZIG, 1986.

32. HOPKINS (A.G.), « An economic history of west Africa », London, Longman, 1973.

33. HUGOT (H.J.), « Le Sahara avant le désert », édition des Hépérides,1974.

34. JOLLY (Jean), « Histoire du continent africain de la préhistoire à 1600 », t.1, Paris, L'Harmattan, 1996.

35. KELLER (W.), « Vingt siècles d'histoire du peuple juif « , France, Arthaud, 1971.

36. KIÉTHÉGA (Jean Baptiste), « L'Or de la Volta Noire », Paris, éd. Karthala et Centre de recherches africaines, 1983,

37. LAAROUI (Abdellah), « L'histoire du Maghreb – un essai de synthèse», Paris, Librairie François Maspero, 1970.

38. LACOURT (Jacques Gayet), « L'histoire du commerce » T.3, Paris, éditions Spid, 1903.

39. LAGARDERE (VINCENT), « LES ALMORAVIDES JUSQU'AU RÈGNE DE YUSUF B. TACHFIN 1034-1106 », L'HARMATTAN, PARIS.

40. LAUNAY (L.), « L'Or dans le monde –Géologie – Extraction – Économie politique-», Paris, Librairie Armand Colin, 1907.

41. LAVOIX (Henri), « Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris – Espagne et Afrique », Paris, 1891.

42. LEPIDI (Jules), « L'OR », Paris, 6ème éd, Que sais je ?, Presse Universitaire de France, 1997.

43. LETHIELLEUX (Jean), « Ouargla cité saharienne – des origines au début du XXe siècle-», Librairie orientaliste Paul Geuthner, SA, 1984.

44. LEWICKI (Tadeusz), « Études maghrébines et soudanaises», Varsovie, Éditions Scientifiques de Pologne, 1996.

45. LEWIS (Bernard), « The Jews of Islam », Princeton University Press, 1984.

46. LHOTE (Henri), « « Le Hoggar espace et temps », Paris, Armand Colin, 1984.

47. LOMBARD (Maurice), « Espaces et réseaux du haut moyen âge », Paris,1972

48. LOMBARD (Maurice), « L'Islam dans sa première grandeur – XIIIe au XIe siècle- », dirigé par Fernand Braudel, Paris, Ed. Flammarion, 1971.

49. LOMBARD (Maurice), « Les métaux dans l'ancien monde du Ve au XIe siècle », Paris, études économiques médiévales, Mouton et Cie, 1974.

50. MADELEINE Rouvillois Brigol « Le pays de Ouargla –Sahara algérien-», Paris, 1975.

51. MAUNY (Raymond), « Les siècles obscurs de l'Afrique Noire », librairie Arlème Fayard, 1970.

52. MAUNY (Raymond), « Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », mémoires IFAN, n° 61, Dakar IFAN, 1961.

53. MEUNIÉ (Jacques D.), « Le Maroc saharien des origines au XVIe siècle », Librairie Klincksiek, 1982.

54. MEYER (Laure), « Les Métaux précieux dans l'art d'Afrique noire », Paris, Ed. Sépia, 1997.

55. NECIB (Youcef), « Cultures Oasiennes – Bou-sâada-, essai d'histoire sociale, Belgique, Publi sud, 1986.

56. OLIEL «(Jacob), « Chronique des Juifs du Touat – du Premier siècle à 1492 », Paris, 1990.

57. PEYRONNET (GEORGE), « L'ISLAM ET LA CIVILISATION ISLAMIQUE VII-XII È SIÈCLE », PARIS, ARMAND COLIN, 1991.

58. PIRENNE (Henri), « Mohamed et Charlemagne », Paris, Quadrige, Presse universitaire de France, 1970.

59. POSNANSKY (MERRICK), « THE ORIGINS OF WEST AFRICAN TRADE », GHANA UNIVERSITY PRESS, ACCRA TEMA GHANA, 1971.

60. ROMEY (ALAIN), « HISTOIRE – MÉMOIRE ET SOCIÉTÉ- EXEMPLE DE N'GOUSSA : OASIS BÉRBÉROPHONE DU SAHARA », L'HARMATTAN, AWAL, PARIS-ALGER, 1992, P.22.

61. ROMEY (Alain), « Mémoire et société
62. SÉROUSSI (Roland), « L'histoire de l'Or », Paris, éditions France-Empire, 1998.

63. TAMSU (Niane Djibril), «Le Soudan occidental au temps des grands empires XIe - XVIe siècle», Paris, présence africaine, 1975.

64. TERRASSE (Henri), « Histoire du Maroc », Casablanca, Atlantides, 1952.

65. TRIAUD (Jean-Louis), « Islam et sociétés soudanaises du moyen âge », études historiques, Paris, Collège de France, Recherches Voltaïques, 1973.

66. ZEFRANI (Haim), « Deux mille ans de vie Juive au Maroc », histoire et culture, religion et magie, Paris, Maisonneuve et Larose, 1998.

67. ZEFRANI (Haim), « Juifs d'Andalousie et du Maghreb», Maisonneuve et Larose, 1996.

68. ZEFRANI (HAIM), « ARTISANAT DES MÉTAUX PRÉCIEUX ET PROBLÈMES MONÉTAIRES DANS LES DÉCISIONS DES TRIBUNAUX RABBINIQUES DE FÈS DU 17E AU 18E SIÈCLES. IN « LES JUIFS ET L'ÉCONOMIE », TEXTES RÉUNIS PAR CHANTAL BEN AYOUN -ALAIN MEDAN -PIERRES JACQUES ROJMAN, TOULOUSE, PRESSE UNIVERSITAIRE DU MURAIL,1992.

ب. الموسوعات

1. Dictionnaire Historique de l'Islam, Presses universitaires de France, 1996.
2. Encarta 2000, CD-ROM.
3. Encyclopédie de l'Islam, tome IV, librairie Clincksieck, Paris, 1934.
4. Grand Larousse encyclopédique, T.7, Librairie Larousse, Moreau 1963.

ت. الرسائل

1. BENHSAIN (Mesmoudi Rajae), « Approche quantitative de l'Or monnayé en occident Musulman (450/83) à (1058-59/1426-27)», Tome 1, thèse du nouveau doctorat, sous la direction de Mr Jean Devisse, Université de Paris, Panthéon Sorbonne UFR, 09, Paris, 1994.

2. ASHBY (Marianne Johnson), « Black Gold Smiths Jewelry and women in Senegal » The requirement for the degree of doctor of philosophy in African art », volume 1, studies of Stanford university, March, 1980.

ث. المقـــالات

1. « LES MÉMOIRES DE L'AFRIQUE DES ORIGINES À NOS JOURS », PARIS, ÉD. ROBERT LAFFONT, 1972.

2. CHATER (Khelifa), « Le commerce caravanier au Maghreb et ses mutations au cours de l'ère pré-coloniale », in « The Maghreb revue », année 1987, may – august, vol, 12, 3-4.

3. DELAFOSSE (M.), « Les Relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges », in Hesperis, Archives Berbères et Bulletins de l'Institut des Hautes Études Marocaines, 2° Tri. Paris, Émile Larose, 1994.

4. DEVISSE (Jean), « Sidjilmasa », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain – du moyen âge à l'époque coloniale -», actes du IVe colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986.

5. DEVISSE (Jean), Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. in « Revue d'Histoire économique et sociale », n° 01 et 03. Un essai sur le commerce médiéval du XIe au XVIe siècle. Paris, Centre National de la Recherche Scientifique, Marcel Rivière & Cie, 1972.

6. LEWICKI (Tadeusz), « Le rôle du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », in « Histoire Générale de l'Afrique », vol. 3, L'Afrique du VIIe au XIe siècle, Edicef, UNESCO, 1997.

7. LOMBARD (Maurice), « Les bases monétaires d'une suprématie économique- L'Or musulman du VIIe au XIe siècle », in « Anales : économies – sociétés – civilisations », 2ème Année, avril – juin 1974, n° 2, Librairie Armand Colin.

8. MARCAIS (G.), « L'Urbanisme Musulman », in «Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'occident musulman», T.1, Alger, 1957.

9. MAUNY (Raymond), « Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique Occidentale » in « Bulletin de l'Institut français d'Afrique Noire », T.XI, n° 3-4, juillet-octobre 1949.

10. OULD BAH (ABDELLAHI), « LES VILLES ANCIENNES DE MAURITANIE ET LEURS RAPPORTS AVEC LE COMMERCE AU MOYEN ÂGE » IN « HISTOIRE DU SAHARA ET SES RELATIONS TRANSSAHARIENNES ENTRE LE MAGHREB ET L'OUEST AFRICAIN», ACTES DU IVE COLLOQUE EURO-AFRICAIN, ERFOUD (MAROC), DU 20 AU 25 OCT. 1985, BERGAMO, ITALIA, 1986, P.117.

11. SIDIBÉ (Samuel), « Es-Souk l'ancienne Tademka », in « L'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain – du moyen âge à l'époque coloniale -», actes du IVe colloque Euro-Africain, Erfoud (Maroc), du 20 au 25 oct. 1985, Bergamo, Italia, 1986.

-أ-

-ب-

-ت-

فهرس القبائل والجماعات و الشعوب و الممالك

ملاحظة : يسقط من هذا الفهرس شعوب السودان، سكان المغرب، البربر، المرابطون والفاطميون لكثرة ترددها في الرسالة.

-ص-

-ع-

-ف-

-ل-

-م-

فهرس الأماكن و البلدان

يستثنى من هذا الفهرس مصطلح : السودان، المغرب، غانة، المغرب الأقصى، إفريقيا، تاهرت، لكثرة ورودها في نص الرسالة.

-أ-

-ب-

-ق-

-ك-

-ل-

-م-

-ن-

-و-

الملاحـــــــــق

DÉFINITIONS RELIGIEUSES DES HEURES DE PRIÈRES :

1. **Début et fin du moment de la prière du midi (El-dohr ou El-Zaouel) :**

Cet instant commence au moment où l'ombre d'un objet disposé verticalement par rapport au sol passe par le méridien du lieu et se termine au moment où cet ombre coïncide avec sa longueur (appelée première ombre) et cela après avoir écarté la longueur de l'ombre avec laquelle l'objet en question avait au moment de passage au méridien du lieu.

2. **Début du moment de la première de (El-Asr) :**

El Allama Le Cheikh Mohamed Ibn Ahmed Miara précise que le moment de la prière du Dohr est commun avec le début de la prière d'El-Asr à la fin de la première ombre et cela d'une durée équivalente à l'accomplissement d'une prière de quatre (rakâatte).

3. **Début du moment de la prière du coucher du soliel (El-Maghreb) :**

Cet instant commence au moment précis où le bord supérieur du soleil disparaît à l'horizon d'un lieu donné .

4. **Début du moment de la prière du crépuscule (El-Icha ou El-Ghasseq) :**

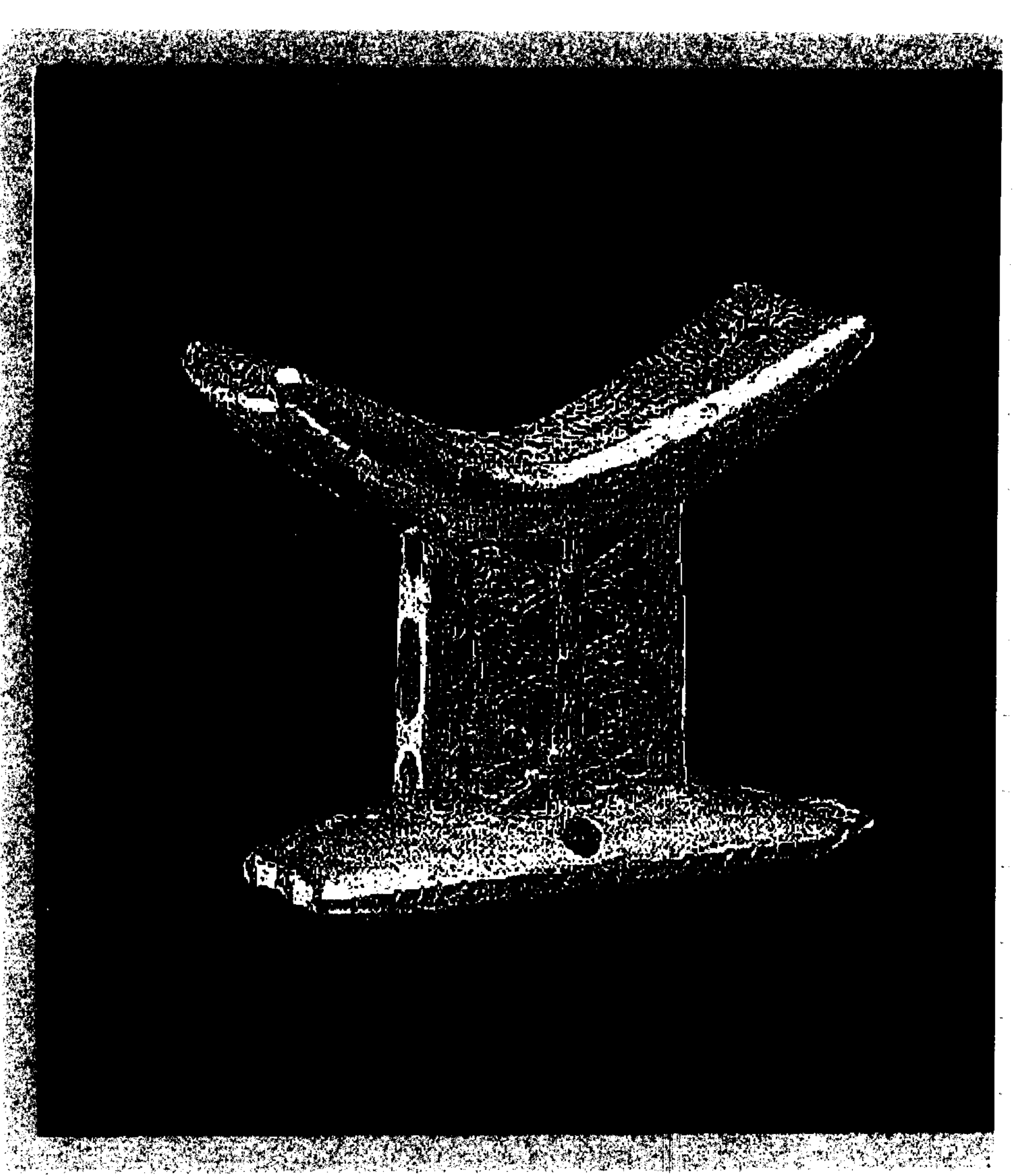
Toujours d'après El-Allama, cet instant commence au moment précis de la lueur rougeâtre (El-Chafaq) qui suit le coucher du soleil et non la lueur blanchâtre qui vient juste après celle-ci, et qui sépare la nuit profonde du jour qui vient de s'écouler.

5. **Début du moment de la prière de l'aube (El-Fadjr):**

Cet instant commence au moment précis de la l'apparition de la première lueur jaunâtre (El-Asfar), qui suit la lueur blanchâtre de l'aube.

تحديد أوقات الصلاة بالطريقة الفقهية حسب، الأستاذ لوط بوناطيرو نقلا عن العلامة الشيخ محمد بن أحمد ميارة ، صاحب كتاب " الدار الثمين و المورد المعين".

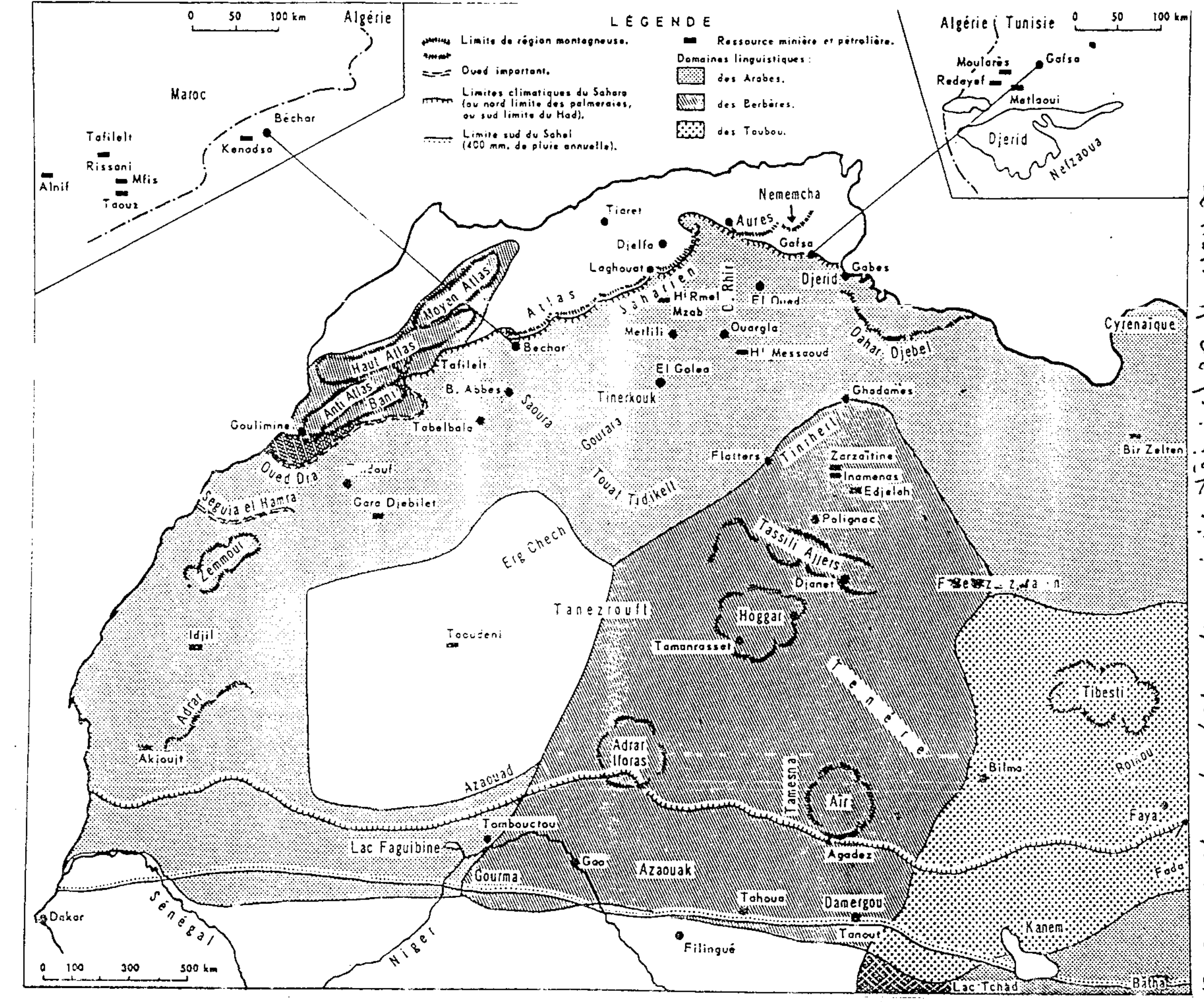
ملحق الصور و الخرائط



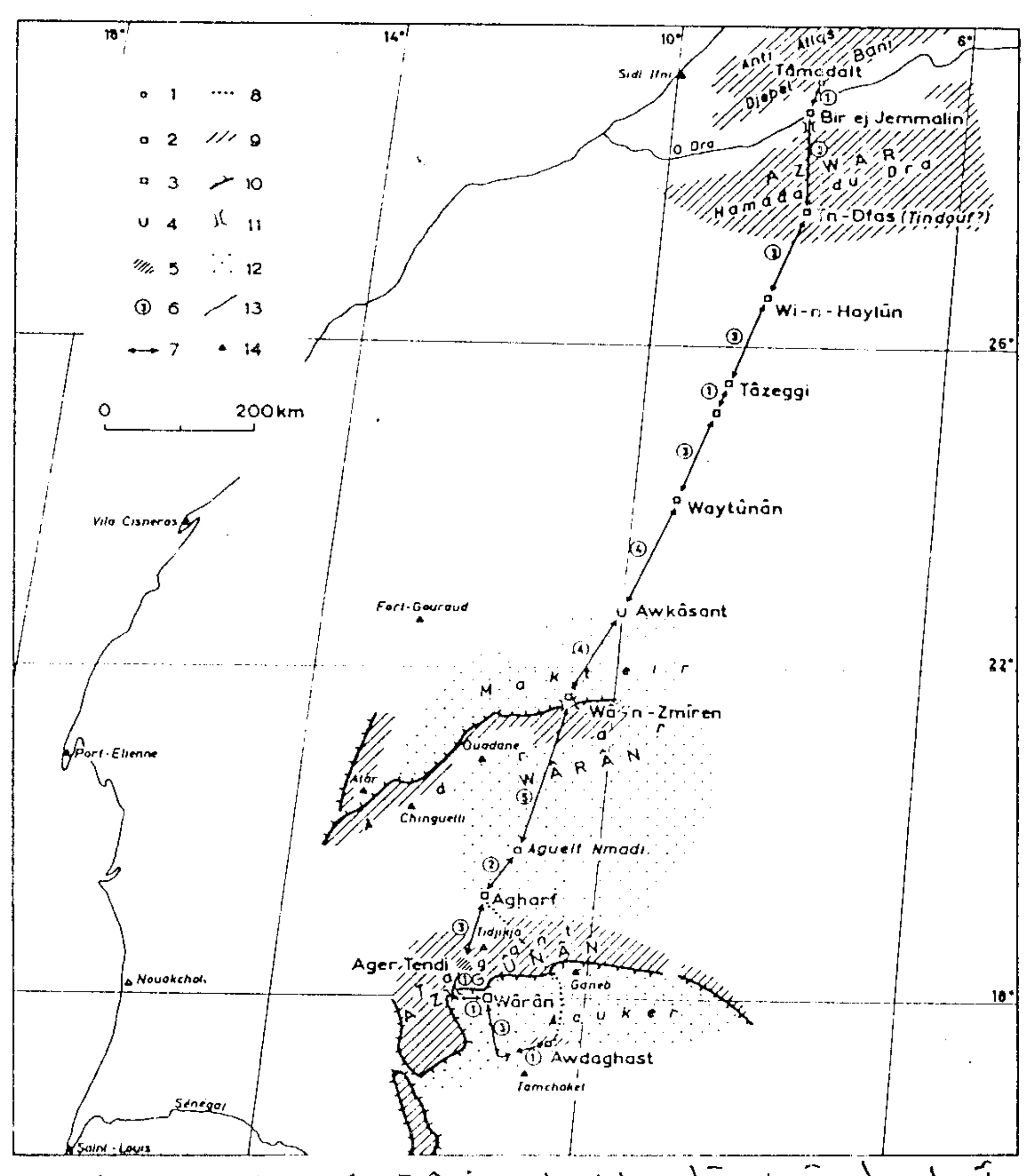
Le tabouret d'or. — المقعد الذهبي .



الرمل الذهبي : عن : Laure Mayer : Les Metaux ...
P. 19

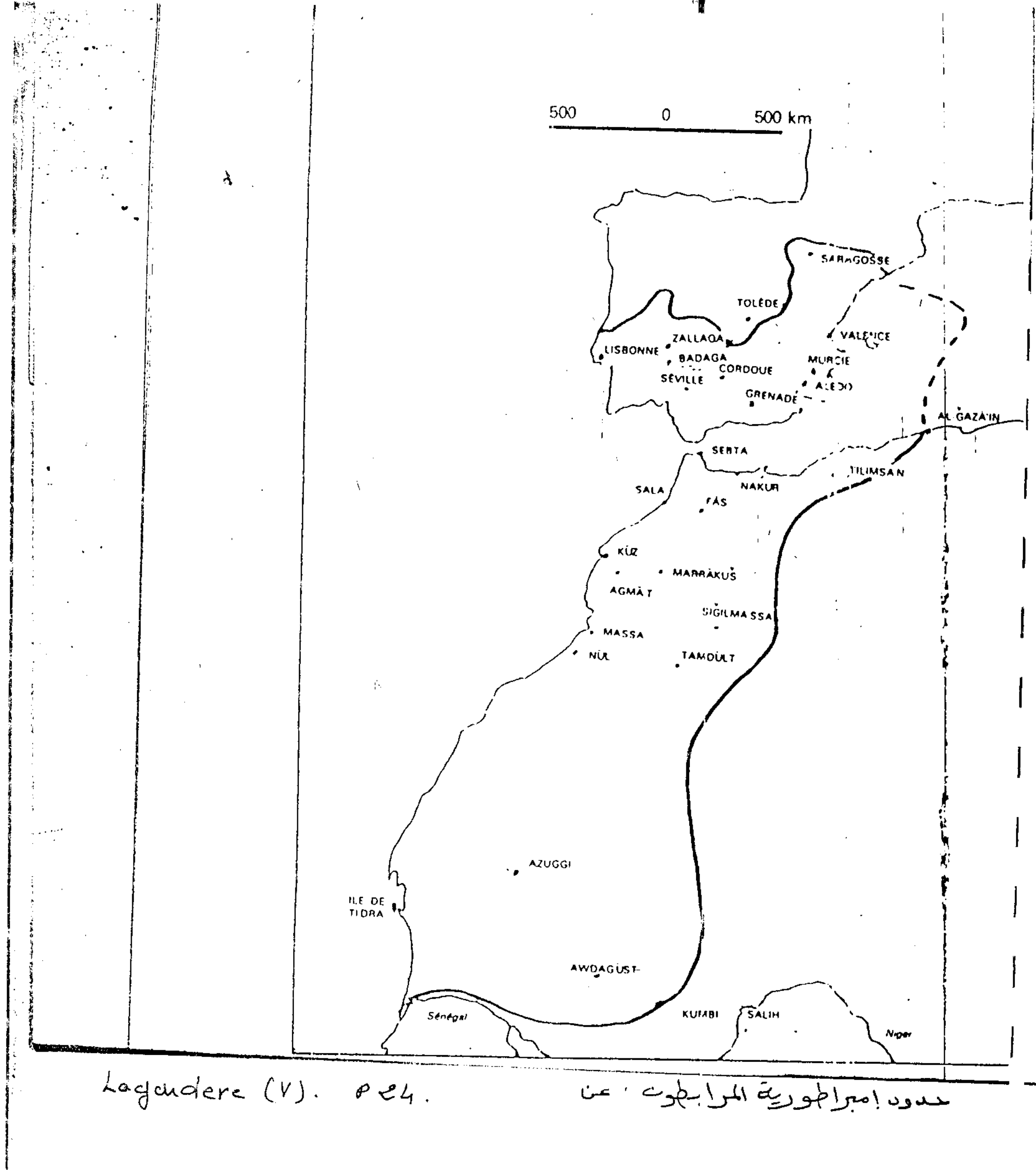


R. Capot; Nomades et Nomadismes...: حدود الصحراء: نقلا عن
P. 16.

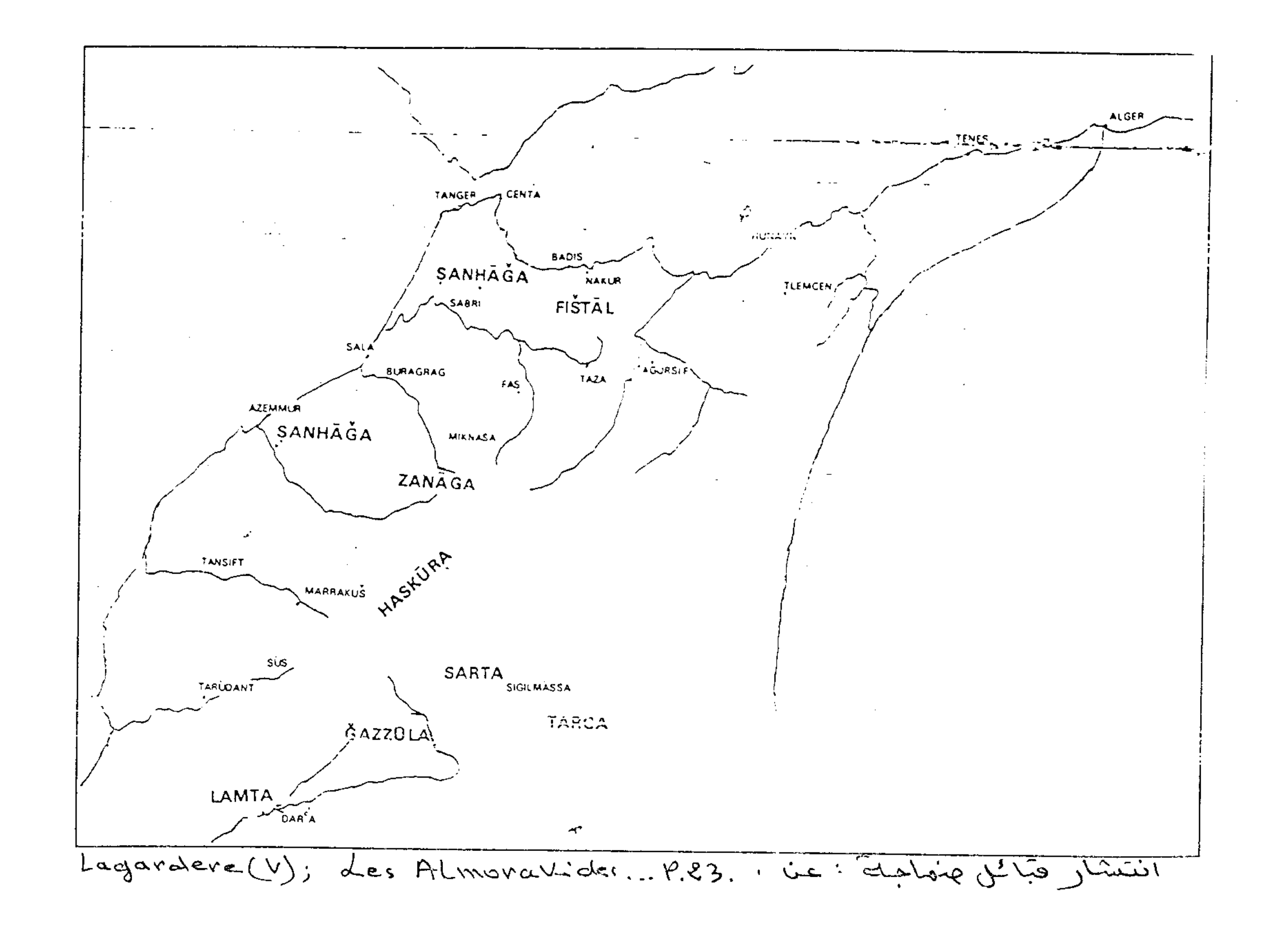


آبار طريق: تامدلت اودغشت كما ذكرها البكري.

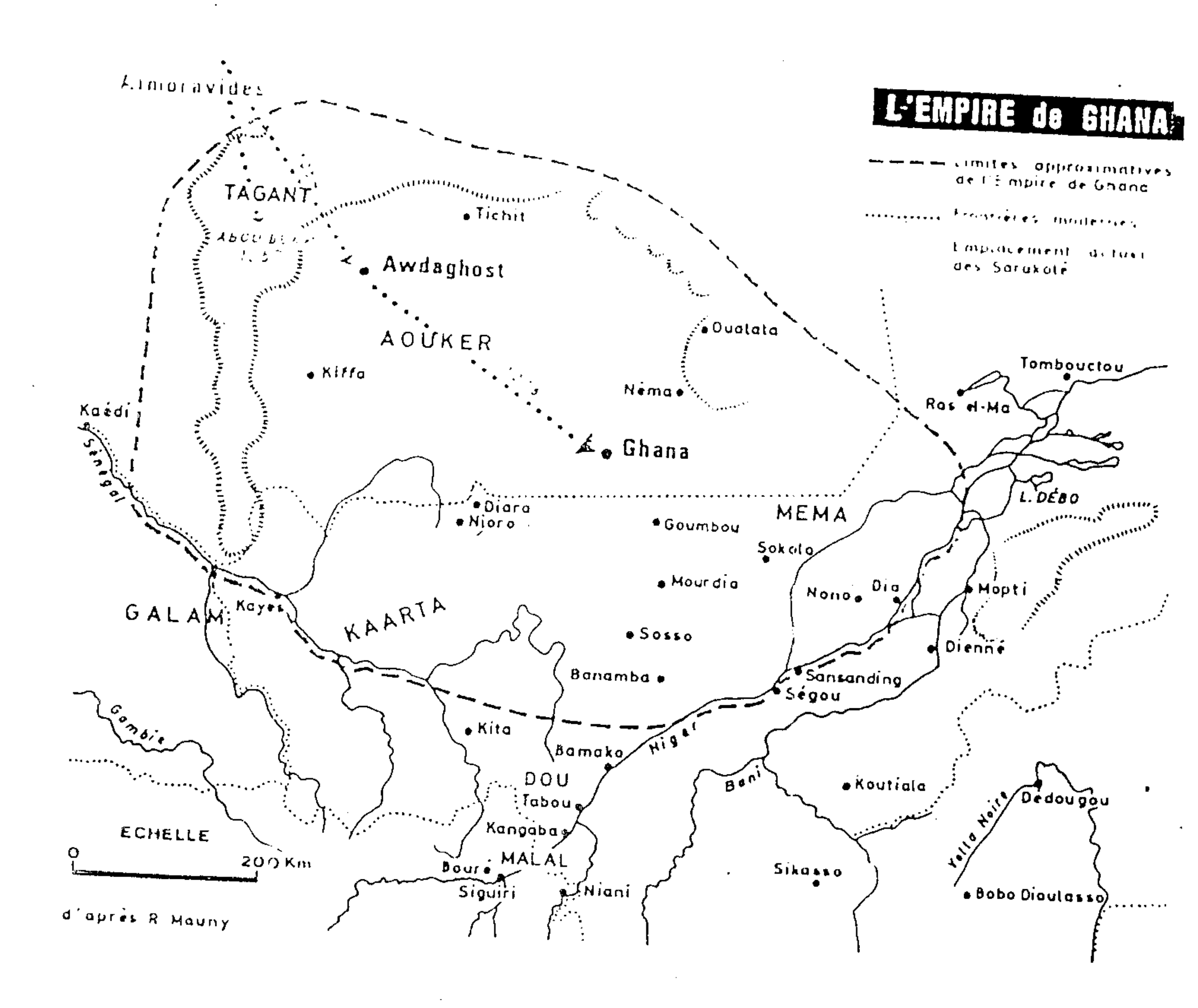
نقلا عن: Devisse (J): Tegdaoust... P.34.



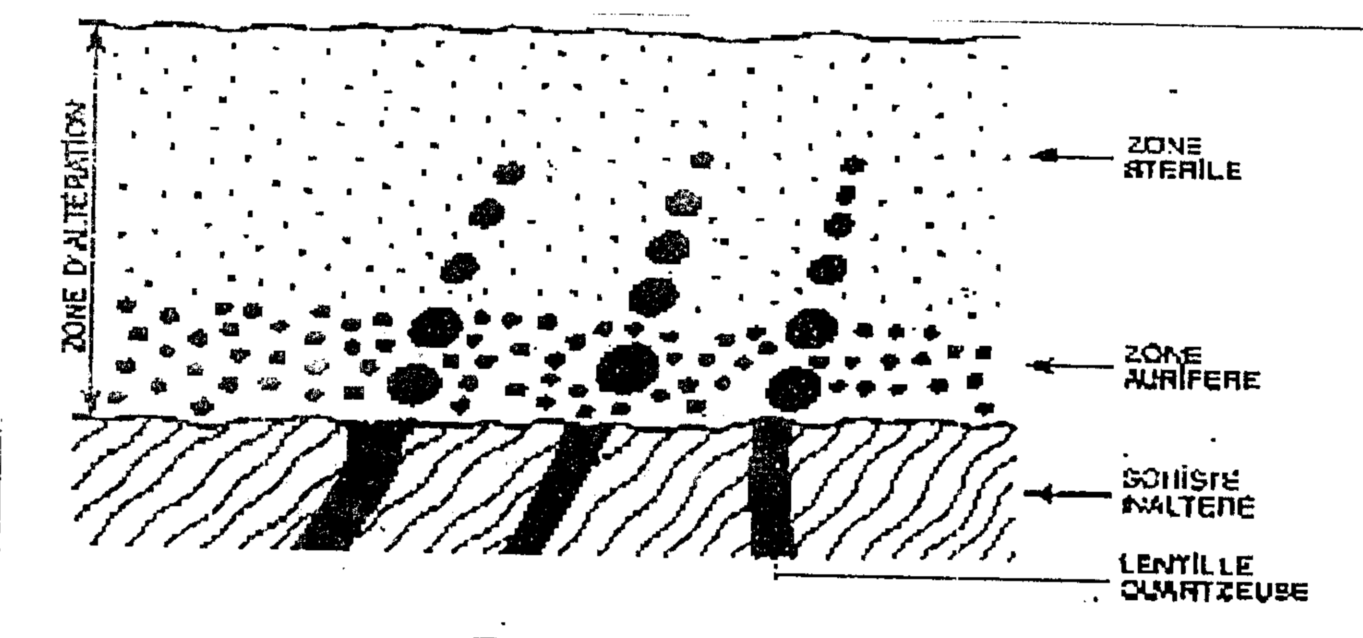
حدود إمبراطورية المرابطين، عن Lagardere (V). P 24.



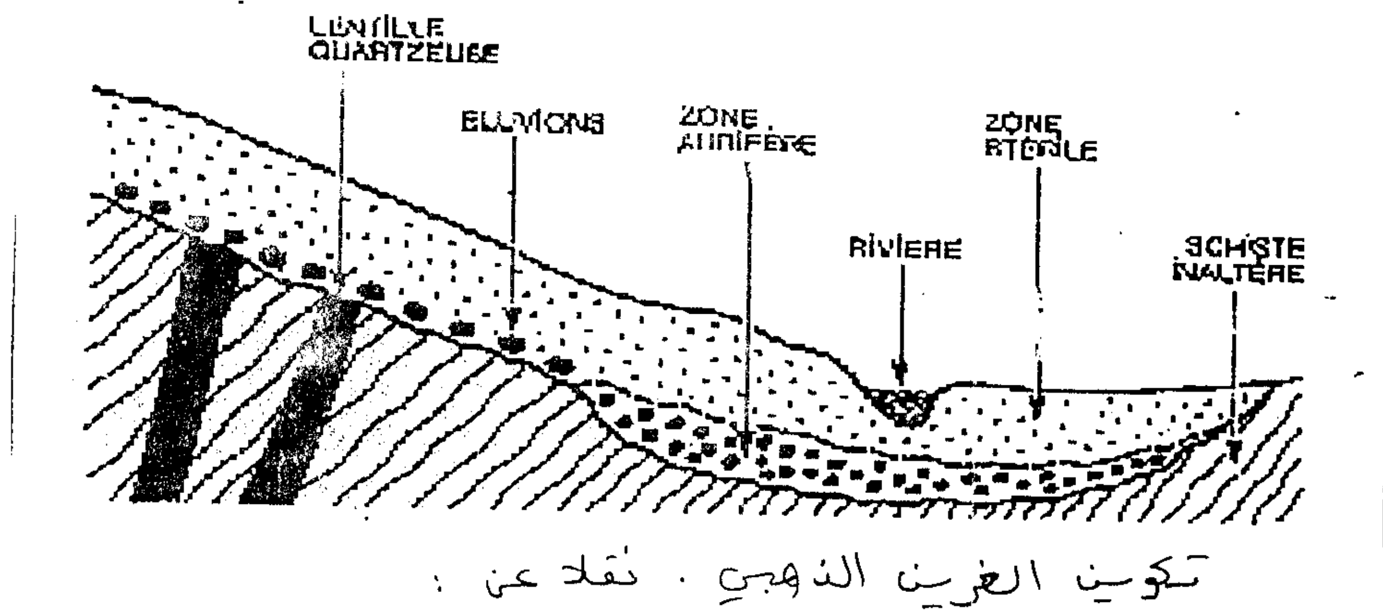
Lagardere (V); Les Almoravides... P.83. : عن ، انتشار قبائل صنهاجة



Bathily (A); les portes de l'or. P. 7. : امبراطورية غانة نقلا عن

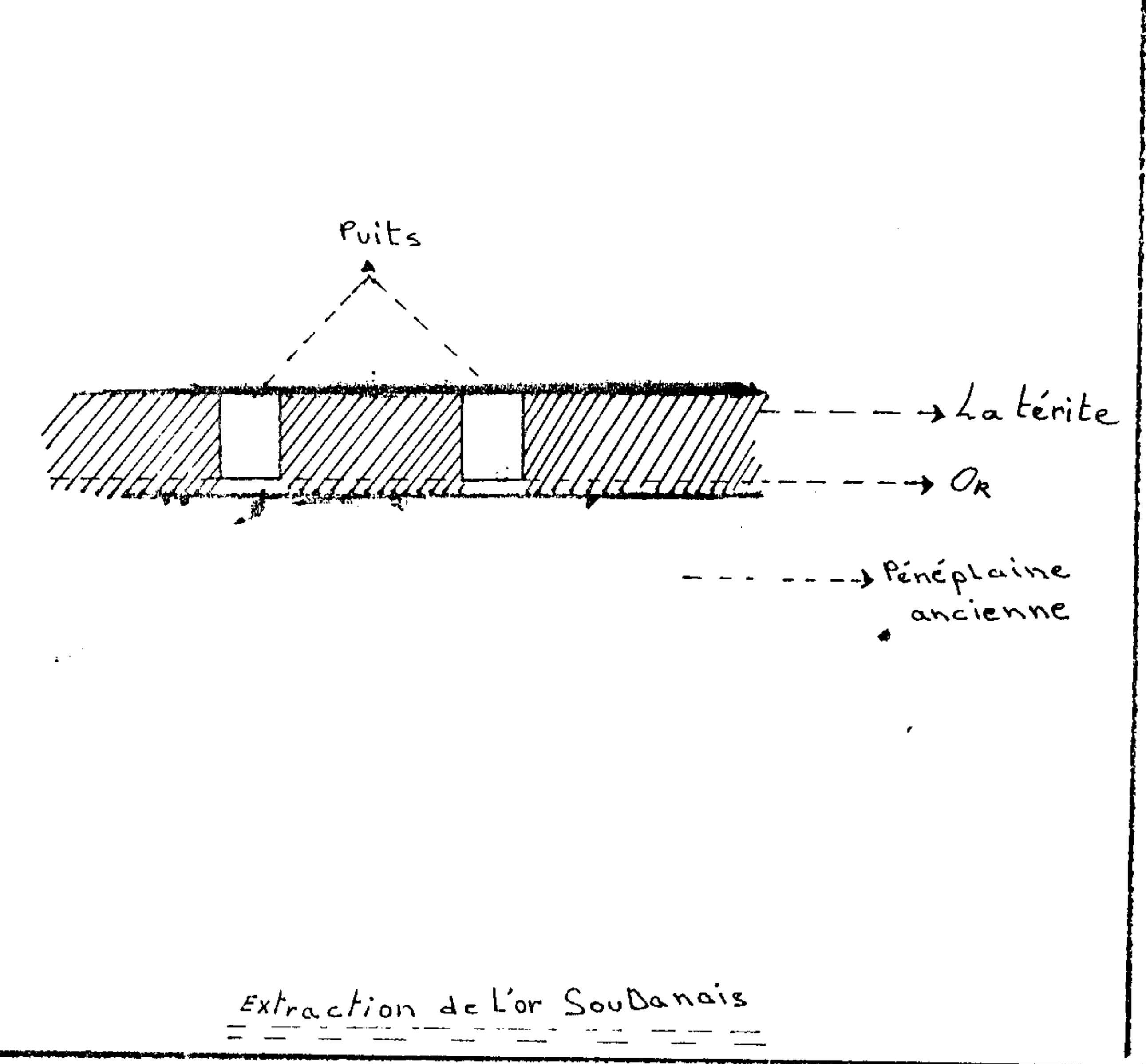


Formation éluvionnaire.



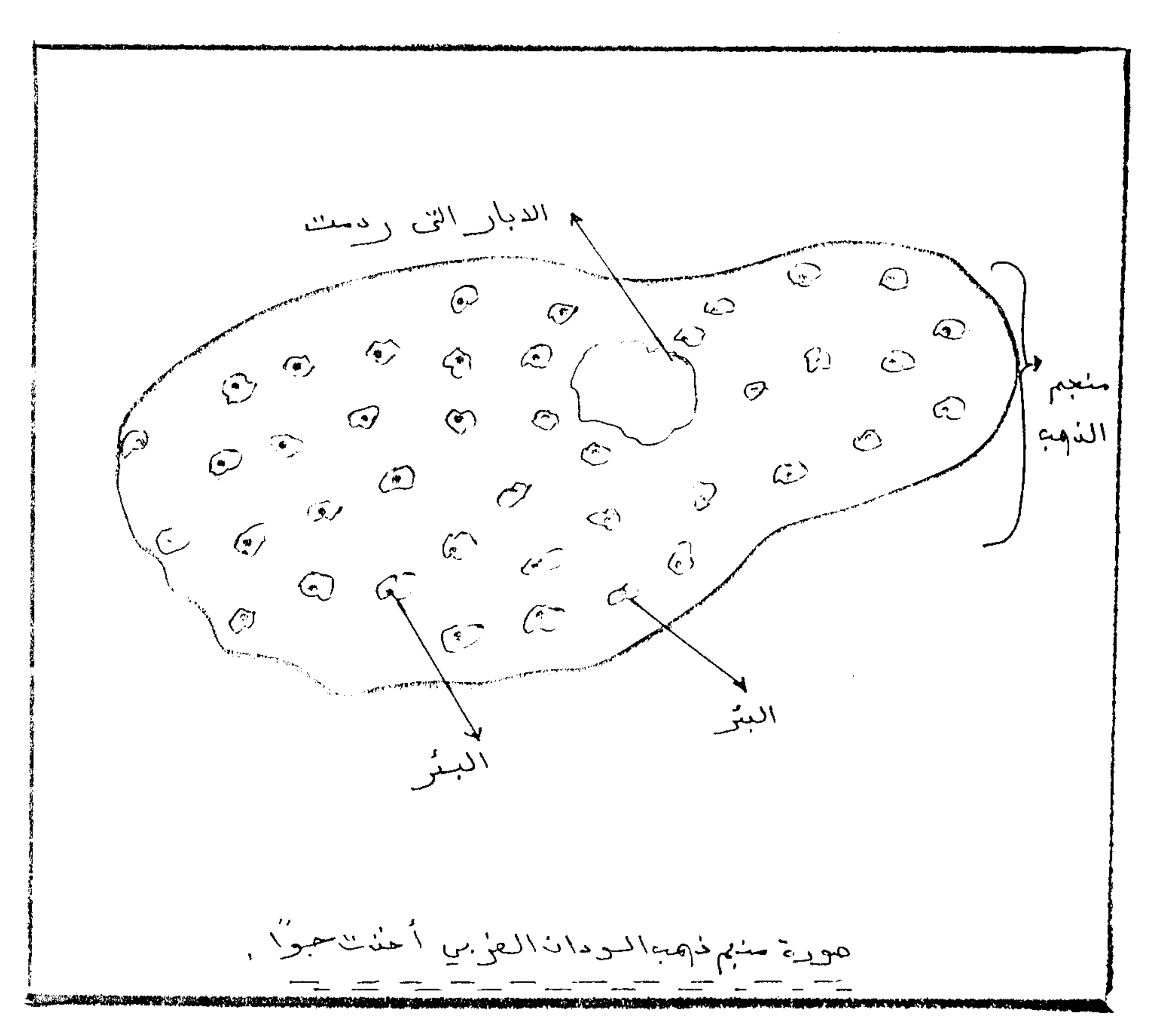
تكوين الغرين الذهبي . نقلا عن :

L'aure Mayer ; Les Metaux precieux dans L'Art de l'Afrique Noire . P. 18 .



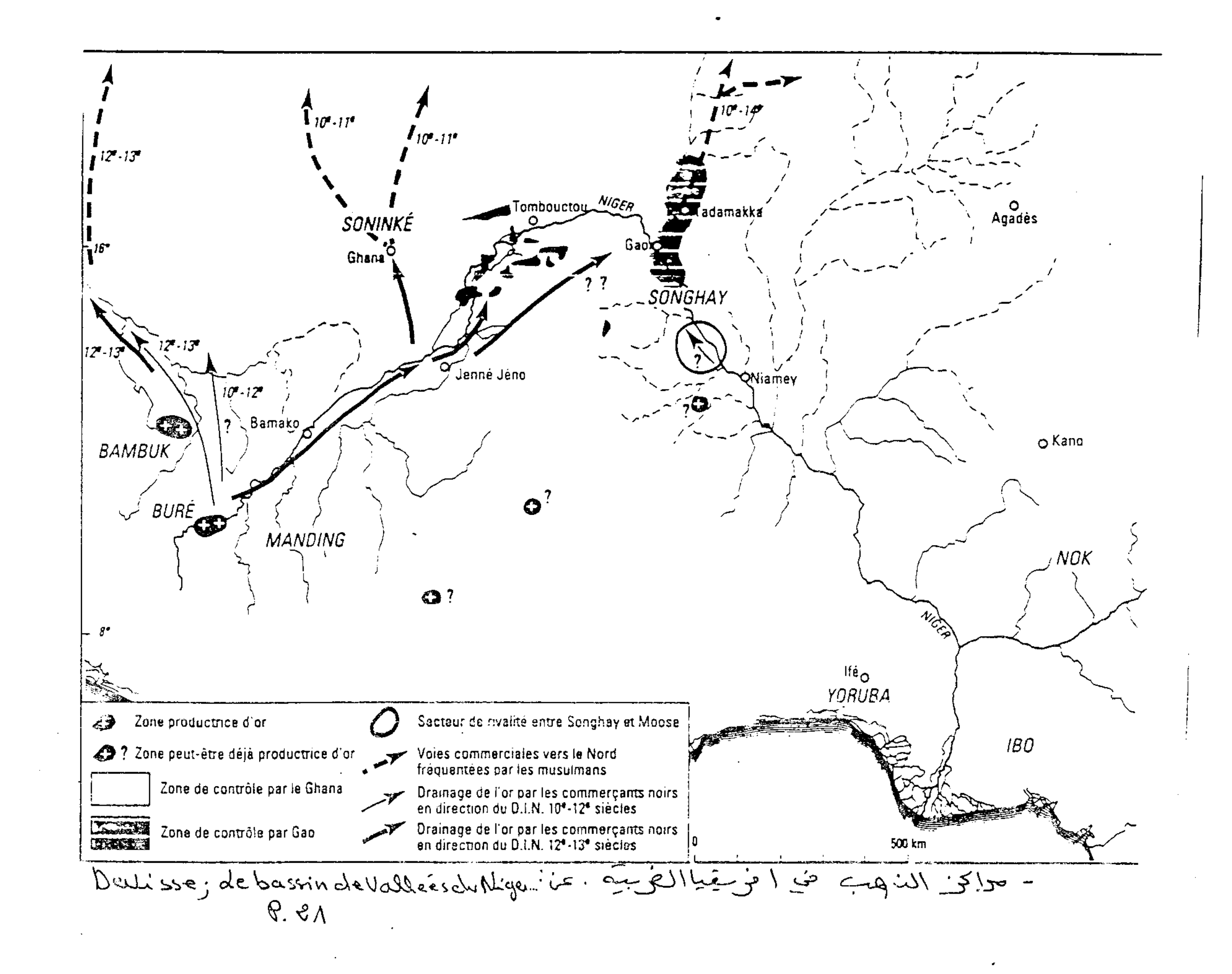
Extraction de L'or Soudanais

Maurice Lombard : Les Métaux Précieux dans L'ancien Monde du V[e] au XI[e] Siècle . P 208 .

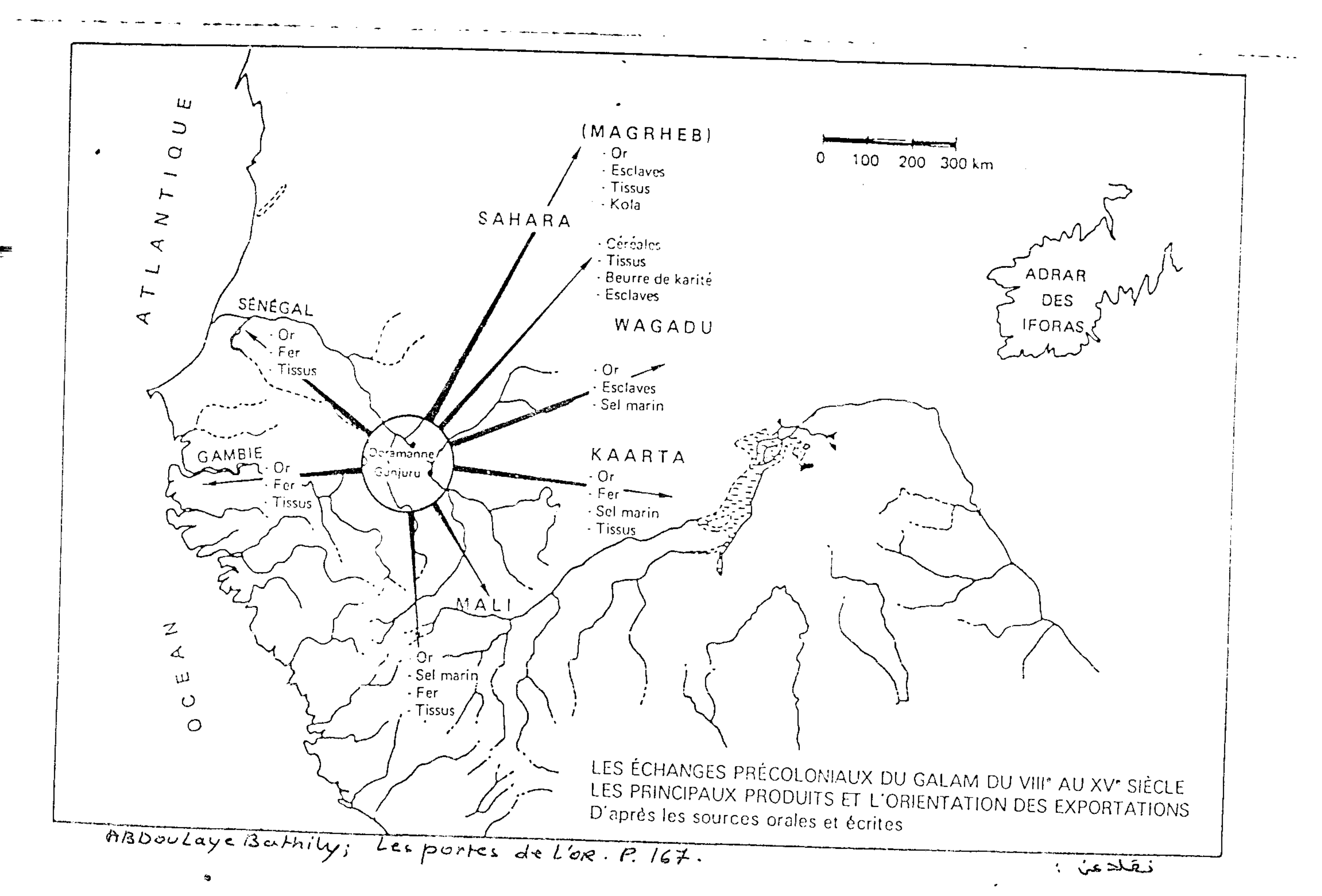


صورة منجم ذهب السودان الغربي أخذت جوا.

نقلا عن : Raymond Mauny : Tableau Geographique...



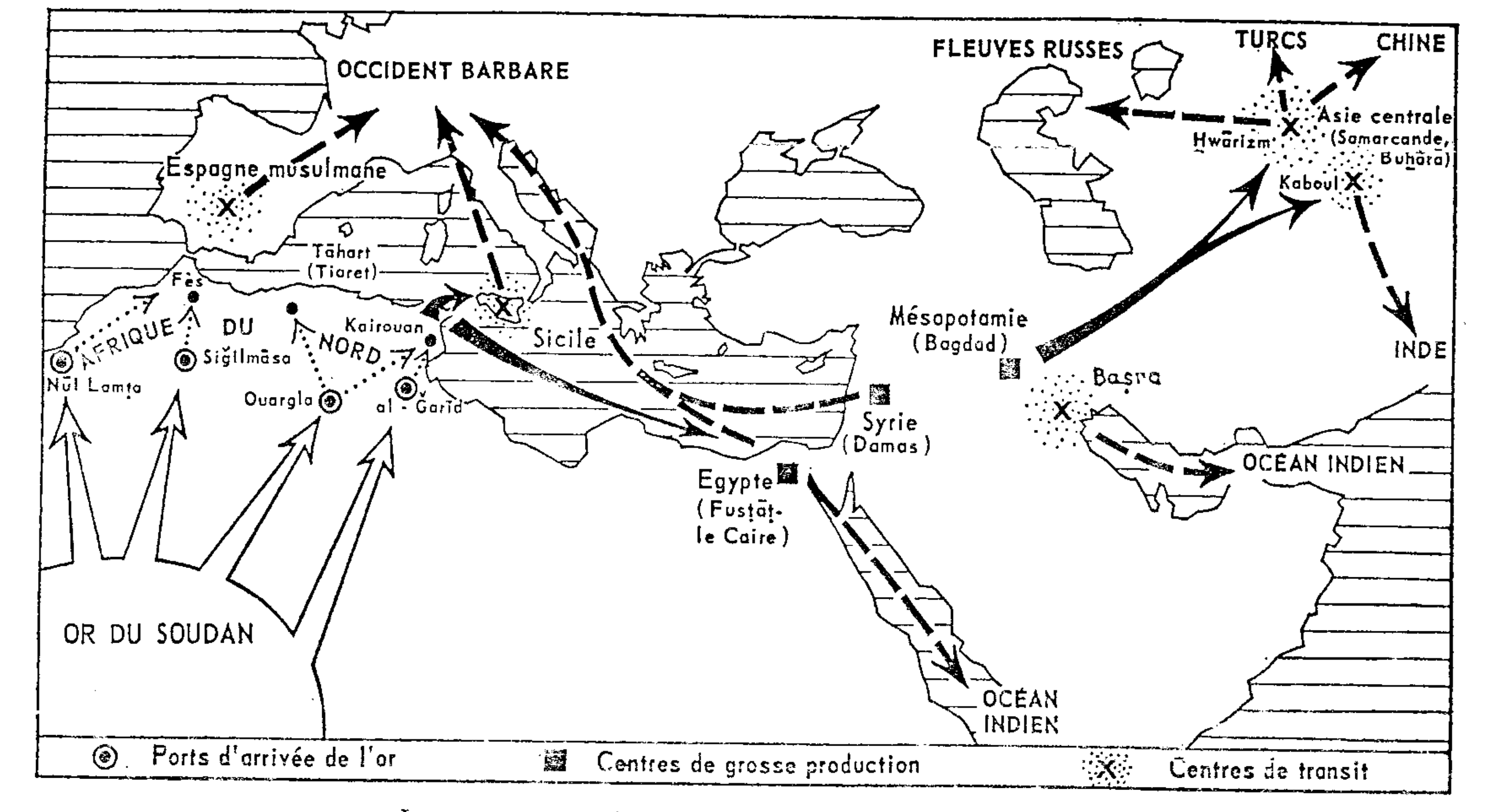
- مراكز الذهب في افريقيا الغربية . عن: Devisse; de bassin de Vallées du Niger... P. ٢٨



LES ÉCHANGES PRÉCOLONIAUX DU GALAM DU VIII[e] AU XV[e] SIÈCLE
LES PRINCIPAUX PRODUITS ET L'ORIENTATION DES EXPORTATIONS
D'après les sources orales et écrites

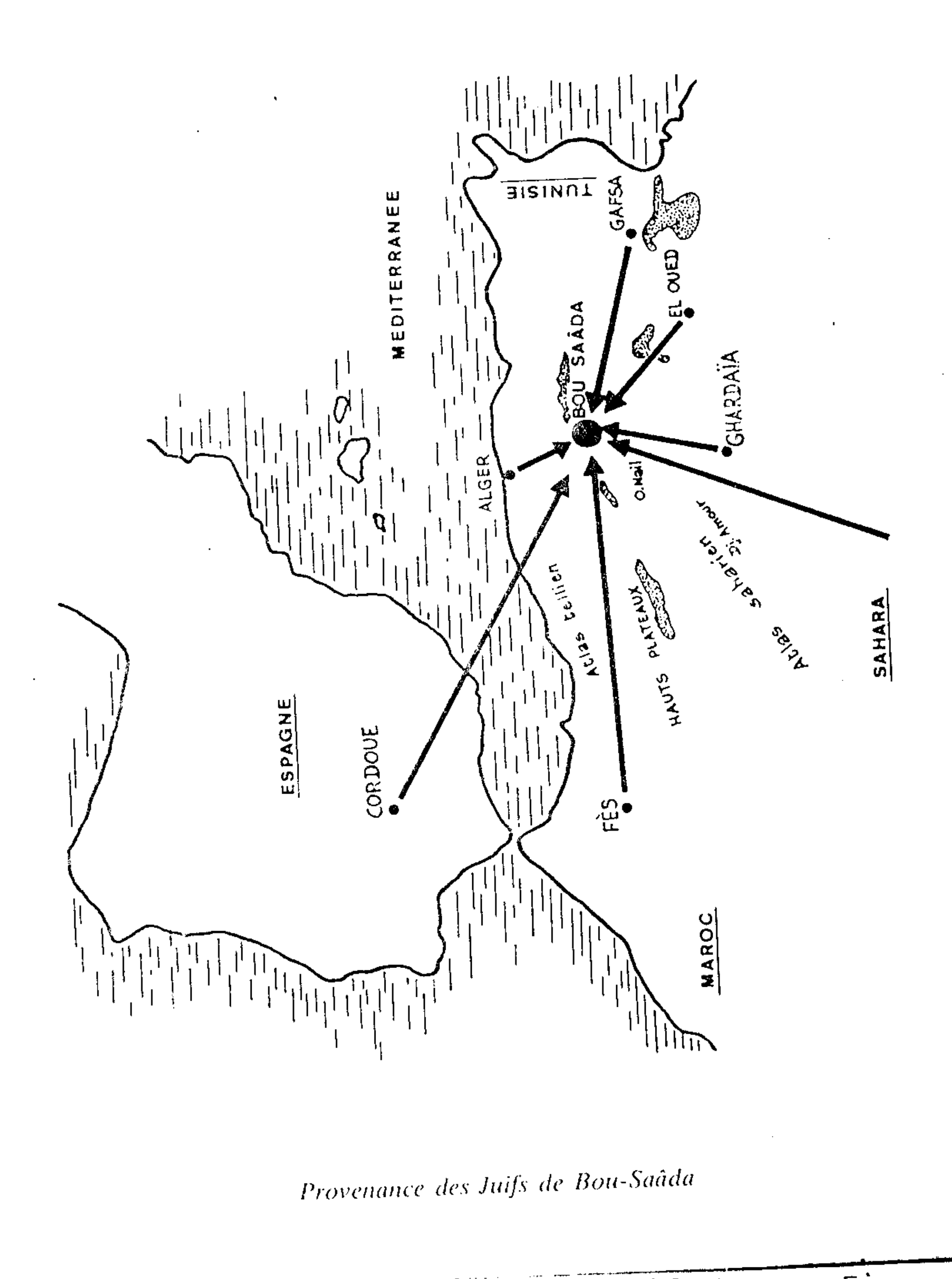
ABDoulaye Bathily; Les portes de l'or. P. 167.

نقلا عن :



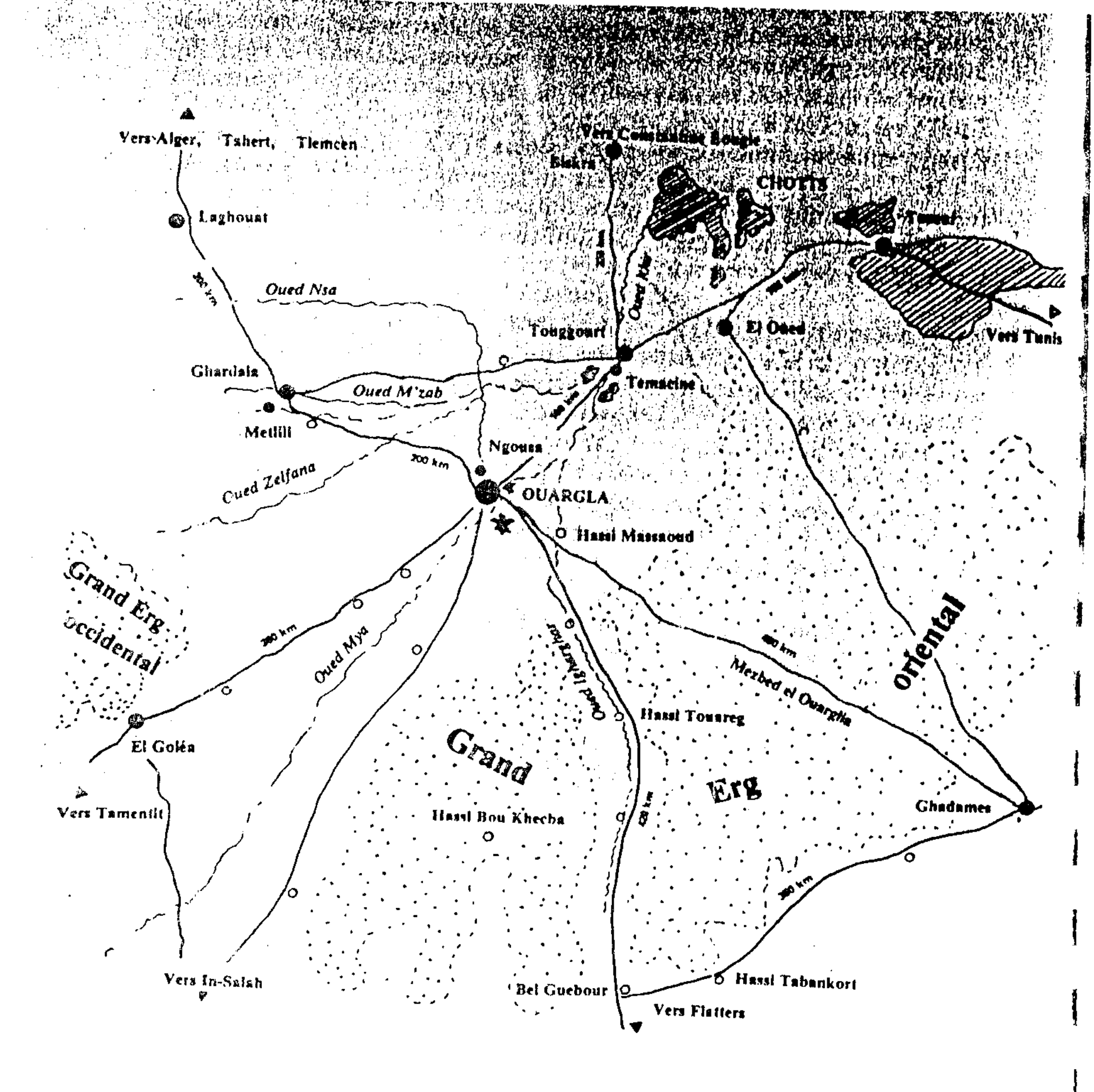
25. Innervation de l'économie musulmane par l'or du Soudan

نقلا عن Maurice (L); Les Metaux Precieux dans L'ancien Monde.
P. ٢٢١.



Provenance des Juifs de Bou-Saâda

Youcef Nacib; Cultures Oasiennes... P. 206.



ورقلة مركز ومحطة لمسالك الصحراء.

عن : LETHIELLEUX(J): Ouargla cité Saharienne. P.134

فهرس المحتويات

الفصـــــل الثـــــاني

معدن الذهب و الأهمية الاقتصادية للمغرب

الفصـــــل الثالـــث

معدن الذهب و التبادل التجاري بين المغرب و السودان

الفصل الرابـــــع

دور اليهود في تجارة الذهب